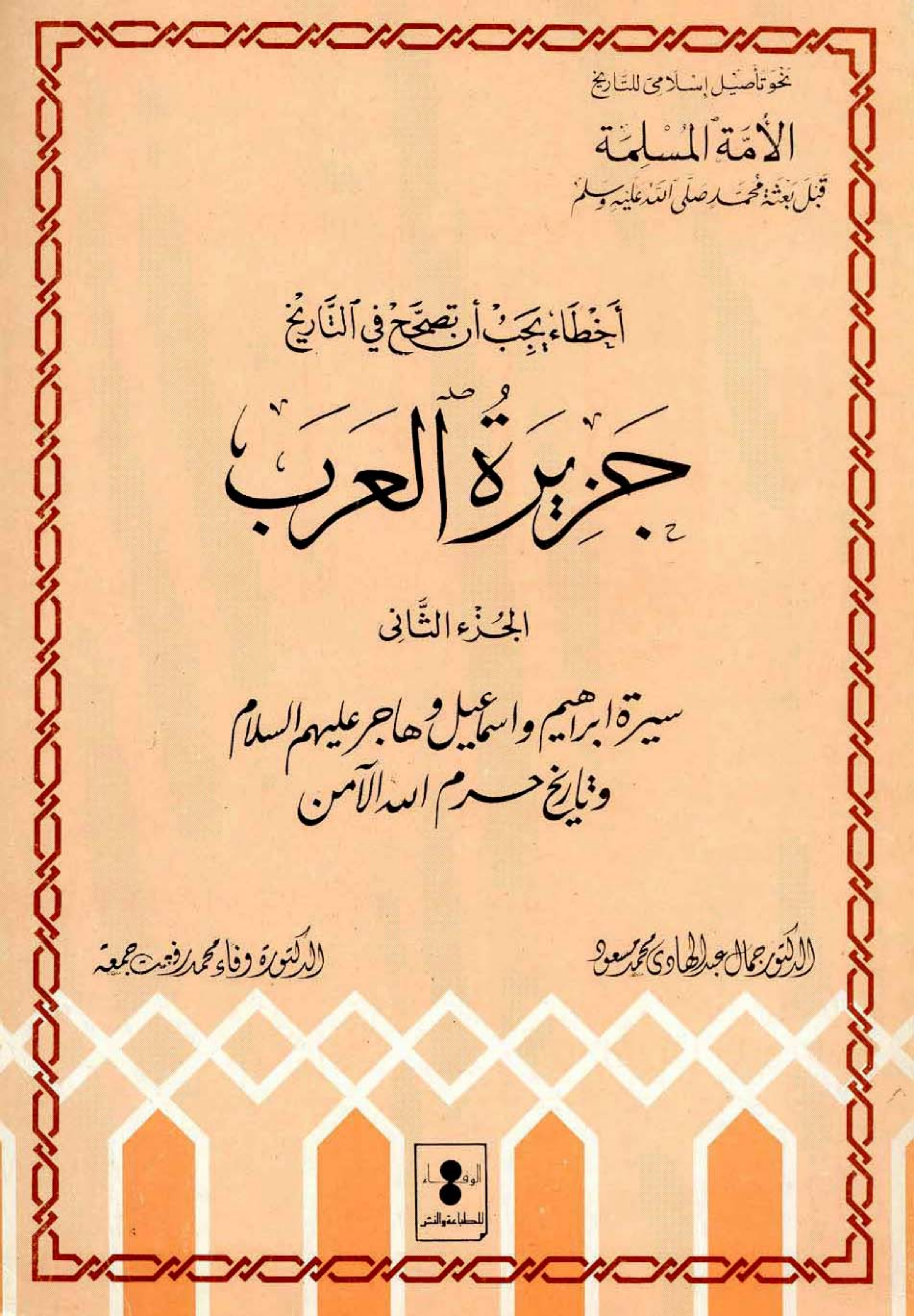


نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

جزيرة العرب

الجزء الثانى

سيرة ابراهيم واسماعيل وهاجر عليهم السلام وتاريخ حرم الله الآمن

الدكتور جمال عبد الهادى محمد مسعود

الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

الوفاء للطباعة والنشر

جَزِيرَةُ العَرَب

الجزء الثاني

نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

قبل بعثة محمد ﷺ

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

جزيرة العرب

الجزء الثاني

سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام و تاريخ حرم الله الآمن

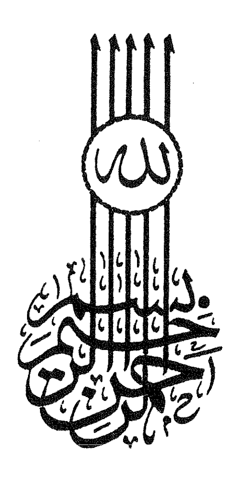
الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامي
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى (سابقا)

الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

الأستاذة المساعدة بقسم التاريخ الإسلامي
« طالبات » كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى (سابقا)

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م


بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ١٣٠ ــ ١٣٦ .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبى الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار . ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾[1] .

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة . اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ما هى حقيقة الصراع الذى يجرى اليوم على امتداد الساحة الدولية ؟

أهو صراع من أجل المادة ؟ أم أنه صراع عقدى بالدرجة الأولى ؟

إذا كان هو صراع عقدى بالدرجة الأولى ، فمن هم أطرافه ؟

ولكن .. لماذا هو صراع عقدى ، بين أتباع الإسلام فى جانب ، وبين أنصار اليهودية والصليبية الذين يزعمون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا ونصارى ؟؟ ولماذا لا يكون هناك تقارب بين الأديان : اليهودية والمسيحية والإسلام ؟ ..

---

(١) البقرة : ١٧٤ - ١٧٦ .

أسئلة كثيرة ، وغيرها كثير ، يدور فى ذهن الدارس المسلم ، ولا يكاد يجد لها إجابات صحيحة ، فى كتابات اليهود والنصارى قديما ، وكتابات المستشرقين اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم من أبناء العرب والمسلمين حديثا .

ولقد ترتب على ذلك :

أن غالب الأمة المسلمة قد عُمِّى عليه حقيقة الصراع الذى يستهدف الإسلام والمسلمين بالدرجة الأولى ، لتظل الأمة المسلمة فى غفلة ، ولتظل مفككة الأوصال ، ولتظل ضعيفة ، ولتجرد - وهذا هو الأهم - من السلاح الوحيد الذى يمكن أن يهىء لها النصر فى ميدان المعركة ، مع تخلفها الفكرى والعلمى والتقنى الذى فرض عليها ، وليسهل فى النهاية الإجهاز عليها .

لقد صوروا الصراع ، للأمة المسلمة على أنه صراع على الأرض ، على موارد الثروات ، على الكرامة ، على المبادىء : « الماركسية والشيوعية والديمقراطية ، والتقدمية والقومية والوطنية .. الخ » .

وإذا فرض وارتفع صوت ليقول : يا بنى الإسلام إنه صراع عقدى ، بين أصحاب الدين الصحيح فى جانب ، وأصحاب الديانات غير الصحيحة فى جانب آخر ، أسرعوا بإخفات صوته ..

وإذا ارتفع صوت ليقول : يا قوم ، إنه صراع بين المسلمين الذين جعل الله رزقهم تحت ظل رماحهم ، وغيرهم من الملل الكافرة ، سارعوا إلى رميه بالتخلف والرجعية .

إذن فما هو وجه الحقيقة فى التساؤلات المطروحة ؟؟ ..

إن هذه التساؤلات هى موضوع دراستنا فى كتابنا هذا ، والذى يليه[1]

---

(١) انظر المؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام .

وسنصل فى نهايتها بإذن الله إلى بيان العديد من الحقائق ومنها :

أولا : إن الصراع الذى يجرى اليوم وغدا ، وكما كان فى الماضى ، هو صراع عقدى بالدرجة الأولى ، يستهدف الأمة المسلمة ودينها أولا ، ثم ثرواتها وخيراتها ثانيا ، ومن أجل هذا شُوِّه وزُيِّفَ وحُرِّفَ التاريخ الإسلامى .

إنه صراع بين الحق وجنده ، ممثلا فى الإسلام وأهله ، وبين الباطل وعسكره ، ممثلا فى اليهودية والصليبية وأعوانهما من الملحدين والشيوعيين .

إنها معركة العقيدة ، هذه هى المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة .

إنها معركة العقيدة هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ، وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها ، ولكنها تلتقى دائما فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين .

إنها معركة العقيدة فى صميمها وحقيقتها ، ولكن المعسكرين العريقين فى العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاما شتى فى خبث ومكر وتورية . إنهم قد جَرَّبُوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ، ومن ثم استدار الأعداء فغيروا أعلام المعركة ، لم يعلنوها حربا باسم العقيدة – على حقيقتها – خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها ، إنما أعلنوها باسم الأرض ، الاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية وما إليها ، وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها . ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها ، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ؛ بينما هم فى قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بالإضافة إلى الشيوعية العالمية – جميعا يخوضون – المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها طويلا فأدمتهم جميعا .

ما تزال الأمة المسلمة تعانى من دسائس اليهود .ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس ، غير أن الأمة المسلمة لا تنتفع مع الأسف –

بتلك التوجيهات القرآنية ، وبهذا الهدى الإلهى ، الذى انتفع به أسلافها [١] فغلبوا كيد اليهود ومكرهم فى المدينة ، والدين ناشىء والجماعة المسلمة وليدة ... وما يزال اليهود - بلؤمهم ومكرهم - يضللون هذه الأمة عن دينها ، ويصرفونها عن قرآنها ، كى لا تأخذ منه أسلحتها الماضية وعدتها الواقية ، وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية وينابيع معرفتها الصافية ... وكل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود . سواء عرف أم لم يعرف ، أراد أو لم يرد ؛ فسيظل اليهود فى مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التى تستمد منها وجودها وقوتها وغلبتها - حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيمانى والشريعة الإيمانية - فهذا هو الطريق ، وهذه هى معالم الطريق [١] .

ولكن ما صلة هذا الموضوع ، موضوع الصراع الذى يجرى الآن على امتداد الساحة الدولية ، بسيرة إبراهيم عليه السلام وذريته ؟ وتاريخ الحرم الآمن وبيت الله العتيق ؟؟

الواقع أن صلة سيرة إبراهيم عليه السلام وذريته ، وتاريخ البيت العتيق وحرم الله الآمن ، بالصراع الذى يجرى على امتداد الساحة الدولية اليوم ، صلة وثيقة ، لأن تاريخ إبراهيم عليه السلام وذريته وتاريخ البيت العتيق وحرم الله الآمن ، والدين الذى دعا إليه إبراهيم عليه السلام قد حرف وزيف وشوه لصبغ هذه الهجمة التى يشنها اليهود والنصارى ضد الأمة المسلمة بالصبغة الدينية الشرعية ، فاليهود فى هجمتهم على أرض الشام واغتصابهم لأرض فلسطين لإقامة وطن يهودى عليها (مثلا) ، تمهيدا لدولة يهودية عالمية تسيطر - لا أقول على العالم الإسلامى فحسب - ولكن على العالم أجمع ، يدَّعون أنهم يفعلون ذلك لأنهم شعب الله المختار ، ولأن الله سبحانه وتعالى قد وعد جدهم إبراهيم عليه السلام بأرض فلسطين له ولذريته اليهود - كما يزعمون - من بعده ، وأنهم - أى اليهود - إنّما ينتسبون - ليس إلى إبراهيم فحسب ولكن أيضا إلى يعقوب (إسرائيل) وموسى وداود وسليمان عليهم السلام - على اعتبار - فى زعمهم -

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ١٠٨ .

أن هؤلاء أنبياء يهود .

وأعداء الإسلام - من اليهود والصليبيين - يدركون أن السد المنيع الذى يقف بينهم وبين تحقيق أطماعهم هو المسلمون - ومن هنا - جاء مخططهم لهدم الدين الإسلامى كنظام ربانى صالح لكل زمان ومكان ، ولتحقيق هذا المخطط شوه وزيف وحرف التاريخ الإسلامى .

ومن هنا يتضح لنا أنه لابد من إعادة عرض التاريخ الإسلامى ومنه تاريخ إبراهيم وذريته ، وتاريخ الحرم الآمن وبيت الله العتيق ، وتنقيته مما علق به من شوائب على يد المستشرقين مع بيان التزييف والتشويه والتحريف الذى تعرض له ذلك التاريخ وبإتمام ذلك ، وكتابة التاريخ الإسلامى الصحيح ينهار الأساس الحضارى الذى تستند عليه الهجمة اليهودية - الصليبية التى تستهدف الأمة المسلمة ودينها ، كما تتضح حقيقة الصراع الذى يجرى على امتداد الساحة الدولية فتدرك الأمة المسلمة أنها مستهدفة فى دينها وعقيدتها .

ثانيا : إن الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء والرسل هو الإسلام[١] ، وهو الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[٢]

ثالثاً : لم يدع نبى ولا رسول إلى يهودية أو مسيحية فليست هناك يهودية صحيحة وأخرى غير صحيحة ، ليست هناك مسيحية صحيحة ومسيحية غير صحيحة ، إنما اليهودية والمسيحية « بدعة وليست من الله تعالى »[٣] .

رابعا : إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام لم يكونوا هودا أو نصارى ، لم يدع أى منهم إلى يهودية أو نصرانية ، ولكنهم دعوا جميعا إلى الإسلام ، وإن كان : ﴿ ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[٤] . وبالتالى فلا يمكن أن يكون هنالك تقارب بين الإسلام

---

(١) انظر المؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر .
(٢) آل عمران : ٨٥ . (٣) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ . (٤) المائدة : ٤٨ .

واليهودية والنصرانية ؛ لا يمكن أن يكون هناك تقارب بين الحق والباطل .. لأن الإسلام يعتبر اليهود والنصارى كفارا ملزمين باعتناقه : ﴿ قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ﴾[٤] ، والتقارب بين الأديان دعوة يهودية ... ليست هنالك أديان سماوية ، وإنما هو دين واحد دعا إليه جميع الأنبياء والرسل ، وهو الإسلام المقهور عليه جميع الكون بما فيه من مخلوقات ، عدا الإنسان الذى ترك له دائرة الاختيار : أن يستسلم لله رب العالمين أو يمرق عن دين الله ، الذى أسلم له من فى السموات والأرض طوعا وكرها ..

وللحديث بقية .. وما توفيقنا إلا بالله .

---

(٤) آل عمران : ٦٤ .

المقدمة

نماذج للتشويه والتزييف الذى تعرض له تاريخ :

(أ) إبراهيم عليه السلام وذريته .

(ب) البيت العتيق .

(جـ) حرم الله الآمن .

(د) مكة المكرمة .

(هـ) مناسك الحج .

على أيدى المستشرقين ومن سار على نهجهم .



المقدمة

نماذج لتشويه وتزييف تاريخ إبراهيم وذريته :

لم يتعرض تاريخ للتشويه والتزييف والتحريف مثل ما تعرض له تاريخ الأمة المسلمة ، ولم يتعرض تاريخ دين للتشويه والتزييف والتحريف مثل ما تعرض له تاريخ الدين الإسلامي كعقيدة وشريعة وكنظام للحياة صالح لكل زمان ومكان ، ولم يتعرض تاريخ إنسان للتشويه والتزييف والتحريف بعد محمد ﷺ — مثل ما تعرض له تاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، ولم يتعرض تاريخ بلد من البلاد للتحريف والتشويه والتزييف مثل ما تعرض له تاريخ الحرم الآمن وتاريخ مكة المكرمة وتاريخ البيت العتيق ، على أيدى المستشرقين اليهود والنصارى والملحدين يعاونهم جيش كبير من أبناء العرب والمسلمين .

لقد ترتب على ذلك أن أصبح التاريخ الذى يدرس فى دور العلم على مستوى العالم أجمع – إلا ما رحم ربى – يكتظ فى مصادره ومراجعه ومناهجه وموضوعاته بأباطيل وترهات لا حد لها . ومن هذه الأباطيل :

أولا : لا وجود للتاريخ الإسلامى ، تاريخ الدين الإسلامى ، وتاريخ الأمة الإسلامية الواقع التطبيقى لهذا الدين قبل بعثة محمد ﷺ [1] . فسيرة إبراهيم وإسماعيل وإمامة البيت العتيق موضعها مادة ما تسمى عرب قبل الإسلام أو « عرب الجاهلية » .

ثانيا : إن إبراهيم كان يهوديا[2] ، وزعم البعض الآخر إنه كان نصرانيا .

ثالثا : إن إبراهيم هو آخر ملك من الملوك الساميين الموحدين الذين

---

(١) حضارة العرب ؛ تاريخ العرب العام ؛ العرب قبل الإسلام ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ١ ، ص ١٤٦ ؛ الحضارات السامية القديمة ، ص ١٣٩ ، قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ص ٣٢٤ ، الموسوعة العربية ، ص ٣ .

حكموا فى بابل وإنه قد رحل إلى فلسطين بعد سقوط حكم أسرته[1] وذلك يعنى فى زعم مروجى الأباطيل أن إبراهيم لم يكن نبيا ولا رسولا إلى قومه المشركين ولا أن الله قد أنجاه من محاولة حرقه بالنار إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

رابعا : إن وصول إبراهيم وإسماعيل وهاجر إلى جوار بيت الله الحرام كان مصادفة ولم يكن بتوجيه من الله سبحانه وتعالى ، بل إن بعض الدراسات الاستشراقية تنكر القصة برمتها وتعتبرها من صنع الخيال .

خامسا : التشكيك فى كون المأمور إبراهيم بذبحه ، ابنه إسماعيل (عليهما السلام) والزعم أن سياق القصة يرجح أن الذبح والفداء كانا فى فلسطين [2] .

سادسا : إن تاريخ مكة وبناء الكعبة المشرفة ، تاريخ أسطورى [3] أى خرافى لا أصل له .

سابعا : إن الحج عادة عربية وثنية قديمة [4] ، ولعلها من مظاهر عبادة الشمس .

ثامنا : إن تحديد الأشهر الحرم حدث نتيجة اتفاق عرب الجاهلية فيما بينهم عليها ، وليست توقيفا من عند الله عز وجل ونسوا قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرضَ منها أربعة حرم ﴾ [5] وإن هذا

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ ، تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٣ ، وهو يعتمد على كتاب فيلبى ، عصر ما قبل الإسلام .

(2) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٨ . مثال ذلك ما كتبه الكاتب الإنجليزى موير .

(3) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٣ ، ١٢٩ ؛ الاتجاهات الوطنية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

(4) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ ؛ تاريخ العرب المطول ، ص ١٨٥ .

(5) التوبة : ٣٦ .

التحديد العربى يشبه الهدنة الربانية التى كانت معروفة فى أوربا فى العصور الوسطى ، ويقصد الكاتب بذلك أن المسلمين قد حرموا الأشهر الحرم لتحريم النصارى لها* .

تاسعا : إن أخبار إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام مبنية على ما ورد فى التوراة ، وليس هناك مصادر تصدقها أو تكذبها (١) (أى أن الأخبار التى أوردها القرآن والسنة ليست معتمدة لدى الكاتب) .

عاشرا : إن إبراهيم عليه السلام أخذ فكرة التوحيد – فى زعمهم – عن إخناتون (٢) (أول نبى من أنبياء الوحدانية) .

حادى عشر : إن إبراهيم عليه السلام هو أصل اليهود وأنه قد ارتاب فى وعد الله له بأرض فلسطين .

ثانى عشر : إن إسماعيل عليه السلام وأمه قد أخرجا إلى برية بئر سبع (وليس إلى مكة المكرمة) (٣) .

ثالث عشر : إن هاجر قد اكتشفت بئر زمزم (أى أنه كان موجودا قبل وصولها) وفى هذا تشكيك فى معجزة تفجره نتيجة همزة من جناح أحد الملائكة (جبريل عليه السلام) تحت قدمى إسماعيل بناء على تكليف من الله عز وجل (٤) .

رابع عشر : إن المسلمين يقدسون زمزم (٥) ، جريا على عادة الجاهلية ، وأن ماء زمزم يميل إلى الملوحة ويؤذى الذين يشربون (٦) منه بكثرة .

---

* تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٦٨ .

(١) جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ٧٢ – ٧٦ .
(٢) عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد ، ب ، ٤١٠ .
(٣) جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ٧٢ ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٤٤ .
(٤) دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد ٩ ، الطبعة ٣ ، ص ٣٥٤ .
(٥) تاريخ العرب المطول ، ص ١٣٤ ، الشرق الخالد ، ص ٢٩٨ .
(٦) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٢٠ ، دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد الرابع ، ص ٩٥٤ .

خامس عشر : إن الحجر الأسود يكون شاهدا يوم القيامة لمن يسجدون أمامه (١) ، ولعله صاعقة من السماء (٢) ، وأن المسلمين يعبدون الحجر الأسود (٣) .

سادس عشر : إن سبب رحلة إبراهيم عليه السلام وزوجه « سارة » إلى مصر فى عهد جبار من جبابرتها ، كان بسبب القحط الذى أصاب أرض فلسطين ، وأنه كان راغبا (أى إبراهيم عليه السلام) فى الإقامة فى مصر ، ولكن الوشاة أجبروه على (٤) تركها ؛ وأن إبراهيم عليه السلام ، قد أصاب خيرا كثيرا من وراء عرض زوجه سارة التى أخذت إلى جبار مصر فى ذلك الوقت .

سابع عشر : كما زعم البعض الآخر أن هجرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى مكة كانت بحثا عن عصبية وعشيرة بعد أن ترك أهله وعشيرته كما زعموا (٥). وذلك غير أباطيل أخرى كثيرة أفردنا فصلا فى الرد عليها آخر هذه الرسالة .

---

(١) تاريخ العرب العام ، ص ٣٠ .

(٢) ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ٤ ، ص ١٨ - ١٩ .

(٣) تاريخ العرب المطول ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٤) دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

الفصـــل الأول

الجزء الأول

التصحيح مع شيء يسير من فقه الدعوة الإسلامية من خلال سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام

المرحلــة الأولى

(أ) إبراهيم عليه السلام على أرض الرافدين (دجلة والفرات)

- مولد إبراهيم عليه السلام ونشأته « بأور » جنوب الرافدين .
- إبراهيم عليه السلام مفطور على الإسلام .
- الله يرعى إبراهيم عليه السلام ويؤتيه رشده .
- نسب إبراهيم عليه السلام .
- أهل الرافدين وهم قوم إبراهيم وعشيرته يشركون بالله ويعبدون الشمس والقمر والنجوم .
- طاغية الرافدين يدعى القدرة على الإحياء والإماتة .
- إبراهيم عليه السلام يعلن كفره بآلهة قومه المدعاة ، ويعلن إسلامه لله رب العالمين .

(ب) إبراهيم عليه السلام يحاول أن يستنقذ أباه وقومه من ظلمات الشرك والجاهلية التى يعيشون فيها .

- إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله وإفراده وحده بالعبادة .
- موقف القوم من دعوة إبراهيم عليه السلام إلى الإسلام : الرفض .
- إبراهيم عليه السلام يعلن براءته وعداوته لأبيه وقومه المشركين .
- إبراهيم عليه السلام يناظر كبير الطواغيت الذى ادعى القدرة على الإحياء والإماتة ، ويقيم عليه الحجة .

(جـ) إبراهيم عليه السلام يحطم آلهة القوم متحديا بذلك المجتمع بأسره ، ويتعرض للابتلاء

- الله سبحانه وتعالى يثبت إبراهيم عليه السلام وينجيه من النار .

(د) الخسران الذى حل بأهل الرافدين (العراق)

- التدمير والإخراج من الوطن .

المرحلة الثانية

هجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى بيت المقدس

الجـــزء الأول
سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام

أفرد الله سبحانه وتعالى ، آيات من كتابه الكريم ، للحديث عن سيرة نبى كريم من أولى العزم هو إبراهيم عليه السلام ، وعن سيرة نبى صادق الوعد هو إسماعيل عليه السلام . كما حفظت لنا سنة النبى محمد ﷺ بعض أنباء عن سيرة النبيين الكريمين ، وسيرة السيدة هاجر ، زوج إبراهيم ، وأم إسماعيل عليهم السلام . ومن خلال العرض القرآنى ، وعرض السنة لهذه الأنباء يمكن أن نتبين مراحل رئيسية فى حياة هؤلاء الكرام عليهم السلام .

المرحلة الأولى

(أ) إبراهيم عليه السلام على أرض الرافدين (دجلة والفرات) :

وإبراهيم الخليل عليه السلام من مواليد بابل [١] فى أرض الرافدين وقد آتاه الله رشده فى صغره ، وابتعثه رسولا واتخذه خليلا فى كبره قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ [٢] .

وينسب إبراهيم عليه السلام إلى أبيه آذر [٣] وينتهى نسبه كما حكى الكثير من المؤرخين إلى سام بن نوح عليه السلام . أى أنه كان وقومه من سلالة المسلمين الذين نجوا من الطوفان ، الذى أهلك الله به قوم نوح الكافرين . وكان

---

(١) وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣٩) ؛ والطبرى أيضا أورد رواية تشير إلى أن ميلاد إبراهيم عليه السلام كان فى بابل أرض السواد الوركاء (أور) تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ .

(٢) الأنبياء : ٥١ .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٤٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ – ١٥٢ .

قد نجح الشيطان مرة أخرى فى اجتيالهم عن دينهم وهو الإسلام الذى قام على أرض الرافدين ، أى أنهم ارتدوا عن الإسلام الذى كانوا عليه .

فى هذه المرحلة نمأ إبراهيم وترعرع ، وتفتحت عيناه على قوم ، أشركوا بالله عز وجل ، وعبَّدوا أنفسهم لآلهة من نحت أيديهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، إذ أن حكام أرض الرافدين قد ادعوا الألوهية والربوبية ، وبالتالى حق التشريع للأمة .

وإبراهيم عليه السلام ، كان كغيره من بنى آدم مفطورا على الإسلام : « مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1] ومأخوذ عليه العهد كبقية أبناء آدم بأن له ربٌّ متصف بكل صفات الجلال والكمال ، من الواجب توحيده وإفراده وحده بالعبادة : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾[2] . ولكن إبراهيم عليه السلام ، ولد ونشأ فى قوم، بل فى بيت قد خيم عليه ظلمات الشرك ، فوالده كان ينحت الأوثان ويبيعها ، وكان يمكن لظلمات الشرك أن تطوى حياة إبراهيم عليه السلام ، ولكن الله كان قد أعانه على هذا حينما رزقه فطرة موحدة تعرف خالقها وبارئها وتكفر بالجاهلية التى حولها وتكفر بالشرك الذى يزاوله الناس فى حياتهم .

فها هو إبراهيم عليه السلام ينكر على أبيه وقومه أن يتخذوا أصناما آلهة ويصفهم بأنهم فى « ضلال مبين » . ومن المؤكد أنه قد جرى بينه وبين قومه مجادلات ومحاورات ومناظرات ، كان يمكن – وهذا من باب الاحتمال – أن تكون ذات أثر ولو باهت على نفس إبراهيم فإذا بيد الله سبحانه وتعالى تأخذ بيده ، وتوجهه إلى تأمل الآلهة المدعاة من دون الله التى يعبدها قومه ، سواء أكانت كوكبا أو شمسا ، ليصل إبراهيم عليه السلام فى النهاية إلى قناعة تامة بفساد

---

(١) حديث شريف ، انظر صحيح البخارى ، جنائز ؛ المعجم المفهرس ، جـ ٥ ، ص ١٨٠ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ .

(٢) الأعراف ١٧٢؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ – ٢٦٤ .

العقيدة التى عليها أبوه وقومه ، ويكون من الموقنين بسلامة عقيدته ويشهد فى نهاية التأمل بأنه لا إله إلا الله ، وليبرأ من الشرك والمشركين ، ويعلنها فى صراحة لا مواربة فيها - فى مواجهة مجتمع كافر يملك كل مقومات القوى المادية الظاهرة ، ويملك كل مقومات البطش والطغيان - أنه كافر بآلهته وطواغيته ؛ وأنه لا يخاف تلك الآلهة والطواغيت ، لأنه فى رعاية القوة الكبرى التى لا أمان إلا فى جوارها ، وهى قوة الله سبحانه وتعالى ؛ وليقول فى النهاية بتوجيه من الله عز وجل : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (١) .

(ب) إبراهيم عليه السلام يحاول أن يستنقذ أباه وقومه من ظلمات الشرك والجاهلية التى يعيشون فيها :

وواصل إبراهيم عليه السلام محاولاته لهداية أبيه وقومه فها هو يبين لأبيه فساد عبادته ، فآلهته المدعاة ، لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنه شيئا ، كما حاول إقناعه بأنه من الواجب عليه اتباعه ، لأنّ لديه من العلم الربانى الشىء الكثير - حتى يسلك طريق المهتدين ، كما نهاه عن عبادة الشيطان الذى كان للرحمن عصيا . كما خوّفه أن يصبح فى النهاية من حزب الشيطان .

ولكن الوالد أصر على كفره وشركه بالله عز وجل ، ولم يقف عند هذا الحد بل هدد ابنه وفلذة كبده بالرجم إذا لم يتوقف عن دعوته ، بل وطلب أن يفارقه : فماذا كان موقف إبراهيم الأواه الحليم من والده ؟ .

(أ) قال : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾ (٢) .

ولكن هل لنفس مجتباة مصفاة كنفس إبراهيم أن تستغفر لأب أصر على شركه بالله عز وجل ، وهو يدرى أن الوشيجة التى بينه وبين أبيه قد انقطعت بسبب كفر أبيه ، لقد قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿ سأستغفر لك ربى ﴾ ؛ فلما علم أنه عدو لله تبرأ منه : ﴿ وما كان

---

(١) الأنعام ٨٢ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .
(٢) مريم ٤٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ .

استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلمّا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ (١) .

(ب) قال : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾(٢) فلابد من البراءة من الشرك والمشركين ؛ ﴿ إنَّا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله .. ﴾ (٣) ولابد من الكفر بالشرك والمشركين : « كفرنا بكم » ولابد من معاداتهم وبغضهم : « وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا » لأنه لا حب ولا ود ولا ولاء بين المسلم وغير المسلم . ولا عجب فى ذلك الموقف من إبراهيم عليه السلام فهو من أولى الأيدى والأبصار ومن المصطفين الأخيار .

(جـ) لما شاع أمر دعوة إبراهيم عليه السلام فى قومه ، فإذا بكبير الطواغيت (ملك بابل ؟) يدعوه لمناظرته فى ربه الذى يدعو إليه ، وكانت المناظرة التى ثبت فيها عجز كبير الطواغيت ، حينما طلب منه إبراهيم أن يأتى بالشمس من المغرب ، ﴿ فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (٤) .

(جـ) إبراهيم عليه السلام يحطم آلهة قومه المزعومة متحديا بذلك المجتمع بأسره ويتعرض للابتلاء :

وحينما أدى إبراهيم عليه السلام واجبه فى البلاغ كاملا ، بكل الوسائل المتاحة له ؛ أراد فى النهاية أن يلقن قومه درسا لا ينسونه ، علهم يفيقون . فها هو الحليم الأواه ، يحطم أصنامهم ، بعد أن بين بالدليل والبرهان عجزها عن أن تحمى نفسها . فضلا عن أن تحمى غيرها فقدم لهم بذلك الدليل والبرهان على فساد عقولهم ، حينما عبدوا أصناما نحتوها بأيديهم .

---

(١) التوبة ١١٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ .
(٢) مريم ٤٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٣) الممتحنة : ٤ .؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٤٨ .
(٤) البقرة ٢٥٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

وحينما أسقط فى يد الجاهلية ، وتبين لها فساد تصوراتها وعقيدتها ، وأحست أن سلطانها قد تزلزل على يد الفتى اليافع إبراهيم عليه السلام ، لم تجد من وسيلة لاسترداد سلطانها المهزوم ، إلا بالخلاص من إبراهيم عليه السلام ؛ تصورا منها أن الله سبحانه وتعالى سوف يسلمها مصطفاه وخليله إبراهيم عليه السلام تفعل به ما تشاء ، ونسيت أنه من عادى وليا لله ، فقد آذنه سبحانه وتعالى بالحرب ، ونسيت أن الدعوة دعوة الله ، والإسلاَم دين الله ، وإذَا ما قدّرَ لنبى أو داعية أن يستشهد فسيقيض الله للدعوة من يرفع لواءها .

وقام سدنة الجاهلية بتجهيز النيران ، للخلاص - فى تصورهم - من الصوت الذى ارتفع بلا إله إلا الله فصدع بنيانهم . لقد تصورت الجاهلية أنها بهذا العمل سوف تتخلص من الداعية إلى الله ، ومن الدعوة التى تنزع السلطان من أيديهم وترده إلى الله سبحانه وتعالى .﴿ وكان الله بكل شىء محيطا ﴾[1] .

﴿ قالوا : حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ [2] .

ولعل من قدر الله سبحانه وتعالى ، أن تكشف لنا الدراسات التاريخية الحديثة ، عن طبيعة الخسران الذى حاق بأهل الرافدين نتيجة كفرهم بالله عز وجل ومحاولة قتل رسول الله إبراهيم عليه السلام .

(د) الخسران الذى حل بأهل الرافدين (العراق) :

هل يمكن التعرف على طبيعة الخسران الذى حاق بأهل الرافدين جزاء لهم على كفرهم بالله عز وجل ، ومحاولة قتل رسولهم إبراهيم عليه السلام ؟ لعل من قدر الله عز وجل أن تكشف لنا النصوص السومرية ، القديمة على لسان شاعر سومرى ، عن نهاية « أور » التى كان يحكمها الملك « أورنمو » فى أواسط القرن العشرين قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى رحل فيه إبراهيم عليه السلام ولوط إلى بيت المقدس ، بعد أن نجّاه الله من محاولة قتله بالنار .

---

(١) النساء ١٢٦ .
(٢) الأنبياء ٦٨ - ٦٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

فالنصوص السومرية تحكى لنا أن « أور « مسقط رأس إبراهيم عليه السلام قد تعرضت لهزتين عنيفتين ؛ فقد هاجمها شعبان هما شعب العيلاميين وشعب الأموريين (وهذا من باب إهلاك الظالمين بالظالمين) ، وسيطر هؤلاء المهاجمون على « أور » التى سقطت بين فكى الكماشة ، واقتسم مجدها العيلاميون والأموريون . ولقد نظم شاعر سومرى خبر دمار أور (بعد فترة من وقوعه) واعتبره دمارا لسومر كلها ، وبدأ الشاعر قصيدة بقوله : « فارق الفحل مقره وتفرق قطيعه مع الرياح » ... ... ثم عدد أسماء المدن السومرية الكبرى .. ثم أخذ ينعى مصير المدن وينعى تساقط لبنات مساكنها . وبدأها بمدينة – أور – ثم انتقل إلى وصف قرار (السماء) بدمارها وسفك دماء أهلها ... « واستمر نحيب الناس ، وامتلأت الطرق بجثث القتلى الذين حطمتهم الرماح والمقامع ، وظلوا تحت وهج الشمس حتى أذابت الشمس شحومهم ، أما من نجوا فقد ذلّوا وجاعوا حتى تخلت الأم عن ابنتها ، وهجر الأب ولده ، وفارقت الزوجة زوجها .

ونعت نينجال بدورها الدمار الذى لحق بداخل المدينة وخارجها : « وقالت : تراكم الوحل فى أنهار مدينتى ، وأصبحت كأنها جحور الثعالب ، وما عاد الماء يجرى فيها ، وهجرها عُمّالُها ، ولم يتبق غلال فى حقول بلدى وهجرها مزارعوها وأصبحت أجمات النخيل والكروم بعسلها ونبيذها (جرداء) كقمة الجبل ، ضاعت مدينتى « وتحولت دارى إلى أطلال ، وقامت مدينة غير المدينة ودار غير الدار ، يا ويلى أين أجلس وأين أقف ؟ أنا نينجال طردت من دارى ولم يعد لى مقر ، وغدوت شريدة فى مدينة غريبة » .

« ورد الشاعر على نحيب نينجال بنحيب مثله ، قائلا : مليكتى ، أصبح فؤادك كالماء ، فكيف تعيشين ؟ أيتها السيدة العادلة التى تخربت مدينتها كيف تعيشين ؟ دموعك أصبحت دموعا غريبة ، فالبلد لم تعد تذرف الدموع ... وإلى متى يا ترى ستظلين غريبة بجوار مدينتك ؟ ثم تمنى أن تؤوب إلى ديارها أوبة الفحل إلى حظيرته » [1] .

---

(١) د . عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٤٥ .

ويرى « الكاتب » أن تأليف القصيدة لا يتأخر أكثر من سبعين عاما أو ثمانين عاما بعد تدمير « أور » .

وإذا كان ما روته النصوص قد حل بأور بعد رحيل إبراهيم عليه السلام بعد نجاته من محاولة حرقه بالنار ، لأنه كان يدعو إلى توحيد الله والدخول فى الإسلام ، إذا كان ما روته النصوص صحيحا ، فهذا يبين لنا عدل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (١) . فهؤلاء القوم قد حاولوا حرق إبراهيم لأنه أراد أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ولمّا نجاه الله ، أخرجوه من مسقط رأسه ، ومن بين أهله وعشيرته وأحبابه . فجاء الجزاء متناسبا مع حجم الجريمة : جريمة الشرك بالله وإخراج النبى بعد محاولة قتله لأنه يدعوهم إلى العزيز الغفّار .

جاء الجزاء فى شكل عدوٍ سلطه الله عليهم دمَّر البلاد كلها ... سفك دماء وفزَّع الناس ، وامتلأت الطرق بجثث القتلى المسلط عليها وهج الشمس .

والذين كتب لهم النجاة من هذه المذابح ، فقد ذلوا وجاعوا ، ووصل الأمر إلى أن كل واحد كان يبحث عن النجاة لنفسه ، فتخلت الأم عن ابنتها ، وهجر الأب ولده .

الواقع أن الكلمات التى خلفها لنا الشاعر السومرى من أربعة آلاف عام تحكى ما حل بمدينته جزاء شركها بالله عز وجل ، ومحاولة قتل رسوله إبراهيم عليه السلام ، فجاء الجزاء وهو الخسران الذى حل بها ، متناسبا مع حجم الجرم الذى ارتكبته .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وكأين من قرية عَتَتّ عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسرا ، أعدَّ الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذِكْراً ﴾ (٢) .

---

(١) النحل : ٣٣ .

(٢) الطلاق ٨ – ١٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٨٤ .

المرحلة الثانية

هجرة الخليل إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى بيت المقدس

هاجر الخليل إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وهى بيت المقدس ، ولعله يدخل فيها أرض الشام [1] : سورية وفلسطين ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ [2] « لقد ترك إبراهيم وطناً (هى أرض الرافدين) وعشيرة وقوما ، فَعوضه الله ببيت المقدس المبارك وطنا خيرا من وطنه ، وعوضه بابنين إسماعيل وإسحاق وأحفاد منهم يعقوب ، أهلا وعشيرة خيرا من أهله ؛ وعوضه عن قومه ، أمة مسلمة عظيمة العدد هى خير أمة أخرجت للناس ؛ وجعل من نسله أئمة وأنبياء ورسلا يهدون بأمر الله ، وأوحى الله سبحانه وتعالى إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . فكان العوض وكان الجزاء .

---

(١) عن أبى بن كعب قال : هى الشام ، وقال قتادة : كان بأرض العراق ، فأنجاه الله إلى الشام . وكان يقال للشام أعقاب دار الهجرة ، وما نقص من الأرض يزيد فى الشام ، وما نقص من الشام زيد فى فلسطين ، وكان يقال هى أرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام ويهلك المسيح الدجال (تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٥) .

(٢) الأنبياء ٧١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

الجزء الثانى

المرحلة الثالثة

(أ) إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة فى مصر :

- جبار مصر يحاول أن يعتدى على سارة .
- الله ينجى سارة ويرد كيد الفاجر فى نحره .
- لم يكن على أرض مصر مسلم ولا مسلمة سوى إبراهيم وزوجه .
- جبار مصر يخدم سارة هاجر .
- إبراهيم عليه السلام يعود بهاجر وسارة إلى بيت المقدس .
- إبراهيم عليه السلام يبنى بهاجر ويرزق منها بإسماعيل عليه السلام
- التوجيهات التى تنشئها فى نفس المسلم أخبار هذه المرحلة .

(ب) إبراهيم وسارة يتلقيان البشرى بميلاد إسحاق ويعقوب .

الجــزء الثانى

المرحلة الثالثة

(أ) إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة فى مصر :

لاحظنا يد الله سبحانه وتعالى تنقل خُطَى إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين من أرض الرافدين إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين (بيت المقدس الآن) . وبعد زمن لا يعلمه إلا الله ، دخل إبراهيم عليه السلام - بتدبير من قدر الله عز وجل - إلى أرض مصر ، ولكن المصادر الإسلامية لا تعطينا سببا ظاهرا ، لهذه الرحلة ، إلا أنه قد سبق فى علم الله عز وجل أنها ستهدى إلى زوج إبراهيم ، هاجر ، التى أصبحت فيما بعد ، زوجا له وأما لإسماعيل عليه السلام .

ومعلوماتنا عن رحلة إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة فى مصر ، مستمدة من حديث رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فى صحيح البخارى ؛ ويمكن تلخيصها على النحو التالى :

وصل إبراهيم إلى مصر وكان يحكم بها جبار من الجبابرة ، وكان بصحبة إبراهيم زوجه سارة وكانت من أحسن الناس » . وقد أرسل جبار مصر من يسأل إبراهيم عليه السلام عن سارة فقال إنها أخته وهو صادق لأنها أخته فى الإسلام ، ولو قال إنها زوجه لقتله جبار مصر واحتفظ بالزوجة [(١)] .

« فأتى سارة ، قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبيننى » [(٢)] .

---

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ ، جـ ٩ ، ص ٢٨ فتح البارى جـ ٦ ، ص ٣٩٤ .

(٢) وهذا يشير إلى أهمية المعاريض ، يقول الإمام الحافظ ابن كثير : (وكأن المراد من هذا والله أعلم=

« فأرسل إليها جبار مصر ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخِذَ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلقه ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق . فدعا بعض حجبته ، فقال إنكم لم تأتونى بإنسان إنما أتيتمونى بشيطان فأخدمها هاجر ، فأتته (أى إبراهيم عليه السلام) وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيأ ، قالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره وأخدم هاجر (١) .

هذا الخبر التاريخى الذى رواه رسول الله محمد ﷺ عن الوحى عن الله عز وجل ، ليس خبرا تاريخيا مقصودا لذاته ، ولكن المقصود منه هو التربية ، وإعداد الفرد المسلم لبنة المجتمع المسلم ، هذا الخبر ينشىء فى النفس البشرية تصورات نتلمس بعضها على النحو التالى :

أولا : علم الله المحيط ، فهذا الخبر الذى يرويه رسول الله ﷺ عن إبراهيم عليه السلام ، الذى يفصله عنه حوالى ست وعشرون قرنا من الزمان ، جاءه عن طريق الوحى ، نقلا عن الله عز وجل الذى يقول : ﴿ فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ (٢) .

ثانيا : فضل الله على إبراهيم وعلى الأمة المسلمة ، وقَدْر إبراهيم عليه السلام ، عند الله عز وجل ، فالله سبحانه وتعالى قد نقل خُطى إبراهيم عليه السلام من أرض الرافدين إلى بلاد الشام إلى مصر ، لكى تخدم زوجه سارة هاجر فتهبها له ، ثم يبنى بها ، ويرزق منها بإسماعيل الذى كان من نسله سيد الخلق محمد ﷺ . وهذا يدل على أن كل شىء قد

= أنه ليس على وجه الأرض (زوجان على الإسلام غيرى وغيرك) انظر تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤٠٩ .

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ ، جـ ٩ ، ص ٢٨ وفى صحيح الجامع الصغير ، جـ ٥ ، ص ٤٦ ، انظر أيضا جامع البيان ، جـ ٢٦ ، ص ٩٣ - ١٠٣ .

(٢) طـه : ٥١ ، ٥٢ .

خلقه الله بقدر ، وكل ميسر لما خلق له .

ثالثا : إن الله سبحانه وتعالى ، هو الحى القيوم ، القهار ، الجبار الذى يُصمد إليه فى الأمور كلها ، وهو الملجأ والملاذ لأوليائه وعباده ، إذا تكالبت عليهم قوى الشر والعدوان ، بكل ما تملك من وسائل القوة المادية والبطش ، وهم عزل من كل شىء إلا من قوة الله عز وجل ، وهم مستضعفون فى الأرض ، فها هو إبراهيم عليه السلام مجرد من كل وسائل القوى المادية التى يمكن الأخذ بها فى مواجهة أعداء - هم كل الأمة - ليس فيهم مسلم واحد ، ولكن ماذا كانت تجدى وسائل القوة المادية فى مواجهة هذا الموقف ؟ هل يقاوم إبراهيم ذهاب زوجه إلى جبار مصر ويقاتل حتى يقتل ؟ ولو حدث ذلك ، أيعد ذلك خطأ جسيم ، أو عين الصواب ، لأنه من مات دون عرضه فهو شهيد ؟ وهو موقف يجب على الدعاة وهم مستضعفون أن يتناولوه بالدرس والتحليل ففيه خير كثير . إن إبراهيم كان على يقين وهو يسمح لزوجه بالذهاب أن الله سيحفظها ويحفظه لأنه لم يكن على ظهر تلك الأرض مسلم ولا مسلمة غيرهما .

رابعا : أهمية التوجه إلى الله ، بالصلاة والدعاء ، فهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام ، لأن الله هو المرتجى ، وهو الحافظ لعباده وأوليائه ، وهو الذى يكشف الضر ، ويدفع البلاء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نِعْمَتَ الله عليكم إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١) والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخلى عن عباده وأوليائه ، ولا يمكن أن يسلمهم لأعدائهم : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ (٢) « من عادى لى وليا فقد آذنته

---

(١) المائدة ١١

(٢) البروج ١٠ .

بالحرب » (١) . وهو وحده سبحانه وتعالى الذى ردّ كيد الفاجر فى نحره وحمى عرض رسول الله إبراهيم عليه السلام .

خامسا : إن الذين يحاولون الدفاع عن عرض إبراهيم عليه السلام ، بنفى (٢) هذه القصة التى أوردها صحيح البخارى ، فى مواجهة الخبر الكاذب الذى أوردته التوراة المحرّفة لا يقل خطورة عن التحريف الذى أصاب الخبر فى التوراة المحرفة الموضوعة .

سادسا : « فى الحديث مشروعية أخوة الإسلام وإباحة المعاريض ، وقبول هدية المشرك ، وإجابة الدعاء بإخلاص النية ، وكفاية الرب لمن أخلص فى الدعاء بعمله الصالح ، وفيه ابتلاء للصالحين لرفع درجاتهم ، ويقال إن الله كشف لإبراهيم حتى رأى حال الملك مع سارة معاينة وأنه لم يصل منها إلى شيء . وفيه أنه من نابه أمر مهم من الكرب له أن يفزع إلى الصلاة » (٣) .

(ب) إبراهيم وسارة عليهما السلام يتلقيان البشرى بميلاد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهما السلام :

حفظ الله سبحانه وتعالى عرض سارة زوجة إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وأخذت سارة هاجر ، التى بنى بها إبراهيم عليه السلام بعد عودته من مصر إلى بيت المقدس ، لتنجب له ابنا كريما هو إسماعيل عليه السلام ، وتعرضت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لابتلاء شديد إذ أنها حرمت من الولد حتى صارت عجوزا ، وزاد الابتلاء شدة حينما شاهدت هاجر تنجب لزوجها إبراهيم طفلا كريما هو إسماعيل عليه السلام . فكان الصبر وكان الاحتساب ، وهو سمت عام لأهل هذا البيت .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) دراسات تاريخية فى القرآن الكريم ، ص ١٣٦ .

(٣) هذا نص ما أورده الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، فى فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٤ ؛ صحيح أبى عبدالله البخارى ، جـ ٩ ، ص ٢٨ : (هاجر إبراهيم بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل إلى بها فأرسل بها فقام إليها فقامت توضأ وتصلى فقالت : اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك فلا تسلط على الكافر فَغُطَّ حتّى رَكَضَ برجله) .

وحان الوقت الذى رحل فيه إبراهيم وزوجه هاجر وطفله إسماعيل بناء على توجيه الله عز وجل إلى البلد الحرام « مكة » حيث استودَعَ الله سبحانه وتعالى ابنَه إسماعيل وَزَوجَه هاجر ، ثم عاد إلى بيت المقدس مرة أخرى .

وكان يجاور إبراهيم ببيت المقدس ، فى قرى عمورية وسدوم من أرض الشام ، لوط عليه السلام الذى انتدبه الله عز وجل لرسالة فى تلك البلاد ، وسنعود إلى ذلك تفصيلا عند التعرض لتاريخ ذلك النبى الكريم[1] .

ولكن لابد أن نذكر هنا ، أن قوم لوط رفضوا دعوته للدخول فى دين الله وهو الإسلام ، وحان الوقت الذى قرر الله سبحانه وتعالى أن يهلك هؤلاء القوم الذين رفضوا إخضاع حياتهم لنظام الله عز وجل بعد أن أشركوا به سبحانه وتعالى وجاء الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام ليخبروه ذلك الخبرَ ، وهو أن الله قد قرر إهلاك قوم لوط الذين كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء .

ويحكي لنا القرآن الكريم أن رسل الله سبحانه وتعالى جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام بالبشرى ، فسلموا عليه وأسرع إبراهيم عليه السلام – من باب إكرام الضيوف إيمانا واحتسابا – بتجهيز الطعام ، وحينما قدمه إلى أضيافه ، لاحظ أن أيديهم لا تمتد إلى الطعام ﴿ وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوطٍ ﴾[2] وكشفوا عن حقيقتهم ، أنهم رسل الله . وامرأته « سارة » قائمة فضحكت فبشرها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

لقد كانت سارة عقيما لا تلد ، وقد أصبحت عجوزا ففاجأتها البشرى ، وهى بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده وهو يعقوب عليه السلام .

﴿ قالت : يا ويلتى : أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنَّه

---

(١) انظر للمؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليهم السلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، القاهرة .

(٢) هود : ٧٠ ؛ وفى الحديث : « كان أول من أضاف الضيف إبراهيم » حديث حسن رواه ابن أبى الدنيا فى قرى الضيف عن أبى هريرة ٤٣٢٧ صحيح الجامع الصغير .

حميد مجيد ﴾ (١) .

بل إن البشرى كانت مفاجأة لإبراهيم عليه السلام ، فحينما بشروه بغلام عليم . ﴿ قال : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ، فبم تبشرون . قالوا : بشرناك بالحق ، فلا تكن من القانطين . قال : ومَنْ يقنط من رحمة ربه إلَّا الضالون ﴾ (٢) .

وجاء الوقت الذى أصبح فيه إسحاق نبيا وكذلك يعقوب عليهما السلام ، ومن ذريتهما أئمة يدعون إلى الخير :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ (٣) .

وقد كان إسحاق نبيا مسلما ، وكذلك يعقوب « إسرائيل » نبيا مسلما ؛ وقد تعرض تاريخهما للتشويه والتزييف حتى وصل الأمر بكثير من أبناء المسلمين إلى معالجة تاريخ إسحاق ويعقوب عليهما السلام على أنهما يهوديين ، وتاريخ إبراهيم عليه السلام على أنه يهودى ، بل ويعالجون تاريخ ذريتهم أمثال موسى وداود وسليمان عليهم السلام على أنهم يهود(٤) ، وعيسى على أنه نصرانى .... إلخ . هذه الترهات التى سنفرد لها رسالة خاصة بإذن الله ، نظرا لاتصالها بقضية معاصرة ، هى اغتصاب أرض فلسطين ، أرض الإسراء والمعراج ، وأرض الإسلام والمسلمين ، وقبل ذلك لاتصالها بحقيقة الدين الواحد الذى دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين(٥) ، وبحقيقة الصراع الذى يجرى على امتداد الساحة الدولية فى عالمنا المعاصر .

---

(١) هود : ٧٢ – ٧٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٤٥١ – ٤٥٢ .
(٢) الحجر ٥٤ – ٥٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٥٥٣ – ٥٥٥ .
(٣) صٓ ٤٥ – ٤٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٠ .

(٤) انظر للمؤلف « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر » .

(٥) انظر للمؤلف « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ، دار الوفاء للطباعة والنشر » .

الجزء الثالث

المرحلة الرابعة

(أ) إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام بجوار بيت الله الحرام .

- وصول إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليه السلام وهو طفل رضيع إلى جوار بيت الله الحرام بمكة المكرمة .
- إبراهيم عليه السلام يُنْزل هاجر وطفلها إسماعيل عليه السلام بجوار البيت العتيق .
- نفاذ المـــاء .
- هاجر عليها السلام تبحث عن الماء وتهرول بين الصفا والمروة .
- المَلَكُ يفجر زمزم تحت قدمي إسماعيل بأمر الله سبحانه وتعالى .
- جرهم ينزلون بجوار هاجر وإسماعيل دون أن يكون لهم حق على الماء (زمزم) .
- زواج إسماعيـل عليه السلام .
- وفاة هاجـــر .
- عودة إبراهيم عليه السلام وزيارته لابنه إسماعيل عليه السلام .
- إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت العتيق .

ومعلوماتنا عن هذا الرهط الكريم ، إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام — خلال هذه المرحلة — نستخلصها من كتاب الله تعالى « القرآن الكريم » (١) ؛ ومن الأحاديث الواردة (٢) عن رسول الله ﷺ ، وما يتصل بهما من شروح

---

(١) انظر ص ٢١٧ إلى ص ٢٥٦ من بحثنا الذى بين يديك .

(٢) صحيح أبى عبدالله البخارى ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ، القاهرة ، جـ ٤ ، =

وتفاسير ومن خلال هذه المعلومات التاريخية التى تنزلت على رسولنا محمد ﷺ وحيا من الله عز وجل ، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، أمكن لنا وللبشرية على مدار تاريخها أن نتعرف على :

(أ) ملامح النبوة والرسالة .

(ب) نموذج للفرد المسلم لبنة المجتمع المسلم .

(جـ) نموذج للأسرة المسلمة ، وقيامها على أكتاف الأب المسلم والأم المسلمة أو الزوج المسلم والزوجة المسلمة والابن المسلم الذين يقيمون حياتهم على نظام الله وشرعه .

(د) حقيقة الصفات التى يجب أن يتصف بها المسلم والمسلمة والأمَّة المسلمة من : إيمان بالله تعالى واستسلام له فى جميع شئون الحياة ، وإقام للصلاة وبر بالوالدين وصدق للوعد وأخذ بأسباب القوة .

(هـ) جانب من تاريخ بيت الله الحرام وتاريخ مكة المكرمة .

وفوق ذلك كله رحمة الله التى وسعت كل شيء ، وعلمه المحيط ، وقيامه على تدبير أمر السموات والأرض وأمر مخلوقاته ، وحقيقة صفة السمع والبصر ، التى يدرك بها الله عز وجل السر وما هو أخفى ، وما توسوس به النفس لنفسها . يتضح ذلك كله وغيره كثير ، من المواقف الآتية :

أولا : إن إبراهيم عليه السلام قد صحب زوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليه السلام إلى مكة المكرمة بتوجيه من الله تعالى ، وتركهما جوار بيت الله [1] الحرام بمكة المكرمة ولم يكن بها أحد ، وكان إسماعيل طفلا رضيعا .

إبراهيم النبى المسلم ينتدبه الله سبحانه وتعالى من أرض

= ص ١٧١ – ١٧٥ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٥ وما بعدها ، حديث رقم ٣٣٦٢ ، ٣٣٦٣ ، ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥ (انظر ص ، ص من بحثنا الذى بين يديك) .

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٦ ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ – ١٧٥ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٥ وما بعدها .

الرافدين ، إلى مصر ، ليبنى بهاجر ومنها يرزق بإسماعيل فينتدبهما الله سبحانه وتعالى للإقامة بجوار بيت الله الحرام – لأنه سيكون – من سلالتهما النبى ﷺ . وفى هذا قضاء على الفواصل الإقليمية أو الحدودية ، فالأرض أرض الله يورثها لمن يشاء من عباده ، وفى هذا إهدار للعصبية المنتنة التى قال عنها رسول الله ﷺ : « دعوها فإنها منتنة » ، والتى تبرأ رسول الله محمد ﷺ من أصحابها فقال ما معناه : ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية » .

ثانيا : إن بيت الله الحرام كان موجودا قبل وصول إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام ، يتضح ذلك من وصف رسول الله محمد ﷺ : « كان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله . وذلك بالإضافة إلى قرائن أخرى مأثورة سنقدمها عند الحديث عن تاريخ البيت العتيق إن شاء الله منها : « استقبال إبراهيم البيت بوجهه » .

ثالثا : إن مكة [1] وقت وصول إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام لم تكن مسكونة بأحد ، ولم يكن بها ماء ، ولم يكن بها زرع : « لم يكن بها إنس ولا شيء » أى أن مكة كمدينة معمورة يقطنها الناس بصفة دائمة لم تكن كذلك قبل وصول هاجر وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام .

رابعا : إن إبراهيم قد ترك هاجر وابنه الرضيع فى ذلك الوادى – بجوار بيت الله الحرام – غير المسكون وليس معهما سوى جراب به تمر وسقاء ماء ، امتثالا لأوامر الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أى أنها لم تخرج إلى برية بئر سبع كما زعم الزاعمون اعتمادا على ما ذكرته التوراة المحرفة (انظر جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ٧٤) ، كما أنه تاريخهما ليس تاريخا أسطوريا أو خرافيا ، أو أنه لا توجد مصادر عن تاريخهم سوى التوراة المزيفة ، فحديث رسول الله محمد ﷺ فيه الكفاية والبيان . وفى هذا بيان واضح لمن أراد أن ينفى القصة من أساسها مثل دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ، ص ٣٤٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ .

خامسا : إن هاجر عليها السلام امرأة مسلمة لله عز وجل واثقة فى ربها ، ولا عجب فى ذلك ، فإنها قد تربت على عين الله ، ثم على يدى إبراهيم عليه السلام ، هذا الإيمان والاستسلام واليقين يتجلى فى قولتها ، حينما لاحظت أن إبراهيم عليه السلام سيتركها وابنها الرضيع فى ذلك الوادى المقفر الذى ليس فيه إنس ، ولا ماء ولا زرع ، دون أن يكلمها كلمة واحدة : « يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ، الذى ليس فيه إنس ، ولا شيء ، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ... » ، وقد كان ، فلم يضيعهما الله ، ولم يضيع ذريتهما من بعدهما . ولا عجب فى هذا فالله هو الرحمن الرحيم الودود الصادق الرازق ذو القوة المتين .

واستسلمت أم إسماعيل لأمر الله ، وجعلت ترضع ابنها وتشرب من الماء حتى نفذ . وعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فماذا فعلت ؟ وهى على يقين من أن الله لن يضيعهما؟ لقد أخذت بالأسباب الظاهرة ، لقد انطلقت تبحث عن الماء . فصعدت أعلى الصفا علها تجد قادما من الوادى يحمل ماءاً . ثم نزلت إلى الوادى مهرولة حتى بلغت المروة ونظرت تبحث عن أحد يحمل ماءاً فلم تجد ، فعلت ذلك سبع مرات ، وفى اللحظة التى بلغ منها الإعياء مبلغا ، ويكفى للشخص غير المتصل بالله أن يصيبه اليأس والقنوط ، جاء الفرج الإلهى متمثلا فى ملك من السماء عند موضع زمزم يبحث بجناحه حتى ظهر الماء ، فشربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها (١) وحمدت الله عز وجل ، وقد حمل لها الملك فى نفس الوقت بشارة الله عز وجل « لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت عينا معينا (صحيح الجامع الصغير ، ج ٦ ، ص ٣٣٩) .

وإن الله لا يضيع أهله » . وعد من الله ، والله لا يخلف وعده طال الزمن أم قصر .

سادسا : استسلام إبراهيم عليه السلام الكامل لأمر الله عز وجل ، فهو يستجيب لأمر ربه ، ويترك زوجه ، وفلذة كبده الذى رزق به على كبر فى السن ، بواد غير ذى زرع ، ليس فيه ماء ولا إنس ؛ ويتوجه إلى الله بالدعاء ، لأنه لا يملك غير ذلك ، ولأنّه على ثقة من ربه الذى عوده أن يستجيب له ويعينه ويحفظه فى نفسه وماله وعرضه لأداء ما كلفهم الله به ؛ فقد حفظه الله من كيد الجاهلية فى وطنه ، ونجاه الله من الحرق بالنار ، وقبل ذلك ثبته على الابتلاءات التى تعرض لها فى سبيل هذا الدين ، وأبدله وطنا خيرا من وطنه ، وأهلا وعشيرة خيرا من أهله وعشيرته .. كما أن الله قد حفظه فى عرضه حينما حاول جبار مصر أن يمد يده إلى سارة عليها السلام ؛ ولذلك فإن إبراهيم كان على ثقة أن الله لن يضيعه ولن يضيع زوجه وولده . ولكن مع هذا لابد من الدعاء ، لابد من التوجه إلى الله والاستعانة به فهو الذى يصمد إليه وحده فى الأمور كلها . ﴿ رب إنِّى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ [1] إن طلب إبراهيم عليه السلام الأول ، من الله عز وجل ، أن تستمر زوجه وابنه محافظين على الصلاة لأن الصلاة عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد وربه ، فإذا أحزبه شيء فزع إلى الصلاة .. إنها اللحظات التى تتصل فيها الذرة الفانية بخالقها العظيم ، يمسح على قلبها ، ويثبتها ، ويهديها رشدها ، وهى – أى الصلاة – الفارق بين المؤمن والكافر ، وإذا كانت ذريته

---

(١) جامع البيان ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٩ – ٢٣٥ ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ – ١٧٥ .

تقيم الصلاة وتتصل دائما بالله ، فمعنى ذلك أنها فى نطاق حفظ الله ورعايته ، فإذا غاب الأب فالله موجود ؛ لهذه الأسباب وغيرها كان إبراهيم حريصا بالدرجة الأولى على أن يقيم أبناؤه الصلاة : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ (١) .

سابعا : إن قبلة المسلمين منذ زمن لا يعلمه إلا الله هى بيت الله الحرام وهى التى كانت يستقبلها إبراهيم عليه السلام : « استقبل بوجهه البيت » الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ – على مدار حياتها – : ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (٢) .

ثامنا : ليس لأحد أن يدعى ملكية « زمزم » وخاصة ، أنه فى حرم الله ، وفى جوار بيت الله ؛ وليس لأحد الحق فى أن يحرم منها مسلما ، أو حتى طيرا أو حيوانا ؛ يتضح ذلك من قول أم إسماعيل للجراهمة ، حينما طلبوا الإذن بالنزول إلى جوارها : « نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء » (٣) .

تاسعا : إن الله سميع بصير ، قريب مجيب ، فها هو سبحانه وتعالى يسمع إلى دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ ، وكانت الاستجابة : « أهل بيت من جرهم يرون طائرا عائفا بالوادى » ، وبعد البحْث والاستقصاء وصلوا ونزلوا بجوار أم إسماعيل . « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم » .

عاشـرا : إن للمسلمين والمسلمات فى أم إسماعيل « هاجر » عليها السلام

---

(١) طـه ١٣٢ .
(٢) البقرة ١٤٤ ، صحيح البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ – ١٧٥ .
(٣) صحيح أبى عبد الله .

أسوة حسنة لأنها نموذج لما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة ، ولا عجب فى ذلك ، فهى زوجة نبى من أولى العزم ، وهى أم لنبى صادق الوعد ؛ لقد كانت أم إسماعيل زوجة مطيعة لأوامر الله ثم أوامر زوجها ؛ لقد كانت أمّا أمينة على ابنها الذى تركه إبراهيم أمانة فى عنقها ، فربته تربية إسلامية وعودته الاستسلام لله عز وجل بالكلية والامتثال لأوامره كما علمته طاعة الوالدين ، فإذا ما أعلمه أبوه إبراهيم عليه السلام : ﴿ إنى أرى فى المنام أنّى أذبحك ﴾ (١) ؛ كان رد إسماعيل عليه السلام الذى ينْطوِى على الأدب الجم : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ (٢) ؛ وإذا بالأم المسلمة لا تجزع لأنه أمر الله ، ولا تعترض لأنه أمر من الله ، وهى مستسلمة لأمر الله ابتداء . كما أن أم إسماعيل قد ربّت ابنها على طاعة الله عز وجل ، فقد ربته على إقام الصلاة وعلى الصدق : ﴿ إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ (٣) لقد أخذت أم إسماعيل المسئولية كاملة ، ففى الوقت الذى انشغل فيه زوجها بالدعوة إلى الله فى أرض الشام ، كانت هى تربى ابنه تربية استحق معها اصطفاء الله عز وجل له بالنبوة ، لقد ربته على حب الرماية (٤) ، لأن القوة فى الرمى ، ولابد منها فى مجتمع تحيط به قوى الجاهلية من جميع أطرافه ؛ وقبل ذلك كله ، علمته كيف يطيل الوقوف بين يدى الله عز وجل ، وكيف يتصل به .

---

(١) الصافات ١٠٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ — ١٥ .

(٢) الصافات ١٠٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ — ١٥ .

(٣) مريم ٥٤ — ٥٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .

(٤) بدليل قول رسول الله ﷺ « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا .... » ، فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٤١٣ وما بعدها .

حادى عشر : عند رجوع إبراهيم عليه السلام إلى مكة ليطالع تركته ، فوجد أن الزوجة التقية قد ماتت ، وأن ابنه قد كبر ، وأنه قد تزوج ، وأنه خرج يبتغى رزقا لأهل بيته ، فسأل زوج إسماعيل عن عيشهم وهيئتهم ، فردت : « نحن بشرٍّ ، نحن فى ضيق وشدة فشكت إليه . فقال (إبراهيم عليه السلام) : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه (أى يطلق زوجته) ، وسمع إسماعيل وأطاع وطلق وتزوج بأخرى .

وعاد إبراهيم مرة أخرى ليطمئن أن ابنه قد بنى بزوجة مسلمة ستكون مستودع أشرف نطفة يخرج من سلالتها محمد ﷺ .. الزوجة الحامدة الشاكرة التى لا تكشف أسرار البيت للناس ، السيدة التى إذا شبعت حمدت الله ، وإذا جاعت صبرت ؛ والتى ستربى أبناء إسماعيل الذين سيكون من ذرية أحدهم سيد ولد آدم ولا فخر .

وحينما طرق إبراهيم عليه السلام باب بيت إسماعيل مرة أخرى ، ردّت عليه زوجه الثانية فسألها عن معيشتهم وهيئتهم فقالت : « نحن بخير وسعة » [1] ، فدعا لهما وانصرف . إن إبراهيم لم يسأل عن نسبها أو حسبها أو ثروتها ، لم يقل لها من أية قبيلة أنت ؟ وما هو نسبكم فى العرب ؟ الخ ، إنما أراد أن يتعرف على دينها وأمانتها ، لأن الأمة المؤمنة خير من المشركة .. لأن الأمة المؤمنة تقود إلى الجنة والمغفرة الإلهية ، لقد جاء إبراهيم لا ليطمئن على ثروة ابنه ، ولكن ليتأكد أنه قد اقترن بفتاة كفء لابن نبى سيصبح هو أيضا بإذن الله نبى ، ومن حق الولد على والده اختيار أمه ؛ إن إبراهيم لم يجىء لمشاهدة ولده وهذا حق له ، ففى المرتين ، سافر دون أن يراه ، وقد ترك له رسالة مع زوجتيه ؛ إنما جاء ليطمئن أن ابنه قد اقترن بفتاة مسلمة

---

(١) فتح البارى جـ ٦ ، ص ٤٠٥ .

وهكذا يجب أن تكون اهتمامات الآباء حيال أبنائهم وبناتهم .

ثانى عشر : عودة إبراهيم عليه السلام إلى مكة وقيامه هو وإسماعيل عليهما السلام برفع القواعد من البيت بناء على أمر الله سبحانه وتعالى . وأثناء هذا العمل ، كان إبراهيم وإسماعيل يرددان : ﴿ ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم ﴾ (١) .. إنه طلب القبول من الله عز وجل ، ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ﴾ ، إنه طلب الثبات على الإسلام ؛ « اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك » (٢) . وهذا ما يجب أن يسعى المسلمون فى كل زمان ومكان إليه ، طلب القبول من الله ، وأن يثبتهم على الإسلام وأن يرزقهم ذرية مسلمة ، وسنتناول هذه المناسبة بتفصيل .

ثالث عشر : إن إسماعيل عليه السلام كان راميا ، كما أخبر بذلك حديث رسول الله ﷺ : « وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم » ، « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا »(٣) لأن القوة الرمى . وهذا يبين لنا أهمية القوة فى الإسلام ، وخاصة إذا كان المجتمع المسلم محاطا بمجتمعات جاهلية ، لا تطيق أن ترى راية للإسلام مرفوعة .

---

(١) البقرة ١٢٧ ، ١٢٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

(٣) رواه البخارى ، صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ – ١٧٥ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٩ – ٤٠٥ .

الجـــزء الثالـث

المرحلة الرابعة

(ب) إبراهيم عليه السلام إمام للمسلمين

- الله يصطفى إبراهيم عليه السلام إماما للمسلمين .
- إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يطهران البيت العتيق .
- إبراهيم وإسماعيل يدعوان الله عز وجل .
- من دعاء إبراهيم عليه السلام :

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1]

- الركائز التى يقوم عليها كيان الأمة المسلمة .
- الصفات التى أهلت إبراهيم عليه السلام لإمامة المسلمين .

ابتلى الله سبحانه وتعالى عبده إبراهيم عليه السلام ، ابتلاءات عديدة ، بما كلفه من الشرائع والأوامر والنواهى ، فقام إبراهيم بهن كلهن كما قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾[2] ، ولذلك فقد اختاره الله سبحانه وتعالى للناس إماماً وقدوة يقتدى به ويحتذى حذوه .

وحينما كلف الله سبحانه وتعالى إبراهيم بالإمامة ، أعطاه المنهج وبين له النظام والشريعة التى ارتضاها له وللأمة المسلمة والتى يبدو من خلالها مقومات وسمات الأمة المسلمة .

وبعد أن أتم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إقامة القواعد من البيت الحرام ، وتطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود ، دعا إبراهيم عليه

---

(١) البقرة ١٢٩ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٤ .

(٢) النجم : ٣٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

السّلام ربّه عز وجل أن يجعل هذا الحرم آمناً ، وأن يرزق أهله من الثمرات كما دعا إبراهيم وإسماعيل ربّهما أن يجعلهما وذريتهما مستسلمين لأمر الله ، خاضعين لنظامه وشرعه ، لا يشركون معه فى الطاعة أحدا سواه ، ولا فى العبادة غيره ، وأن يثبتهما على هذا الدين ، وأن يرسل فى أمتهم رسولا منهم (أى أهل الحرم) يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم كتاب الله والحكمة ويزكيهم : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١) . أى رسول وإمام وقائد مسلم يحكم حياته وحياة أمته بمنهج الله عز وجل ، إمام يتلو على أمته آيات الله . ويعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها فى حياتها وحتى الممات .

إذن فالمقومات أو السمات أو الركائز ، التى يقوم عليها كيان الأمة المسلمة ، كما دعا بها إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل : إمام مسلم من الأمة ، وكتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ ، وأمة مسلمة تخضع حياتها لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

ومهمة الإمام المسلم ، أن يتلو على الأمة ، آيات الله ، ويعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها ؛ ولكن كيف يزكى الإمام أمته ؟

تماما كما فعل إبراهيم عليه السلام مع أمته ، لقد ربى الزوجة المسلمة ، والأم المسلمة ، والابن المسلم ، وأقام المجتمع المسلم ، بل كان حريصا كما شاهدنا على أن يظلوا على إسلامهم حتى مماتهم : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

ما هى الصفات التى أهلت إبراهيم – عليه السلام – لإمامة المسلمين ؟ :

اصطفى الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام لإمامة المسلمين ، والله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل ، لأنه الخالق والخالق هو الذى يأمر ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾(٢) ، وبالتالى فهو سبحانه : ﴿ لا يُسْأَل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة ١٢٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٤ .
(٢) الأعراف : ٥٤ . (٣) الأنبياء : ٢٣ .

ولكن الله سبحانه وتعالى يعمل كل شيء بتدبير وإحكام، فمن خلال الاختيار الربانى لإبراهيم عليه السلام للقيام بإمامة المسلمين ، يمكن للمسلمين - كما تحقق ذلك لرسول الله محمد ﷺ أن يتبينوا الصفات والشروط التي يجب أن تتوفر فى الشخص الذى تختاره الأمة إماما لها ، هذه الصفات والشروط هى : « **الإسلام** » .

فإبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما ولم يكن يهوديا ولا نصرانيا . أى كان مستسلما لله عز وجل بالكلية ، هذا الاستسلام نلمحه من جملة المواقف التالية :

أولا : الاستجابة لله عز وجل ﴿ إذ قال له ربُّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (١) .

ثانيا : الرضى بقضاء الله حينما ألقى به قومه فى النار ، وحينما أُخرج من بين قومه وعشيرته الذين عاش بين ظهرانيهم لفترة طويلة ، فأبدله الله وطنا خيرا من وطنه وعشيرة خيرا من عشيرته .

ثالثا : ترك إبراهيم عليه السلام لولده وفلذة كبده الذى رزق به على كبر ، وزوجه المطيعة الوفية بواد غير ذى زرع ليس فيه إنس ولا شيء .

رابعا : استسلامه لأمر الله حينما أمره بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام حين بلغ معه السعى ، لأنه على يقين بأنه لا يملك شيئا من أمر نفسه أو أهله أو ماله أمام أمر الله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﴾ (٢) .

ولا عجب فى ذلك فقد كان إبراهيم عليه السلام مؤهلا لهذه المهمة ، مهمة إمامة المسلمين ، بفضل الله عز وجل : ﴿ إن إبراهيم

---

(١) البقرة : ١٣١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٥ .
(٢) التوبة : ١١١ .

كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (١) .

وهذا هو النموذج الذى اقتدى به الأنبياء عليهم السلام ، وهو النموذج الذى يجب أن يتأسى به الأئمة المسلمون . يعقب الله سبحانه وتعالى على هذا الدعاء الذى ألهمه عبده إبراهيم عليه السلام ؛ ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (٢) .

فالله سبحانه وتعالى يقول للبشرية وللكافرين : هكذا يجب أن تكون الأمة المسلمة دواما : أناس مسلمين ، إمام مسلم ونظام وشريعة ربانية ، وإن من يرغب عن هذه الملة الإسلامية ويتنكب طريق الأمة المسلمة ، طريق الهداية والحق فهو سفيه أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اُصْطُفِىَ فى الدنيا للهداية والرشاد منذ حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلا ، وهو فى الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن يترك طريقه ومسلكه وملته ويَتّبِعْ طريق الضلالة والغى ؟ وأى سفِه أعظم من هذا ؟ .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أنه قد أمر إبراهيم عليه السلام بالإسلام أى الإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعا وقدرا : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (٣) .

ووصى إبراهيم بهذه الملة وهى الإسلام لله ، أبناءه وكذا يعقوب وصى بها أبناءه : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٤) أحسنوا فى

---

(١) النحل : ١٢٠ - ١٢٢ .
(٢) البقرة : ١٣٠ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٥ .
(٣) البقرة : ١٣١ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٥ .
(٤) البقرة : ١٣٢ .

حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبا على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه .

وحفظ يعقوب عليه السلام العهد ، عهد جده إبراهيم عليه السلام فقام بدوره يأخذ العهد على أبنائه بأن يظلّوا مسلمين حتى مماتهم ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

﴿ تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسْأَلون عما كانوا يعملون ﴾ (٢) أى هذا نموذج للأمة المسلمة إمام ومنهج وأمة ، أى أن السلف الماضى من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذ لم تفعلوا خيرا يعود عليكم لأن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم فشتان ما بين تلك الأمة المسلمة وبينكم .

ثم يأتى بعد ذلك البيانُ الربَّانى ليبين أن اليهودية لا يقبلها الله عز وجل ، ولا النصرانية ، وإنما المقبول عنده الإسلام ، والإسلام فقط ، وهو الدين الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى والنبيون جميعا .

﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى

---

(١) البقرة : ١٣٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٦ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

(٢) البقرة : ١٣٤ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٦ ، جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

هذه الأمة المسلمة صبغة ربانية أى فطرة ربانية ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ (٢) .

خامسا : حرص إبراهيم عليه السلام أن يظل هو وذريته مسلمين طيلة حياتهم وحتى الممات . ولهذا كان يدعو ربه ، وبهذا وصى أبناءه : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) .

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ (٤) ، وذلك يعنى أن إبراهيم كان حريصا أن تظل حياته وحياة ذريته مضبوطة بأوامر هذا الدين : ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ (٥) ، وذلك يعنى أن إبراهيم عليه السلام كان حريصا ، على أن يربى نفسه وذريته ، وأمته على الإسلام ، وعلى التوحيد ، وعلى إقام الصلاة ... وهو بذلك لا يرجو الشهرة ، ولا يرجو الثناء والحمد من الناس ؛ إنه لا يفعل ذلك نفاقا ولكن طلبا للمثوبة : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (٦) فهو يدرك جيدا أن الله يسمع ويعلم فهو حريص على أن لا يعلم الله عنه إلا كل خير ولا يسمع عنه إلا كل ما يرضيه سبحانه وتعالى .

هكذا كان إبراهيم المسلم وهكذا يجب أن يكون الإمام المسلم .

---

(١) البقرة : ١٣٥ - ١٣٦ ، جامع البيان جـ ١ ، ص ٥٦٦ - ٥٧٠ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) البقرة : ١٣٨ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧٠ - ٥٧٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٨ .

(٣) البقرة : ١٣٢ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٥٨ - ٥٦٢ .

(٤) البقرة : ١٢٨ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٤٦ - ٥٥٨ .

(٥) إبراهيم : ٣٧ ، جامع البيان ، جـ ١٤ ، ص ٥٢٩ وما بعدها .

(٦) البقرة : ١٢٧ ، جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٤٦ - ٥٥٨ .

سادسا : موالاة أهل الإيمان ومعاداة أهل الكفر :

هكذا كان إبراهيم عليه السلام الإمام المسلم . لا يوالى أهل الكفر . نرى ذلك واضحا فى موقفه من أبيه الذى رفض الدخول فى دين الله « الإسلام » وفضّل دين الجاهلية على دين الله عز وجل ، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام قد تبرأ منه : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ (1) وبانقطاع وشيجة الإيمان بين إبراهيم عليه السلام وأبيه الكافر ، انقطعت وشيجة الدم ، ووشيجة النسب ، ووشيجة القومية .

نرى ذلك واضحا فى موقف إبراهيم عليه السلام من قومه ، وفى هذا قدوة ، وفى هذا أسوة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا : لقومهم إنَّا بُرَءَاؤُا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (2) .

إنها المفاصلة الكاملة مع الكفر وأهله ، لا حب ، ولا مودة ، إن القلب المؤمن لا يحمل حبا ولا مودة لمن يحادون الله ورسوله : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حَادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (3) .

وهكذا يجب أن يكون الأئمة المسلمون .

---

(1) التوبة : ١١٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٩٣ وما بعدها .
(2) الممتحنة : ٤ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .
(3) المجادلة : ٢٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

كما أن الخليل عليه السلام قد اتصف بصفات أخرى جعلته جديرا باختيار الله عز وجل له : منها :

١ - **العدالة :**

لقد كان إبراهيم عليه السلام يتمتع بصفة العدل . ولذلك فقد اختاره الله سبحانه وتعالى إماما للمسلمين ، وحينما طلب إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة فى ذريته قال الله تعالى : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ (١) ، فلو كان إبراهيم عليه السلام ظالما ، ما اختاره الله سبحانه وتعالى ، لإمامة المسلمين وذلك يعنى أنه لابد وأن يكون الإمام المسلم عادلا ، وأن يتصف الإنسان المرشح للإمامة بصفة العدالة .

٢ - **الشجاعة والثبات والتضحية :**

لقد كان إبراهيم عليه السلام شجاعا منذ نعومة أظفاره ، يتضح ذلك من :

(أ) وقوفه فى وجه أفراد المجتمع بأكمله وهو فتى يدعوهم إلى عبادة الله وحده والكفر بالطاغوت ، ويسفه عباداتهم ، ويقول بصراحة المسلم : ﴿ إننى برىء مما تشركون ﴾ (٢) - ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ (٣) - إنه لم يتردد لحظة واحدة فى الدعوة إلى دين الله لا خوفا ولا ترددا ، وما أحجم مرة واحدة عن قول كلمة الحق فى مواجهة الباطل ، لأنه مكلف بالبلاغ والبلاغ الكامل .

(ب) تحطيم آلهة القوم : ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ مع ما ترتب على ذلك من محاولة إحراقه بالنار فلم يجزع ولم يخف ولم يتردد أو يرتد .

---

(١) البقرة : ١٢٤ ؛ جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ -٥٣٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٨ ، الأحكام السلطانية للقاضى الماوردى ، ص ٤ ، ٥ ، الأحكام السلطانية للقاضى أبى يعلى الحنبلى ، السياسة الشرعية لابن تيمية .

(٢) الأنعام : ١٩ .

(٣) الصافات : ٨٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٢ .

بإيجاز لقد وقف إبراهيم يدعو إلى الله فى وجه أمة برمتها كافرة بالله تعالى ، تملك جميع وسائل البطش والإرهاب ، فلم يبخل بشىء ؛ لقد انطلق يضحّى بنفسه وهى أعز شىء لدى الإنسان فى سبيل هذا الدين .

٣ - الهجرة فى سبيل الله :

﴿ وقال إنّى مهاجر إلى ربى إنّه هو العزيز الحكيم ﴾ [١] .

لقد هجر وطنه ، وأهله وعشيرته فى سبيل هذا الدين ، لقد ترك كل شىء فى سبيل هذا الدين ؛ إن حب هذا الدين قد طغى على حبه لكل شىء ففاق حبه لوطنه وعشيرته .. وهو نفس الأمر الذى دفع محمداً ﷺ وصحبه إلى الخروج من مكة إلى المدينة ، رغم أن مكة أحبُّ أرض الله إلى الله ، وأحبها إلى قلب رسول الله ، ولكنه أمرُ هذا الدين .

٤ - الفهم والحجة التى أجراها الله على لسانه :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم ﴾ [٢] ، لقد تميز إبراهيم عليه السلام بالفهم ، والقدرة على إقامة الحجة بالدليل والبرهان ، نرى هذا واضحا فى جملة المواقف التالية .. :

(أ) حينما طلب من الله سبحانه وتعالى أن يريه كيف يحيى الموتى ، سأله الله عز وجل وهو أعلم بالنفوس ، أو لم تؤمن ؟ كان الرد المهذب الذى ينطوى على الفهم والوعى : ﴿ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ [٣] (وهذا يبين لنا كيف يكون العبد مؤدبا بين يدى الله عز وجل) .

(ب) حينما خوفه قومه آلهتهم المُدَّعاة. كان رد إبراهيم عليه السلام : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ [٤] .

---

(١) العنكبوت : ٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤٠٩ .
(٢) الأنعام : ٨٣ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ .
(٣) البقرة : ٢٦٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣١٥ .
(٤) الأنعام : ٨١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(جـ) حينما حاجّه ملك القوم فى ربه ، وزعم أنه يحيى ويميت ، كان رد إبراهيم الذى ينطوى على الإفحام وعلى الحجة الواضحة : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ﴾ (١) .

٥ - **الحرص على أن تكون يد المسلمين هى العليا :**

وحتى لا تمتد يد المسلم إلى من هو دونه ، دعا الله ربه أن يرزق أهله وهم أمته المسلمة من الثمرات ، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، والمسلم دائما هو الأعلى ، ولا يجوز أن تمتد يده إلى كافر أو مشرك ، ولذلك فإن إمام المسلمين هو القدوة ، هو الأسوة فى ذلك ، ويعمل على أن يَقِى أمَّته ذل السؤال ، وهكذا كان إبراهيم ، وهكذا يجب أن يكون الإمام المسلم .

٦ - **القنوت الدائم لله عز وجل :**

« إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام كان دائم التوجه إلى الله ، فى كل صغيرة وكبيرة ، ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (٢) .

٧ - **احتمال الشدائد والتوكل على الله :**

لقد كان إبراهيم كذلك ، محتملا للشدائد رغم قسوتها وكان دائم التوكل على الله . نلمح ذلك فى موقفه من قومه منذ أن واجه تعنتهم ورفضهم لدعوته إلى الإسلام ، نلمح ذلك فى موقفه حينما تلقى التهديد والوعيد :

---

(١) البقرة : ٢٥٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

(٢) النحل : ١٢٠ - ١٢٢ ، « يمدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية » (انظر تفسير القرآن العظيم ؛ جـ ٢ ، ص ٥٩٠) .

﴿ لأرجمنك واهجرني مليا ﴾ [1] .

نلمح ذلك فى موقف إبراهيم عليه السلام وهو يهجر وطنه وقومه وعشيرته ، إلى أرض غير الأرض ووطن غير الوطن . إن إبراهيم عليه السلام كان صابرا محتسبا محتملا متوكلا على الله ، نلمح ذلك فى موقفه حينما أمر بأن يترك ابنه وزوجه بوادٍ غير ذى زرع عند بيت الله المحرم نلمح ذلك فى امتثاله لأمر الله وقد أمره أن يذبح ابنه وفلذة كبده بعد أن بلغ معه السعى .. لهذا كله استحق أن يخلع الله عليه صفة ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [2] - ﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ [3] ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ [4] . سلام على إبراهيم فى الأولين والآخرين .

٨ - حرص إبراهيم على نفسه وعلى ذريته من بعده على أن لاترتكس إلى الشرك ، وعبادة الاصنام : ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ [5] ولأنه يعلم أن الشيطان مسلط على ذرية آدم ، فقد دعا الله سبحانه وتعالى أن يرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

واستجاب الله لدعاء إبراهيم ، بعد حوالى خمسة وعشرين قرنا من الزمان ، فبعث فى أمته سيد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد* ﷺ .

---

(١) مريم : ٤٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ .
(٢) الصافات : ١١١ .
(٣) الصافات : ١١٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ - ١٩ .
(٤) الصافات : ١٠٩ .
(٥) إبراهيم : ٣٥ .

* وفى الحديث : « رأيت إبراهيم ليلة أسرى بى ، فقال يامحمد أقرىء أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وغراسها لا حول ولا قوة إلا بالله » رواه الطبرانى فى الكبير ، ٣٤٥٤ صحيح الجامع الصغير .

الفصل الثانى

سيرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
وبعض المعالم الضرورية لحياة الأمة المسلمة



الفصل الثانى

سيرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبعض المعالم الضرورية لحياة الأمة المسلمة

ومن خلال هذا الاصطفاء الربانى لإبراهيم الخليل ، إماماً للأمة المسلمة ، يرى كاتبُ التاريخ بعض المعالم الضرورية لحياة الأمة المسلمة :

أولا : إن إمامة المسلمين محجوبة عن الظلمة الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله عز وجل : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (١) ، وظلموا غيرهم حينما بغوا فى الأرض واستعلوا فيها بغير الحق ، يتضح ذلك من قوله تعالى : ﴿ وإذ ابْتَلَى إبراهيم ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهُنّ ، قال إنّى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ (٢) .

ثانيا : أن الإمامة لا تعنى فقط إمامة الصلاة ، وإنَّما تعنى إمَامَةَ الأُمَّة المسلمة فى مجالات الحياة كلها . وهكذا كانت إمَامةُ إبراهيم الخليل وإسماعيل عليهما السلام ، وهكذا كانت إمامة محمد ﷺ وصحبه ؛ يؤمون المسلمين فى الصلاة ، ويقودون الجيوش المجاهدة فى سبيل الله ويربُّون المجتمع المسلم ، ويستقبلون الوفود ، ويبعثون البعوث والسرايا ، ويعقدون الألوية ، ويعودون المرضى ويتبعون الجنائز ... إلى غير ذلك من واجبات الإمامة ، وهكذا يجب أن يكون الأئمة المسلمون .

ثالثا : الهدف والغاية التى يسعى الأئمة المسلمون إلى تحقيقها من وراء القيام بما يكلفهم به الله عز وجل :

---

(١) لقمان : ١٣ .

(٢) البقرة : ١٢٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٦٤ – ١٦٨ ؛ الجامع لأحكام القرآن ؛ جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(أ) القبول ، وإلى ذلك كله يسعى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ؛ ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[1] .

(ب) وأن يجعلهما مسلمين لله رب العالمين ومن ذريتهما أمة مسلمة وإلى ذلك كان يسعى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا ﴾[2] ، وإلى ذلك كان يسعى محمد وصحبه ، وإلى ذلك يجب أن يسعى الأئمة المسلمون .

رابعا : أن الاهتمامات التى يجب أن تشغل الإمام المسلم والأمة المسلمة ، هى الإقبال على الآخرة والإعداد لها ، وذلك يستلزم العكوف على كتاب الله ، عكوف التلقى والتنفيذ ، وتعلم الحكمة ممثلة فى سنَّة النبى الكريم عليه الصلاة والسلام ، وتزكية النفوس حتى يصير الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما . لهذا نرى الإمام المسلم إبراهيم يدعو الله عز وجل أن يبعث فى أمته رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكّيهم إنَّك أنت العزيز الحكيم ﴾[3]

ومن هذه الآية القرآنية تبرز الركائز التى يقوم عليها بناء الأمة المسلمة ، فتلك هى سماتها ، وتلك هى المقومات التى لا قيام للأمة بدونها :

إمام مسلم ... أمة مسلمة ... نظام وشريعة ربانية ... وحكمة نبوية.

---

(١) البقرة : ١٢٧ .

(٢) البقرة : ١٢٨ .

يقوله الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسيره : « لقد كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات » ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

(٣) البقرة : ١٢٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٤ ؛ وقد قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيّين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بى ورؤيا أمىِّ التى رأت وكذلك أمهات النبيّين يرين » (رواه أحمد) .

فإمام بدون نظام وشريعة ربانية وحكمة نبوية تخضع لها حياته وحياة الأمة ، لا يقيم دولة الإسلام ..

وشريعة ربانية وحكمة نبوية بدون إمام مسلم يقيمها فى حياة الأمة لا يقيم دولة الإسلام .

وإمام مسلم وشريعة ربانية وحكمة نبوية بدون أمة تخضع حياتها لذلك النظام الربَّانى ، لا يقيم دولة إسلامية .

إذن لابد من الركائز الثلاثة :

إمام مسلم .. وأمة مسلمة .. ونظام وشريعة ربانية .. وحكمة نبوية

وحينما تلقى محمد ﷺ وصحبه هذه التوجيهات فى مدرسة الرحمن ، تلقوها وأقاموها فى حياتهم ، فقامت دولة الإسلام التى أصبحت كالمنارة التى تهتدى بها الأمم فى ظلمات حياتها .

لقد وعى محمد ﷺ وصحبه هذا الدرس التاريخى ، وعرفوا وتعلموا أن :

(أ) واجب الإمام المسلم الأول : أن يكون هو وزوجه وبنوه صورا متحركة للإسلام الذى يدعو إليه وأن يقرأ على أمته الكتاب .. ، أن يعلمها الكتاب ، أن يربيها على كتاب الله ، يعلمها الحلال والحرام ، يبين لها مالها وما عليها ، يبين لها واجباتها وحقوقها ، يبين لها معالم دينها ، وحدود ربها التى أوجب أن تقيمها .

إن واجب الإمام المسلم أن يعلم أمته الحكمة ، السنة النبوية ، ويعلمها كيفية الاستسلام لأوامر الله وشريعته ونظامه . ولكى يتحقق كل ذلك وغيره لابد وأن يكون هو صورة صادقة لما يدعو إليه ، لابد أن يكون قدوة وأسوة .

إن الإمام المسلم يجب أن يكون قدوة ، مستسلما لله عز وجل بالكلية ، مجاهدا بنفسه وماله فى سبيل نصرة دين الله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم

الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ﴾ (١) .

إن الإمام المسلم يجب أن تتمثل فيه القدوة ، متبرئا من الكفر وأهله والشرك وأهله ، ولا يوالى إلا أولياء الله ؛ ويعادى فى الله ، فلا يوالى ملة الكفر أبدا ، حتى ولو كانت تملك كل مقومات الحياة المادية : تماما كما فعل إبراهيم عليه السلام : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بُرءَاؤُا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (٢) . وهكذا كان محمد وصحبه وهكذا يجب أن يكون المسلمون على مدار الزمان .

إن الإمام المسلم كما يبين لنا تاريخ إبراهيم عليه السلام ، يجب أن يشغله دواما قضية الدعوة إلى الله ، ولها يحشُد كلّ ما مكن له به الله سبحانه وتعالى حتى يستنفد البشريَة الضالَة من بين براثن الشيطان ، وهكذا كان محمد ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون على مدار التاريخ .

(ب) إن من واجبات الأمة المسلمة دعوة البشرية إلى الدخول فى دين الله عز وجل ، ولن تقتنع البشرية بهذا الدين إلا إذا كانت الأمة المسلمة ، الأمة الشاهدة ، الأمة الوسط ، صورة حية لهذا الإسلام الذى تدعو إليه ، لابد لكى تقتنع البشرية الضالة بهذا الإسلام أن ترى الإسلام قائما يؤدى دوره حقيقة فى حياة الأمة المسلمة : كما أدّاه حقيقة فى حياة أمة إبراهيم وإسماعيل ،

---

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) الممتحنة : ٤ .

وأمة محمد ﷺ ، على عهده ، وعلى عهد الخلفاء الراشدين ، وهكذا يجب أن تكون الأمة المسلمة على مدار تاريخها .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأمة المسلمة وهى الأمة الوسط ، وهى الأمة الشاهدة : ﴿ وكذلك جعلناكم أمَّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (١) يجب أن تكون حريصة على تلاوة كتاب ربها ، وَتعَلُّمِ الحكمة وهى سنة نبيها ﷺ ، وتزكى نفسها ، وتخضع حياتها لنظام الله وشرعه ، وذلك يستلزم منها أن تكون مجاهدة لتكون كلمة الله هى العليا .

إن الأمة المسلمة يجب أن تكون حريصة على أن يكون أبناؤها مسلمين ، وأن تعيش على الإسلام وتموت عليه . لذلك فقد وصى إبراهيم أبناءه بذلك : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٢) .

إذن فالأمة المسلمة :

أمة فريدة فى نظام حياتها ، سواء كان نظاما سياسيا ، أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو عسكريا أو تعليميا ، أو ثقافيا أو إعلاميا . إنها أمة فريدة فى عقيدتها وشريعتها ... عقيدتها وشريعتها ربانية إسلامية : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ (٣) .

وهكذا كانت أمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) والأسباط وهم أبناء يعقوب وموسى وعيسى

---

(١) البقرة : ١٤٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٩ – ١٩٥ .

(٢) البقرة : ١٣١ .

(٣) البقرة : ١٣٨ .

والأنبياء والمرسلون جميعا : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

(جـ) إن مفهوم الأمة فى ضوء التصور الإسلامى ، هى مجموع الأفراد الذين تشدهم إلى دولتهم رابطة العقيدة الإسلامية ، وهى رابطة الانتماء الاختيارى لدولة العقيدة ، لأن الدولة الإسلامية دولة عقـدية ، وليست دولة جنس معين ، أو عنصر معين ، فهى دولة مجموع المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم .

خامسا : إن إمامة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للمسلمين فى الحرم الآمن لا تعنى أنهما ، كانا مالكين لبيت الله الحرام ، ولكنهما كانا سادنين ، خادمين لبيت الله الحرام ، مهمتهما تطهيرُ البيت وإعدادُه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

ولأن الإمامة الإسلامية لا تتحقق إلا فى مجتمع آمن ، ولأن الإسلام لا يقوم إلا فى مجتمع آمن ، ولأن العبادة لله بكمالها لا تتحقق إلا فى مجتمع آمن ، فقد جعل الله الحرم آمنا ، وحفظه من المعتدين وجعله عتقا من الجبابرة ، فلم يملكه أحد قط ، بل لقد حرّم الله أن تطأ هذا الحرم الآمن ، أقدام مشركة ، أو أقدام نجسة ؛ فحينما حاول أبرهة الحبشى غزو مكة وهدم الكعبة ، أرسل الله عليهم طيرا أبابيل : ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ . ورغم أن قريشا المشركة كانت تعيش على أرض الحرم الآمن وتَقوم على خدمة الحجيج فى ذلك الوقت ، إلا أن الله لم يجعل لها يدا فى حماية بيته الحرام .

---

(١) البقرة : ١٣٦ .

وحينما قامت قريش بترويع الآمنين فى حرم الله الآمن لأنهم آمنوا بدين محمد ﷺ ، ودين إبراهيم عليه السلام ، جاء الوقت الذى سلط الله عليهم محمداً وصحبه ، فقتلوا المشركين وطهروا حرمه الآمن من قوى البغى والعدوان ، وعاد حرم الله آمنا كما كان وكما هو كائن وكما سيكون دائما بإذن الله .

بل وحينما فسقت جرهم فى بيت الله الحرام سلط الله عليها خزاعة فأخرجتها من مكة ، وحينما فسقت خزاعة وظلمت وبغت بأرض الله الحرام سلط الله عليها من أخرجها ، وهكذا فإن مكة تنفى خبثها على مدار الزمان ، والحرم الآمن قد تكفل الله بحفظه من كل جبار لا يرعى حرمة بيته العتيق .

ورغم ذلك الحفظ الربانى ، فقد كان إبراهيم عليه السلام حريصا أن يرفع يديه بين يدى الله عز وجل ليثبته على دينه ، ويجنبه وبنيه عبادة الأصنام ، التى اصطلى الناس بنيرانها . وعبادة الأصنام لا تعنى الأحجار فحسب ، ولكنها تعنى كل ما عبد من دون الله عز وجل ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون حريصين : ﴿ واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ (١) .

كما كان إبراهيم حريصا أن يرفع يديه إلى الله ، يطلب التوسعة على قومه لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وحتى تكون يد المسلمين دواما هى العليا ، فلا تمتد لكافر أو مشرك .

وقبل ذلك كله ، كان إبراهيم حريصا على أن يرفع يديه إلى الله ، يطلب منه أن يعين أبناءه وذريته المسلمة على إقام الصلاة بمفهومها الشامل ، فهى عماد الدين ، من أقامها أقام الدين ، وهى ركن الإسلام ، ورأس الأمر وسنامه : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ﴾ (٢) .

---

(١) إبراهيم : ٣٥ ، تفسير القرآن العظيم ، الجزء الثانى ، ص ٥٤٠ .
(٢) إبراهيم : ٤٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٥٤١ .

سادسا : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) والأسباط (أبناء يعقوب ومنهم يوسف عليه السلام) وموسى وعيسى والنبيون ، لم يكونوا هودا أو نصارى ، بل كانوا مسلمين موحدين .

فالإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[1] . والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله ﷺ : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » .

فمن استقام على هذه العقيدة الإسلامية فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها ، ومن فسق عنها فقد فسق عن عهد الله ومن ثم فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته .

وذلك يعنى أنه لا وشيجة مطلقا تربط اليهود أو النصارى بإبراهيم أو إسحاق أو يعقوب عليهم السلام حتى لو كان اليهود والنصارى من صلبهم ، فالوشيجة قد انقطعت بمجرد فسق اليهود والنصارى عن دين الله وهو الإسلام [2] ، فالعقيدة الإسلامية هى تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء ، وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة . وبهذا يسقط ادعاء أهل الكتاب الذى يزعمون أنهم يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق . ومن هنا يجب أن نفهم أنه لا صلة مطلقا بين دين إبراهيم القائم على توحيد الله (أى الإسلام) وبين العقائد المشوهة المنحرفة التى عليها أهل الكتاب و (المشركين) سواء

---

(١) الأنبياء : ٢٥ . انظر أيضا : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٧٦ .

(٢) أورد الإمام الحافظ ابن كثير فى ، شرحه لقول الله تعالى : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٨٤) .

كانت يهودية أو نصرانية ، وحينئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى فى اصطفائهم واجتبائهم لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ، لأنهم كما قلنا قد انحرفوا عن عقيدة ودين إبراهيم وهو الإسلام .

ولنفس السبب ، سقطت دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعلى عمارته لأنهم فقدوا حقهم فى وراثة إمامة هذا البيت بانحرافهم عن عقيدة إبراهيم وحينئذ تسقط دعاوى كل أمة فى وراثة عقيدة إبراهيم عليه السلام إذا لم تستقم على أمر الله : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ﴾[1] .

---

(١) آل عمران : ٦٨ .

الفصل الثالث

الجزء الأول

إبراهيم عليه السلام يؤمر بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام

« عشنا مع آيات الله الكريم ، وهى تكشف لنا من مكنون الغيب ، أخبار إبراهيم عليه السلام منذ أربعة آلاف عام تقريبا ، وقد أنجاه الله من محاولة حرقه بالنار » .

« عندئذ استدبر إبراهيم عليه السلام مرحلة من مراحل حياته ليستقبل مرحلة ، وطوى صفحة لينشر أخرى وقال : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ [1] ، هكذا « إنِّى ذاهب إلى ربى » ، هجرة مكانية ، هجرة يترك فيها كل شيء من ماضى حياته ... يترك أباه ، وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض ، وبهؤلاء الناس ويدع وراءه كل شيء مسلما نفسه لربه لا يستبقى منها شيئا ، موقن أن ربه سيهديه وسيرعى خطاه ، وينقلها فى الطريق المستقيم .. إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن موضع إلى موضع ، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس شيء ، إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين » .

« وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيدا لا عقب له ، وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، والصحبة والمعرفة . وكل مألوف له فى ماضى حياته ، وكل ما يشده إلى الأرض التى نشأ فيها والتى انحسم ما بينه وبين أهلها ، الذين ألقوه فى الجحيم . فاتجه إلى ربه الذى أعلن أنه ذاهب إليه ، اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾[2] . واستجاب الله

---

(١) الصافات : ٩٩ ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ١٤ - ١٩ ؛ وحيث أن أسلوب العرض للحادثه التاريخية يشكل ركيزة من ركائز المنهج الإسلامى للدراسات التاريخية ، فقد نقلنا عرض الحادثة هنا وفى مواضع أخرى من كتابنا نصا عن « فى ظلال القرآن » تأليف سيد قطب ، المجلد الخامس ص ٢٩٩٤ ـــ ٢٩٩٧ ، لأننا لا نستطيع أن نعرضها كما عرضها ذلك الكاتب رحمه الله .

(٢) الصافات : ١٠٠ .

دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذى ترك وراءه كل شىء وجاء إليه بقلب سليم : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾[1] هو إسماعيل – وسنرى آثار حلمه الذى وصفه ربه به وهو غلام . ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته . لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام ، الذى يصفه ربه بأنه حليم » .

« والآن آن لنا أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد فى حياة إبراهيم . بل فى حياة البشر أجمعين . وأن نقف من سياق القصة فى القرآن أمام المثل الموحى الذى يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم عليه السلام ..» .

﴿ فلما بلغ معه السعى ، قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾[2] .

« يا لله ويالروعة الإيمان والطاعة والتسليم » .

« هذا إبراهيم الشيخ عليه السلام ، المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن ، ها هو ذا يرزق فى كبره وهرمه بغلام ، طالما تطلع إليه . فلما جاءه ، جاءه غلاما ممتازا يشهد له ربه بأنه حليم . وها هو ذا يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعى ويرافقه فى الحياة .. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم .. نعم إنها إشارة . مجرد إشارة . وليست وحيا صريحا ، ولا أمرا مباشرا . ولكنها إشارة من ربه .. وهذا يكفى .. هذا يكفى ليلبى ويستجيب . ودون أن يعترض ودون أن يسأل ربه .. لماذا يا ربى اذبح ابنى الوحيد ؟ » .

«ولكنه لا يلبى فى انزعاج ، ولا يستسلم فى جزع . ولا يطيع فى اضطراب .. كلا إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك فى

---

(١) الصافات : ١٠٢ .

(٢) الصافات : ١٠١ ، « أول من فتق لسانه بالعربية المبيَّنة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة » حديث صحيح رقم ٢٥٧٨ صحيح الجامع الصغير .

كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل فى هدُوء وفى اطمئنان عجيب :

﴿ قال يا بنى إنِّى أرى فى المنام أنِّى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ﴾ .. لهى كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذى يواجهه . الواثق بأنه يؤدى واجبه وهى فى الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذى لا يهوله الأمر فيؤديه ، فى اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهى ، ويستريح من ثقله على أعصابه) .

«والأمر شاق – ما فى ذلك شك – فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة ، ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرا تنتهى به حياته .. إنَّما يطلب إليه أن يتولى هو بيده . يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه .. وهو – مع هذا – يتلقى الأمر هذا التلقى ، ويعرض على ابنه هذا العرض ، ويطلب إليه أن يتروى فى أمره ، وأن يرى فيه رأيه » ! .

« إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه وينتهى إنما يعرض الأمر عليه كالذى يعرض المألوف من الأمر ، فالأمر فى حسه هكذا ، ربه يريد فليكن ما يريد على العين والرأس . وابنه ينبغى أن يعرف ، وأن يأخذ الأمر طاعة واستسلاما لا قهرا واضطرارا . لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم . إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التى ذاقها ، وأن ينال الخير الذى يراه هو أبقى من الحياة وأفنى » .

فماذا يكون من أمر الغلام ، الذى يعرض عليه الذبح ، تصديقا لرؤيا رآها أبوه ؟ .

إنه ارتقى إلى الأفق الذى ارتقى إليه من قبل أبوه .

﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾[1] ،.. إنه يتلقى الأمر لا فى طاعة واستسلام فحسب . ولكن فى رضا كذلك وفى يقين .. ﴿ يا أبت ﴾ .. فى مودة وقربى . فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه

---

(١) الصافات : ١٠٢ .

ولا يفقده رشده . بل لا يفقده أدبه ومودته .

﴿ افعل ما تؤمر ﴾ .. فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة . وأن الإشارة أمر . وأنها تكفى لكى يلبى وينفذ بغير لجلجة . ولا تمحل ولا ارتياب .

ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته فى الاحتمال والاستعانة بربه على ضعفه ونسبه الفضل إليه فى إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة : ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعا إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا .. إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به . ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾

يا للأدب مع الله ويا لروعة الإيمان . ويا لنبل الطاعة . ويالعظمة التسليم . ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام .. يخطو إلى التنفيذ : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ (١) ..

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضا وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان .. إن الرجل يمضى فيكب ابنه على جبينه استعدادا . وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعا . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانا .

لقد أسلما .. فهذا هو الإسلام . هذا هو الإسلام فى حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم .. وتنفيذ .. وكلاهما لا يجد فى نفسه إلا هذه المشاعر التى لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجرأة . وليس الاندفاع والحماسة . لقد يندفع المجاهد فى الميدان يقتل ويقتل . ولقد يندفع الفدائى وهو يعلم أنه قد لا يعود . ولكن هذا كله شيء والذى يصنعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هنا شيء

---

(١) الصافات : ١٠٣ .

آخر .. ليس هنا دم فائر ، ولا حماسة دافقة ولا اندفاع فى عجلة تخفى وراءها الخوف من الضعف والنكوص إنما هو استسلام الواعى المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل المطمئن لما يكون . لا بل هنا الرضا الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل .

هنا كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد أديا . كانا قد أسلما . كانا قد حققَّا الأمر والتكليف . ولم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه .. وهذا أمر لا يعنى شيئا فى ميزان الله ، بعد ما وضع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما .

كان الابتلاء قد تم ، والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحققت . ولم يعد إلا الألم البدنى . وإلا الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم فى شىء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح .

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام صدقهما فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا :

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدّقت الرؤيا إنَّا كذلك نَجزى المحسنين إنَّ هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ (١) .

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلا . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى فى النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت هى النفس والحياة . وأنت – يا إبراهيم – قد فعلت . جدت بكل شىء . وبأعز شىء . وجدْتَ به فى رضا وفى هدوء وفى طمأنينة وفى يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم . وهذا ينوب عنه ذبح . أى ذبح

---

(١) الصافات : ١٠٤ – ١٠٥ .

عظيم . قيل : إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلا من إسماعيل .

وقيل له : ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ .. نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء . ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء . ونجزيهم بأقدارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء .

ومضت بذلك سنة النحر فى الأضحى . ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى يرتفع منارة لحقيقة الإيمان ، وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذى ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم عليه السلام ، الذى تتبع ملته ، والذى ترث نسبه وعقيدته . ولتدركُ طبيعة العقيدة التى تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله فى طاعة راضية واثقة طيبة لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج فى تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . ولا تستبقى لنفسها فى نفسها شيئا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم .

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ، ولا أن يؤذيها بالبلاء إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وفيّه مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه . ولا تتألى عليه ، فإذا عرف منها الصدق فى هذا أعفاها من التضحيات والآلام . واحتسبها لها وفاء وأداء . وقبل منها وفداها . وأكرمها كما أكرم أباها : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ [(١)] .

فهو مذكورعلى توالى الأجيال والقرون ، وهو أمة ، وهو أبو الأنبياء ، وهو أبو هذه الأمة المسلمة ، وهى وارثة ملته ، وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله له عقبا ونسبا إلى يوم الدين : ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ [(٢)] ..

سلام عليه من ربه ، سلام يسجل فى كتابه الباقى ، ويرقم فى طوايا الوجود الكبير .

---

(١) الصافات : ١٠٨ .

(٢) الصافات : ١٠٩ .

﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ (1) ..

كذلك نجزيهم بالبلاء .. والوفاء .. والذكر .. والإسلام .. والتكريم .

﴿ إنَّه من عبادنا المؤمنين ﴾ (2) ..

وهذا جزاء الإيمان . وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين . ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمه فيهب له إسحاق فى شيخوخته ، ويبارك إسحاق ، ويجعل إسحاق نبيا من الصالحين : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ (3) .

تعليـــق :

هذا نموذج يبين لنا أهمية الأسلوب (4) ، فى عرض أحداث التاريخ الإسلامى ، فالأسلوب يشكل ركيزة من الركائز التى يقوم عليها المنهج الإسلامي لكتابة التاريخ ، والنص القرآني الذى يعالج أمر الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام بذبح ابنه يرسي توجيهات ومعالم هامة في حياة الأمة المسلمة ، نحاول أن نشير إلى بعض منها ، بقدر ما يفتح الله به علينا :

(أ) إن المسلم وهو يباشر الدعوة إلى دين الله عز وجل ، عليه ابتداء أن يتحمل التبعات التى تستلزمها مباشرة هذه الدعوة حتى لو كانت هذه التبعات تكلفه الخروج من وطنه ، ومن بين أهله وعشيرته : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربُّنا الله ﴾ (5) ؛ ﴿ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ (6) .

---

(1) الصافات : 110 .

(2) الصافات : 111 .

(3) الصافات : 112 ، 113 .

(4) هذا العرض مأخوذ عن ظلال القرآن ، جـ 5 ، ص 2994 – 2997 .

(5) الحـج ، 40 .

(6) آل عمـران : 195 .

حتى لو كان من بين هذه التبعات أن يقدم حياته وماله فى سبيل الله ، لأنه ابتداء باع نفسه وماله لله ، وأمضى عقدا مع الله عز وجل بذلك :

﴿ إنَّ الله اشتَرَى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ﴾ .

(ب) إنَّ الإسلام يعنى الاستسلام الكامل لله عز وجل ، فالمسلم لا يملك من أمر نفسه أو أهله أو ماله شيئا ، عند طلب الله سبحانه وتعالى له ، وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام ، حينما طلب الله سبحانه وتعالى منه أن يذبح ابنه ووحيده وفلذة كبده الذى رزق به على الكبر وهو إسماعيل عليه السلام – بيده هو – سمع وأطاع لأمر الله عز وجل ، لم يقل يا رب لماذا ؟ لم يقل يا رب إذن افتديه ؟ لم يقل يارب أوجد لى مخرجا ؟ .. كما أن إسماعيل عليه السلام كذلك مستسلما لأمر الله ، فحينما طلب منه أبوه إبراهيم عليه السلام أن يقدم نفسه تنفيذا لأمر الله أجاب : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إنْ شاء الله من الصابرين ﴾ . لم يقل : يا أبت راجع ربك ، لم يقل يا أبى افتدينى ، لم يقل : يا أبى كيف تذبح ابنك ووحيدك بيديك ، بل قال : ﴿ افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

(ج) إن الشيطان مسلط على بنى آدم ، لا ينفك عنه ولا يخنث إلّا باليقظة وذكر الله ، فها هو يعرض لإبراهيم وإسماعيل وقد استسلما لأمر الله ، عند جمرة العقبة ، فضربه إبراهيم بسبع جمرات ، ثم عرض له مرة ثانية عند الجمرة الوسطى ، ومرة ثالثة عند الجمرة القصوى فضربه إبراهيم عليه السلام .

ومعنى ذلك : أن الشيطان وحزبه ، لا يكفون أبدا عن فتنة بنى آدم ، إنَّهم لا ييأسون أبدا ، وهذا يتطلب من المسلم أن يكون دواما متيقظا ، لا يفتر عن ذكر الله ، والتحصن بالله من الشيطان الرجيم .

إن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، بل هو أرحم بعباده من آبائهم وأمهاتهم ، فحينما تبيّن استسلام إبراهيم وابنه – عليهما السلام – لله عز

وجل ونجحا فى الابتلاء جاءت رحمة الله . سبحانه وتعالى ، متمثلة فى إعفاء إبراهيم – عليه السلام – من إراقة دم ابنه إسماعيل – عليه السلام – ومن هنا يجب أن يتعلق بصر المسلم دائما برحمة الله عز وجل .

إن النجاح فى الاختبار ، والثبات والصبر على الابتلاء يرفع درجات صاحبه عند الله عز وجل .

(د) ﴿ يا بني ، إنِّى أرى فى المنام أنِّى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ﴾ ، قال : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ .

لقد قص الله علينا هذه الحادثة ، وعلق عليها بأنها بلاء مبين ، لا لمجرد التسلية ، أو سرد الأخبار ، وإنَّما لإعطاء مثل من أمثلة الطاعة والانقياد الكامل للأوامر الربانية ، للتأسى .

فالأمر بذبح الابن : إذا قيس بمقاييس العقل والمنطق ، لابد أن يرفضاه ، ولكن إبراهيم ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ لم يفعل ذلك ، لأنه أسلم لله رب العالمين ، لأن أوامر رب العالمين لا تعرض على العقل البشرى المحدود ، وكذلك عندما عرض الأمر على ابنه كانت إجابة إسماعيل بوجوب تنفيذ الأمر الرباني ، مع ما فى هذا الأمر من تهديد لحياته . فقد تربى إسماعيل على وجوب تنفيذ أوامر الله ، وكان أبوه وأمه الأسوة الحسنة والنموذج الحى للطاعة والانقياد لأوامر الله سبحانه وتعالى .

لقد فارق أبوه إبراهيم ، الأهلَ والوطنَ ، وتبرأ منهم ، لأنهم أعداء لله . ورضيت أمه بالبقاء بوادٍ غير ذى زرع ، يهددها الموت عطشا ، وتهددها الوحدة ، رضيت بذلك لأنه أمر رباني . هكذا تربى وتعلم ، ثم نفّذ ﴿ يا أبت ، افعل ما تؤمر .... ﴾ .

إنَّه درس لكل أسرة مسلمة ، فهذه أسرة أبى الأنبياء إبراهيم مطيعة منقادة لأوامر الله مع صعوبة تنفيذ تلك الأوامر .

لقد أعفانا رب العزة نحن ذرية إبراهيم من تلك الأوامر الصعبة . وكلفنا بأوامر هي خير لنا في ديننا ومعاشنا وعاقبة أمرنا فما بال الكثيرين يكسلون ، بل والبعض يرفضون تنفيذها .

إن رب العزة – سبحانه وتعالى – سوف يحاسب كل أب وكل أم وكل ابن قصر عن طاعة الله . ويقول لهم : لقد أطاعت أسرة إبراهيم فى المستحيل عقلا ، فلماذا عصيتم ؟؟؟ .. (وأعفيتكم من هذا المستحيل) ، لقد سقت إليكم المثل والقدوة فى تنفيذ المستحيل فما هو عذركم ؟؟ ..

الجزء الثانى

إسماعيل عليه السلام هو الذبيح
إن الذبيح كان بمكة ولم يكن بالشام

(وإسماعيل هو الذبيح . على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم وأما القول بأنه إسحاق فباطل ، بأكثر من عشرين وجها ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ، وفى لفظ وحيده ، ولا شك عند أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذى غر أصحاب هذا القول أن فى التوراة التى بأيديهم اذبح ابنك إسحق قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم لأنها تناقض قوله اذبح بكرك وحيدك ، ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف وأحبُّوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه دون العرب ، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله ، وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحٰق والله تعالى قد بشر أم إسحٰق به ، وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة : إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : ﴿ لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب ﴾ فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يذبحه . ولا ريب أن يعقوب داخل فى البشارة فتناول البشارة لإسحٰق ويعقوب فى اللفظ واحد وهذا ظاهر الكلام وسياقه . فإن قيل لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجرورا عطفا على إسحق فكانت القراءة ومن وراء إسحٰق يعقوب أى ويعقوب من وراء إسحٰق قيل لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشرا به لأن البشارة قول مخصوص وهى أول خبر سار صادق وقوله تعالى ومن وراء إسحٰق يعقوب جملة متضمنة لهذه القيود فتكون بشارة بل حقيقة البشارة

---

(١) « زاد المعاد فى هدى خير العباد » ، جـ ١ ، ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤ - ١٩ .

هى الجملة الخبرية . ولما كانت البشارة قولا ، كان موضع هذه الجملة نصبا على الحكاية بالقول . كأن المعنى ، وقلنا لها من وراء إسحٰق يعقوب ، والقائل إذا قال: بشرت فلانا بقدوم أخيه وثقله فى أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعا هذا مما لايستريب ذوقهم فيه البتة ، ثم يضعف الجر أمر آخر وهو ضعف قولك مررت بزيد ومن بعده عمرو لأن العاطف يقوم مقام حرف الجر فلا يفصل بينه وبين المجرور كما لا يفصل بين حرف الجر والمجرور ويدل عليه أيضا أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحٰق ﴾ نبيا من الصالحين فهذه بشارة من الله تعالى له شكرا على صبره على ما أمر به وهذا ظاهر جدا فى أن المبشر به غير الأول بل هو كالنص فيه فإن قيل ، فالبشارة الثانية وقعت على نبوته أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة قيل البشارة وقعت على المجموع على ذاته ووجوده وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب نبيا على الحال المقدر أى مقدرا نبوته فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ثم تخص بالحال ، التابعة الجارية مجرى الفضلة ، هذا محال من الكلام . بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى وأيضا فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيرا لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله ، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحٰق ، وأمه ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل ، زمانا ومكانا ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة وأيضا فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليما لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ولما ذكر إسحٰق سماه « عليما » فقال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ﴾ إلى أن قال : ﴿ قالوا

لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ وهذا إسحق بلا ريب لأنه من امرأته وهى المبشرة به وأما إسماعيل فمن السرية وأيضا فإنهما بشرا به على الكبر واليأس من الولد وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك وأيضا فإن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته والله تعالى قد اتخذه خليلا والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة فلم يبق فى الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصَدَّق الخليل الرؤيا وحصل مراد الرب ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضى الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور وأيضا فإن سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة فإنها كانت جارية فلما ولد إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها فى أرض مكة ليبرد عن سارة حرارة الغيرة وهذا من رحمته ورأفته فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحالة هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية فحينئذٍ يرق قلب الست على ولدها وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها وأن الله لا يضيع بيتا ، هذه وابنها ، منهم ويرى عباده جبره بعد الكسر ولطفَه بعد الشدة وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة وهذه سننه تعالى

فيمن يريد رفعه من خلقه أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره قال تعالى : ﴿ ونريد أن نمُنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1]

---

(١) نظراً لأهمية هذا الموضوع ، فقد أوردنا ما قاله الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه « زاد المعاد » ، جـ ١ ، ص ١٥ - ١٧ ، نصا دون تصرف حتى تَعُمّ الفائدة وليدرك المشتغلون بالتاريخ أن ما يزعمونه من أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام وإن ذلك كان فى فلسطين ، لا أصل له ، وأنهم بهذا الزعم يرددون ما يزعم اليهود ، وأنهم لو كلفوا أنفسهم الرجوع إلى كتابات السلف الصالح ، لأدركوا أنهم أخطأوا خطأ كبيراً بإيراد هذه المزاعم (عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٧) .

الجـــزء الثالث

رسالة إسماعيل عليه السلام فى قومه

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ (١) .

وهنا يذكر القرآن الكريم إسماعيل أبا العرب وينوّه عن صفاته بأنه كان صادق الوعد ، وصدق الوعد صفة كل نبى ، وكل صالح ، فلابد أن هذه الصفة كانت بارزة فى إسماعيل بدرجة تستدعى إبرازها والتنويه بها بشكل خاص . وهو رسول ، فلابد أنه كانت له دعوة فى قومه ولابد وأنه استجاب بعض القوم لدعوته ؛ فقد كان فى العرب موحدين قبيل الرسالة المحمدية ، فالأرجح أنهم بقية الموحدين من أتباع إسماعيل .

ويذكر القرآن الكريم أيضا من أركان الدين الذى دعا إليه إسماعيل عليه السلام – وهو الإسلام – الصلاة والزكاة .

والصلاة والزكاة ركنان من أركان الإسلام الذى كان عليه إسماعيل ، وإبراهيم عليهمـا السـلام : والذى دعا إليه محمد ﷺ ....﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٢) .

---

(١) مريم : ٥٤ – ٥٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣، ص ١٢٥ – ١٢٦ . وقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل »

(٢) البقرة : ١٣٦ ؛ مسلمون أى مطيعون خاضعون كما قال تعالى : ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾ والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن اختلفت مناهجهم كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ والآيات فى هذا كثيرة ، والأحاديث فمنها قوله ﷺ : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » انظر تفسير القرآن العظيم . جـ ١ ، ص ١٨٦ .

والصلاة هى الركن الأعظم فى الإسلام ، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام كان يدعو :

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ﴾[1] ، وكان يدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق ابنه وأهله وأمته لإقام الصلاة : ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾[2] . لماذا ؟ لأن للصلاة فى الإسلام منزلة ، لا تعدلها منزلة أية عبادة أخرى :

فهى عماد الدين الذى لا يقوم الدين إلا به قال رسول الله ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله »

وهى آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقته الدنيا ، جعل يقول – وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة – : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » .

وهى آخر ما ينقض من الدين ، فإن ضاعت ضاع الدين كله . قال رسول الله ﷺ : « لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها ، فأولهن نقضا الحكم ، وآخرهن الصلاة » [3] .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أن الله سبحانه وتعالى يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة : ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ﴾ [4] ، وتارة يقرنها بالزكاة : ﴿ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ﴾ [5]، ومرة بالصبر : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [6] ، وطورا بالنسك ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ [7] .

وأحيانا يفتتح بها أعمال البر ويختتمها بها ، كما فى سورة المعارج ، وفى أول سورة المؤمنين : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ .

---

(١) إبراهيم : ٤٠ . (٢) إبراهيم : ٣٧ . (٣) رواه ابن حبان من حديث أبي أمامة .

(٤) الأعلى : ١٤ – ١٥ .

(٥) البقرة : ١١٠ .

(٦) البقرة : ٤٥ .

(٧) الكوثر : ٢ .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة ، أن أمر بالمحافظة عليها فى الحضر والسفر ، والأمن والخوف . وقد شدد النكير على من يفرط فيها وهدد الذين يضيعونها ، فقال جل شأنه : ﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ (١) .

ولهذا كله كان إسماعيل عليه السلام : يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، ومن قبل سأل إبراهيم عليه السلام ربه : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ، ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء ﴾ (٢) .

---

(١) الماعون : ٤ ، ٥ .
(٢) إبراهيم : ٤٠ .



الفصـــل الرابع

تاريخ الأمة المسلمة فى حرم الله الآمن
وما حوله منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
وحتى قبيل بعثة محمد ﷺ

لاحظنا من خلال العرض القرآنى والسنة النبوية لتاريخ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وتاريخ بيت الله العتيق وحرمه الآمن [(١)] ، أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا إمامين للأمة المسلمة التى سكنت حرم الله الآمن ، كما أنهما كانا سادنين لبيت الله العتيق .

وذلك يعنى أن بيت الله العتيق الذى جعله الله دواما عتقا من الجبابرة ، لم يملكه أحد ، على مدار تاريخه الطويل ، وسيظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد لاحظنا أيضا ، أن القبائل العربية ومنها الجراهمة التى سكنت إلى جوار بيت الله العتيق ، سواء أسلمت أم لم تسلم فى بداية أمرها – لم يكن لها سلطان على البيت ولم يكن لها حق فى مياه زمزم .

ولكن بأى دين كانت تدين الأمة التى سكنت حرم الله الآمن على عهد **إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام** ؟؟ .

من المؤكد أنهم كانوا مسلمين موحدين لأنه من غير المتصور – فى ظل التصور الإسلامى – أن يقبلَ إبراهيم عليه السلام وابنه وزوجه أن يعيشوا جوار أناس مشركين ، وإبراهيم عليه السلام هو الذى وقف فى وجه أمة برمتها لشركها بالله عز وجل ، وفاصلها وهجرها بعد أن دعاها إلى توحيد الله وإفراده وحده

---

(١) انظر ص ١٩ وما بعدها من رسالتنا هذه .

بالعبادة وكان فى هؤلاء القوم الذين فاصلهم أباه وقومه وعشيرته .

وليس من المتصور أن يقوم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والأئمة المسلمون من بعدهما بتطهير البيت لغير المسلمين ، وليس من المتصور أن الطائفين والعاكفين والركع السجود فى بيت الله العتيق ليسوا مسلمين ، وليس من المتصور أن يطلب إبراهيم عليه السلام من الله أن تقيم ذريته الصلاة وهم ليسوا مسلمين .

وليس من المتصور أن إبراهيم عليه السلام يسمح لابنه إسماعيل أن يقترن بفتاة غير مسلمة وهو الرسول الكريم ؟؟ .

كما أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر فى كتابه الكريم أنه قد جعله للناس إماما ، والناس الذين كان إبراهيم إماما لهم لابد وأن يكونوا مسلمين ، ولهذا كله يمكن افتراض أن الجراهمة على عهد إبراهيم وإسماعيل كانوا مسلمين .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن إسماعيل عليه السلام كان رسولا نبيا : ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا [1] ﴾ وكل رسول كان يرسل إلى قومه خاصة ، فمن المؤكد أنه قد استجاب له من استجاب ، أى أنه كان هنالك مسلمين سواء من الجراهمة أو ممن أتى بعدهم أو عاصرهم من القبائل العربية التى كانت تحط رحالها إلى جوار بيت الله الحرام على عهد إسماعيل عليه السلام ومن تبعه . والغالب أن أهل الحرم كانوا مسلمين على عهد إسماعيل أيضا لأنه يستحيل أن يقبل ابن النبى الكريم أو يسمح بنزول مشركين بحرم الله الآمن وهو الذى أراده الله سبحانه وتعالى أن يقوم على قاعدة التوحيد : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ [2] .

---

(١) مريم : ٥٤ - ٥٥ .

(٢) الحج : ٢٦ يقول الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : « هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش فى البقعة التى أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٢١٥ .

كما أن الذين كانوا يحجون قبل عهد إبراهيم وبعد عهد إبراهيم عليه السلام حجا صحيحا ، هل يمكن أن يكونوا غير مسلمين ؟؟ إن النصوص القرآنية والأحاديث التى جمعناها تأبى إلا أن يكونوا مسلمين .

ولكن من المؤكد على الجانب الآخر ، أن سكان الحرم بعد عهد إسماعيل عليه السلام وأولاده بفترة - طويلة أو قصيرة - قد نجح الشيطان فى اجتيالهم - لا نقول كلهم - بل غالبيتهم عن دينهم وهو الإسلام يشهد بذلك نمط الحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها قبل بعثة محمد ﷺ كما وضّح ذلك القرآن الكريم وأحاديث النبى محمد ﷺ .

من هم ولد إسماعيل ؟ ، وهل ظلت إمامة البيت لهم ، أم غلبوا على أمرهم ؟ .

يذكر ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية ، أن إسماعيل عليه السلام قد تزوج بنت مضاض بن عمرو الجرهمى وجاءته بالبنين الاثنى عشر يذكر منهم نابت . ويذكر أيضا أن جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون فى أنسابهم إلى ولدى إسماعيل عليه السلام : نابت وقيذر ونابت هو ابن أخت الجراهمة . ثم تغلبت جرهم على البيت طمعا فى ابن أختهم فحكموا بمكة وما والاها عوضا عن بنى إسماعيل مدة طويلة (١) .

والمصادر الإسلامية الموثقة لا تسمح لنا بكتابة أحداث تاريخ متسلسل بعد عهد إسماعيل عليه السلام وذريته وحتى قبيل بعثة محمد ﷺ :

ولذلك سنحاول بقدر الإمكان أن نتلمس بعض الأخبار الواردة فى كتب التاريخ المعتمدة ومنها :

أن الجراهمة من سكان الحرم وهم أخوال أبناء إسماعيل عليه السلام ، قد صار إليهم أمر البيت غصبا بعد نابت بن إسماعيل (٢) . وبمضِّى الزمان ، نجح الشيطان

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ ، وهذه المعلومات لا نملك من الوثائق ما يكذبها أو يصدقها . فيما يتصل بالفترة فيما بعد إسماعيل عليه السلام .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٨٥

فى اجتيالهم عن دينهم – لا أقول كلهم – وإنما يمكن افتراض أن الغالبية منهم قد حدث لها ذلك ، وطغت واستحلت حرمة البيت ، وظلموا من دخل به ، وأكلوا مال الكعبة . وظهر منهم الفسق والفساد حتى أنهم كانوا يأتون الفاحشة فى جوف الكعبة ، وبهذا نسوا عهدهم مع ربهم وعهدهم مع أنبيائهم ، بل ونسوا الأساس الذى أقيم عليه بيت الله العتيق وحرم الله الآمن – وهو التوحيد – .

ولكن القوم من سكان الحرم لم يحرموا رجالا راشدين ، يذكرونهم ويحضُّونهم على التوبة ، فها هو مضاضى بن عمرو بن حارث يقوم فى قومه خطيبا ومذكرا :

(يا قوم ابقوا على أنفسكم وراقبوا الله فى حرمه وأمنه فقد رأيتم وسمعتم من هلك من صدر هذه الأمم قبلكم قوم هود وقوم صالح وشعيب فلا تفعلوا وتواصلوا وتواصوا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تستخفوا بحرم الله تعالى وبيته الحرام ، ولا يغرنكم ما أنتم فيه من الأمن والقوة فيه ، وإياكم والإلحاد فيه بالظلم فإنه بوار وأيم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط فظلم فيه وألحد إلا قطع الله عز وجل دابرهم . واستأصل شأفتهم ، وبدل أرضهم غيرهم ، فاحذروا البغى فإنه لا بقاء لأهله قد رأيتم وسمعتم من سكنه قبلكم من طسم وجديس والعماليق ممن كانوا أطول منكم أعمارا وأشد قوة ، وأكثر رجالا وأموالا ، وأولادا فلما استخفوا بحرم الله وألحدوا فيه بالظلم أخرجهم الله منها بالأنواع الشتى فمنهم من أخرج بالذر ، ومنهم من أخرج بالجدب ، ومنهم من أخرج بالسيف ، وقد سكنتم مساكنهم ، وورثتم الأرض من بعدهم ، فوقروا حرم الله وعظموا بيته الحرام وتنزهوا عنه وعما فيه ولا تظلموا من دخله وجاء معظما لحرماته وآخر جاء بايعا لسلعته أو مرتغبا فى جواركم ، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا من حرم الله خروج ذل ، وصغار حتى لا يقدر أحد فيكم أن يصل إلى الحرم ولا إلى زيارة البيت الذى هو لكم حرز وأمن والطير والوحوش تأمن فيه (١) .

فقال له قائل منهم ، يرد عليه يقال له : مجدع من الذى يخرجنا منه ؟ ألسنا أعز العرب وأكثرهم رجالا وسلاحا فقال له مضاض بن عمرو : إذا جاء الأمر

---

(١) أخبار مكة ص ٨٧ ، ٩١ ، ٩٢ .

بطل ما تقولون فلم يقصروا عن شيء مما كانوا يصنعون ، فلما رأى مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض ما تعمل جرهم فى الحرم وما تسرق من مال الكعبة سرا وعلانية ، عمد إلى غزالين كانا فى الكعبة من ذهب وأسياف قلعية فدفنها فى موضع بئر زمزم وكان ماء زمزم قد نضب وذهب لمّا أحدث جرهم فى الحرم ما أحدثت غبى مكان البئر ودرس . فقام مضاض بن عمرو وبعض ولده فى ليلة مظلمة فحفر فى موضع بئر زمزم وأعمق ثم دفن فيه الأسياف والغزالين .

وهكذا صم القوم آذانهم عن نصيحة أخيهم ، واستمروا يعيثون فى الأرض فسادا فكان لابد أن يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم ، إمضاء لسنن الله الثابتة فى حياة الأمم والشعوب : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

لقد سلط الله على قبائل الجراهمة قبائل خزاعة (١) ، فقاتلتهم وأخرجتهم حوالى القرن الثانى الميلادى ، ولا شك أن العقاب الربانى جاء متناسبا مع حجم الجرم الذى ارتكبوه وانتهاكهم لحرمة بيت الله العتيق وحرم الله الآمن الذى جعله الله آمنا إلى يوم القيامة . وقد حفظ لنا الشعر العربى(٢) بعض هذه الأخبار .

فلما حازت خزاعة أمر مكة ، وصاروا أهلها جاءهم بنو إسماعيل وكانوا قد اعتزلوا حرب جرهم وخزاعة فلم يدخلوا فى ذلك ، فسألوهم السكن معهم فأذنوا لهم ثم جاء الوقت الذى تزوج فيه قصى بن كلاب حبى ابنة حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعى فولدت له بنيه الأربعة

---

(١) الذين كانوا قد نزلوا حول الحرم من ذرية عمرو بن عامر الذى خرج من اليمن لأجل ما توقع من تدمير الله للدولة السبأية بعد أن حذر قومه من العواقب الوخيمة والانتقام الربانى الذى سينزل بهم نتيجة كفرهم بالله عز وجل والخزاعيون من القبائل العربية التى كانت تسكن جنوب الجزيرة العربية على عهد الدولة السبأية (٦٥٠ ق.م - ١١٥ م) والذين تفرقوا فى شمال وجنوب الجزيرة بعد انهيار سد مأرب وتدمير الحضارة السبأية بسيل العرم الذى عاقب الله أهل سبأ بسبب كفرهم : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ﴾ البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٨٥ ، معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ١٣٤ - ١٤٢ ، تاريخ مكة ، ص ٩٢ - ٩٤ .

(٢) سيرة النبى ﷺ لابن هشام ؛ جـ ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا . ثم صار البيت إليه ، بعد خزاعة التى امتدت خدمتها للبيت العتيق حوالى ثلاثمائة عام .

وتذكر المصادر أن الخزاعيين كانوا قوم سوء لأن الشرك قد فشا فيهم ، ومظهر ذلك نلمحه من خلال ما فعله رئيسهم عمرو بن لحى لعنه الله الذى ابتدع أشياء فى الدين لقومه – غير بها دين إبراهيم عليه السلام . فاتبعه بذلك العرب فضلوا بذلك ضلالا بعيدا بينا فظيعا شنيعا . وقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ أنه قد رأى عمرو بن لحى فى النار وأنه أول من سيب السوائب (١) .

وقد علق ابن كثير على رجوع سدانة البيت إلى قصى بن كلاب بقوله : فرجع الحق إلى نصابه ، ورد شارد العدل بعد إيابه ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خزاعة المراد والأوطار ، وتسلمت البيت العتيق لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة ونحرهم لها وتضرعهم عندها واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها وأنزل قصى قبائل قريش أباطح مكة وأنزل طائفة منهم ظواهرها فكان يقال قريش البطاح وقريش الظواهر .

وكان لقصى (٢) بعد وفاته أبناء أكبرهم عبد الدار الذى تولى خدمة بيت الله الحرام بعد وفاة والده ، وبعد وفاة عبد الدار ، صار الأمر فى أبنائه وأبناء أخيه عبد مناف . فكانت السقاية والرفادة لعبد شمس بن عبد مناف ، وكانت الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار . وانتقلت السقاية والرفادة بعد ذلك إلى هاشم ابن عبد مناف (ولد عام ٤٦٤ م وتوفى ٥١٠ م) الذى تزوج سلمى بنت عامر الخزرجية فولدت له شيبة وبعد وفاة هاشم انتقلت الرفادة والسقاية إلى أخيه المطلب (ت ٥٢٠ م) الذى ذهب إلى المدينة لإحضار ابن أخيه شيبة (عبد المطلب) من عند أخواله . وبعد وفاة عبد المطلب تولى ابن أخيه عبد المطلب جد رسول الله ﷺ السقاية والرفادة .

أما الحجابة فقد ظلت فى أيدى بنى عبد الدار حتى وصلت إلى طلحة بن

---

(١) البداية والنهاية : جـ ٢ ، ص ١٨٩ ، « أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحىّ بن قمعه بن خندق أبو خزاعة » ، حديث صحيح رقم ٢٥٧٧ صحيح الجامع الصغير .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ ، سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، ص ١٤٠ .

أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار على عهد رسول لله ﷺ .

وقد ولد لعبد المطلب عشرة نفر وست نسوة منهم العباس وحمزه وعبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير والحارث وأبو لهب واسمه عبد العزى ، وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة .

وأم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع النساء إلا صفية فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن تعظة بن مرة بن كعب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النَضْر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان . فولد لعبدالله محمد رسول الله ﷺ ، سيد ولد آدم وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى .

فمحمد ﷺ أشرف ولد آدم حسبا وأفضلهم نسبا من قبل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين .

وقد روى عن رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى هاشما من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم [1] .

تعليق :

وهكذا تؤكد لنا أحداث التاريخ أن مكة تنفى خبثها ، وأن لله فى حياة الأمم سنن لا تتبدل ولا تتغير منها :

أن الله سبحانه وتعالى يمكن في الأرض للمؤمنين الموحدين :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم من

---

(١) رواه الأوزاعى عن شداد بن عمار عن وائلة بن الأسقع ، البداية والنهاية ؛ جـ ٢ ، ص ٢١٠ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ٤ ، ص ٢ ، حديث رقم ٣٠٢ ، رواه مسلم .

بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[1] .

وقد مكن الله فى أرض الحرم الآمن لإبراهيم وذريته وللجراهمة .

والتمكين له تبعات ، وصاحبه مطالب بواجبات :

﴿ الذين إنْ مَكَّنَّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[2] .

وقام إبراهيم وذريته والمسلمون من الجراهمة بواجباتهم ابتغاء مرضات الله – ولكن جاء الوقت الذى قصر فيه ذُرّيةُ المُمَكَّنِ لهم فى أرض الحرم الآمن عن القيام بواجباتهم ، فتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتركوا التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وظلموا أنفسهم بالشرك بالله ، وظلموا غيرهم بغيا فى الأرض واستكباراً ؛ لقد استحلوا حرمة البيت العتيق ، وظلموا من دخله ، وأكلوا مال الكعبة ، وظهر منهم الفسق والفساد حتى أنهم كانوا يأتون الفاحشة فى جوف الكعبة كما أورد الأزرقى فى « تاريخ مكة » . وكانوا يصدون عن بيت الله العتيق وحرمه الآمن . وبهذا نسوا عهدهم مع ربهم وعهدهم مع أنبيائهم ، والأساس الذى أقيم عليه بيت الله العتيق وحرم الله الآمن .

وهنا كان لابد وأن يتحقق فيهم سنة أخرى من سنن الله الكونية فى حياة الأمم والشعوب :

﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذَّبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديداً[3] ﴾ فسلط الله الخزاعيين ليخرجوا الجراهمة من حرم الله بعد ألف سنة من الإقامة أو يزيد :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[4] .

وجاء الخزاعيون وقد مكن لهم فى حرم الله الآمن ، ودار الزمان دورته ،

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) الحج : ٤١ . (٣) الطلاق : ٨ – ١٠ . (٤) محمد : ٣٣ .

ونسى الخزاعيون سيرة الذين ظلموا وفسقوا فى حرم الله الآمن ، فكان على الله أن يخرجهم وأن يستبدل قوما غيرهم ، فالله لا يحابى أحدا ، ولا يعطل حكمه من أجل قرابة أو نسب ، وإن شاء فعل ، ولكن الله عادل ، عنده معايير وضوابط لا تختل . فلله الحمد والمنة .

حينما فسق الخزاعيون ، سلط الله عليهم القرشيين الذين انتزعوا منهم ولاية بيت الله الحرام والحرم الآمن ؛ ودار الزمان دورته وأشرك القرشيون من أبناء إسماعيل ، وفسقوا وظلموا ، بل وقعدوا فى طريق الذين يريدون توحيد الله سبحانه وتعالى ، وصدق فيهم وعد الله : ﴿ لاينال عهدى الظالمين ﴾[1] . فكان لابد أن يُسَلَّطَ عليهم ؛ لقد سلط الله عليهم أنصار التوحيد ، محمداً وصحبه ، فأخرجوا المشركين من بيت الله الحرام ، وطهروا الحرم الآمن من أدران الشرك ، وارتفع نداء لا إله إلا الله ، محمد رسول الله على كل ربوع الحرم الآمن ، بل على الأرض كلها .

هذه سنن ربانية فى حياة الأمم لا تتعطل أبدا ، يجب أن تتملاها البشرية ، وليحذر المسلمون أن يسلكوا مسالك الفاسقين أو أن يسلكوا مسالك الظالمين ، وإلَّا نزل بهم وحاق بهم ما حاق بغيرهم من عذاب أليم .

والعاقل من اتعظ بغيره :

﴿ إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهوشهيد ﴾[2].

---

(١) البقرة : ١٢٤ .   (٢) ق : ٣٧ .

الفصـــل الخامــس
الجزء الأول
تاريخ وحضارة البيت العتيق وحرم الله الآمن
ومكة المكرمة منذ أقدم الدهور

يرتبط تاريخ البيت العتيق بالحرم الآمن ويرتبط تاريخ مكة المكرمة بحرم الله الآمن ، وهذا التاريخ يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الأنبياء والرسل والبشرية بداية بآدم عليه السلام ومرورا بإبراهيم وإسماعيل . ونهاية بمحمد ﷺ وإلى يوم الدين .

وليس أمام البشرية من مصادر تَستقى منها معلومات صحيحة عن تاريخ هذا البلد الحرام ، إلا القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب التراث المحققة . والجوانب التى سنقوم بمعالجتها فى تاريخ الحرم الآمن ومكة والبيت العتيق هى :

(أ) تسمية مكة :

مكة [١] أو بكة بيت الله الحرام . وقيل إنها سميت كذلك لأنها لا يفجر بها أحد إلا بكت عنقه [٢] .

وقيل بكة موضع البيت وما حول البيت مكة وإن قال البعض إن مكة الحرم كله .

ومن أسمائها رحم ، وصلاح والقادس لأنها تطهر من الذنوب ، والمقدسة والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها ، والباسّة لأنها تبُسّ

---

(١) سميت كذلك لأنها تمك من ظلم فيها ، أى تهلكه وتنقصه .

(٢) والبك دق العنق . وقيل سميت كذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا لحدوا فيها . قال عبد الله بن الزبير : لم يقصدها جبار قط بسوء إلا وقصمه الله عز وجل (معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ١٣٤ ؛ تفسير القرطبى جـ ٤ ، ص ١٣٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ .

الملحدين أى تحطهم . وقيل تخرجهم كما دَللنا على ذلك من خلال استعراض تاريخها . ومن أسمائها النسناسة التى لا تقر ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى بها أحد إلا أخرجته . .

وأول بيت وضع للناس ببكة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ﴾ (١) . وسمى البيت بالعتيق لأنه عتق من الجبابرة ، لم ولن يملكه أحد .

وقد سَّمى الله تعالى مكة فى كتابه الكريم بأسماء أخرى منها :

* أم القرى : ﴿ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ .
* البلد الأمين : ﴿ والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ﴾ .
* البلد : ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ .

(ب) فضائل مكة وخواصها :

لماذا اختار الله سبحانه وتعالى مكة وفضلها على سائر الأماكن ؟؟ :

« إذا تأمل الإنسان أحوال الخلق ، يرى هذا الاختيار والتخصيص فيه دالا على ربوبية الله تعالى ووحدانيته ، وكمال حكمته وعلمه وقدرته ، وأنه الله الذى لا إله إلا هو ، فلا شريك له يخلق كخلقه ، ويختار كاختياره ، ويدبر كتدبيره فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص المشهود أثره فى هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته ، وأكبر شواهد وحدانيته وصفات كماله وصدق رسله .

ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها ، وهى البلد الحرام (٢) . فإنه سبحانه اختاره لنبيه ، وجعله مناسك لعباده ،

---

(١) روى أن أباذر الغفارى سأل رسول الله ﷺ : أى مسجد وضع أولا ؟ قال المسجد الحرام ؟ قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى ، وقلت كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً ، قلت : ثم أى ؟ قال : حيث أدركتك الصلاة فصلى فكلها مسجد » أخرجه البخارى ومسلم وأحمد ، تفسير القرآن العظيم ؛ ج ١ ، ٣٨٣ .

(٢) وفى الصحيحين « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة .

وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب ومن البعد ، من كل فج عميق ، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين كاشفى رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا . وجعله حرما آمنا لا يسفك فيه دم ولا تعضد به شجرة ولا ينفر له صيد ولا يختلى خلاه ولا يلتقط لقطته للتمليك بل للتعريف . ليس إلا وجعل قصده مكفرا لما سلف من الذنوب ، ماحيا للأوزار ، حاطا للخطايا ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ، ولم يرضى لقاصده من الثواب دون الجنة » ؛ ففي السنن من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكيرُ خبَث الحديد وليس للحِّج المبرور ثواب دون الجنة » . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاد الله وأحبَّها إليه ومختاره من البلاد لما جعل عرصاتها مناسك لعباده ، فرض عليهم قصدها ، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام وأقسم به فى كتابه العزيز فى موضعين منه فقال تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعى إليها والطواف بالبيت الذى فيها ، غيرها . وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله ، واستلامه ، وتحط الخطايا والأوزار فيه ، غير الحجر الأسود ، والركن اليمانى . وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » . ففى النسائى والمسند بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » ورواه ابن حبان فى صحيحه وهذا صريح فى أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق ولذلك كان شد الرحال إليه فرضا ولغيره مما يستحب ولا يجب ، وفى المسند والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عدى بن الحمراء أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف على راحلته بالجزورة من مكة يقول : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أُخرجت

منك لما خرجت » . قال الترمذى : هذا حديث صحيح .بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم ، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها ومن خواصها ؛ أيضا أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض ، وأصح المذاهب فى هذه المسألة أنه لا فرق فى ذلك من القضاء والبنيان لبضعة عشر دليلا ، من خواصها أيضا أن المسجد الحرام أول مسجد وضع فى الأرض كما فى الصحيحين عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الأرض قال : « المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاما » . وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال معلوم أن سليمان بن داود الذى بنى المسجد الأقصى وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام وهذا من جهل هذا القائل فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه والذى أسسه هو يعقوب بن إسحٰق صلى الله عليهما وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة [1] بهذا المقدار ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى ، فالقرى كلها تبع لها ، وفرع عليها . وهى أصل القرى فيجب أن لا يكون لها فى القرى عديل . فهى كما أخبر النبى ﷺ عن الفاتحة أنها أم القرآن ، ولهذا لم يكن لها فى الكتب الإلهية عديل . ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة ، إلا بإحرام . وهذه خاصية لا يشاركها فيها شىء من البلاد . وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقد روى عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعا لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام من أهلها ، ومن غير أهلها . ذكره أبو أحمد بن عدى . ولكن الحجاج بن أرطأة فى الطريق وآخر قبله من الضعفاء ، وللفقهاء فى المسألة ثلاثة أقوال : النفى ، والإثبات ، والفرق بين من هو داخل المواقيت ومن هو قبلها ، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام ، ومن هو داخلها ، فحكمه حكم أهل مكة .

---

(١) أورد الإمام القرطبى فى تفسيره بأن آدم عليه السلام هو الذى بنى المسجد الأقصى بعد بنائه للبيت العتيق بأربعين عاما . وأن يعقوب عليه السلام قد أقام قواعده وتجديده فقط بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ؛ ج ٤ ، ص ١٣٨ ، فتح البارى ، ج ٦ ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

وهو قول أبى حنيفة والقولان الأولان للشافعى وأحمد . ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها قال تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب إليم ﴾ (١) . فتأمل كيف عدى فعل الإرادة ههنا بالباء ولا يقال أردت بكذا إلا لما ضمنه معنى فعل ، بِهَمَّ فإنه يقال هممت بكذا . فتوعد الله من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم . ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه لا كمياتها ، فإن السيئة جزاؤها سيئة ، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها وصغيرة جزاؤها مثلها . فالسيئة فى حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها فى طرف من أطراف الأرض ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه فى الموضع البعيد من داره وبساطه . فهذا فصل النزاع فى تضعيف السيئات والله أعلم . وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد . ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس ، أى يثوبون إليه ، على تعاقب الأعوام ، من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرا بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقا .

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها ... حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح . وكم أنفق فى حبها ، من الأموال والأرواح ، ورضى المحب ، بمفارقة فلذ الأكباد ، والأهل والأحباب ، والأوطان ، مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطف والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ، ويستطيبه ، ويراه لو ظهر سلطان المحبة فى قلبه أطيب من نعم المتحلية وترفهم ولذاتهم .

وليس محبّا من يعد شقاؤه ... عذابا إذا ما كان يرضى حبيبه

وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى . بقوله ﴿ وطهر بيتى ﴾ فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضت من ذلك ، وكذلك إضافته

---

(١) الحـج : ٢٥ .

عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم ، فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه ، فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجبَ له الاصطفاء والاجتباء ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلا آخر وتخصيصا ، وجلالة زيادة على ما له قبل الإضافة ولم يوفق لفهم هذا المعنى من سوى بين الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن وزعم أنه لا مزية لشيء منها على شيء ، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجها ويكفى تصور هذا المذهب الباطل فى فساده ، فإن مذهبا يقتضى أن يكون ذوات الرسل ، كذوات أعدائهم فى الحقيقة ، وإنما التفضيل بأمر ، لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها . وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة ، وإنما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة ، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفة والمشاعر على أى بقعة سميتها من الأرض ، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها ، ولا إلى وصف قائم بها والله سبحانه وتعالى قد أورد هذا القول الباطل بقوله تعالى : ﴿ وَإِذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمنَ حتى نؤتَى مثل ما أُوتى رسل الله ﴾ قال الله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ أى ليس كل أحد أهلا ولا صالحا لتحمل رسالته بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها ولا تصلح إلا لها والله أعلم . بهذه المحال منكم ولو كانت الذوات متساوية ، كما قال هؤلاء ، لم يكن فى ذلك رد عليهم . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أى هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمه ، فيختصه بفضله ويمنى عليه ممن لا يشكره . فليس كل محل يصلح لشكره واحتمال منته والتخصيص بكرامته فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليست فى غيرها ، ولأجلها ، اصطفاها الله وهو سبحانه الذى فضلها بتلك الصفات ، وخصها بالاختيار فهذا خلقه وهذا اختياره ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ . وما أبين بطلان رأى يقتضى بأن مكان البيت الحرام مساو لسائر الأمكنة وذات التفضيل فى ذلك بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمة بها ، وهذه الأقاويل وأمثالها من الجنايات التى جناها المتكلمون على الشريعة ، ونسبوها إليها وهى بريئة

منها ، وليس معهم أكثر من اشتراك الذوات ، فى أمر عام مع اختلافها فى صفاتها النفسية ، وما سوى الله تعالى بين ذات المسك وذات البول أبدا ، ولا بين ذات الماء وذات النار ، أبدا . والتفاوت البين بين الأمكنة الشريفة ، وأضدادها ، والذوات الفاضلة ، وأضدادها أعظم من هذا التفاوت بكثير فبين ذات موسى عليه السلام ، وفرعون من التفاوت أعظم ، ما بين المسك والرجيع ، وكذلك التفاوت بين نفس الكعبة وبين بيت السلطان ، أعظم من هذا التفاوت أيضا بكثير فكيف يجعل البقعتان سواء فى الحقيقة والتفضيل باعتبار ما يقع هناك من العبادات والأذكار والدعوات . ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود والمرذول وإنما قصدنا تصويره وإلى اللبيب العادل العاقل التحاكم أولا يعبأ الله وعباده بغيره شيئا والله سبحانه لا يخصص شيئا ولا يفضله ويرجحه إلا لمعنى يقتضى تخصيصه وتفضيله . نعم هو معطى ذلك المرجح وواهبه فهو الذى خلقه ثم اختاره بعد خلقه ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ (١) .

(جـ) من الذى بنى بيت الله العتيق ؟ ومتى ؟

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ (٢) .

يقول القرطبى : وقد روى أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام (وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت فى الأرض وأن يطوفوا به . وكان هذا قبل خلق آدم ، ثم إن آدم بنى منه ما بنى وطاف به ، ثم الأنبياء بعده . ثم استتم بناءه إبراهيم عليه السلام) (٣) .

والأرجح أن بيت الله العتيق يرتبط بآدم عليه السلام على اعتبار أنه أول الناس وأبو البشر ، أى أن بيت الله الحرام وبالتالى مكة يرجع تاريخهما إلى زمن بعيد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وإن كانت مكة كأم للقرى قد سكنها أقوام

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد ، جـ ١ ، ص ٧ - ١٠ .

(٢) آل عمران : ٩٦ .

(٣) تفسير القرطبى ، جـ ٤ ، ص ١٣٨ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ .

وأقاموا بها ، فذلك لا يعرف ، قبل وصول هاجر وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام (١٨٩٢ ق . م) وهم أول من سكنها قبل تفجر بئر زمزم ، وبعدها انضم إليهم الجراهمة الذين تزوج منهم إسماعيل عليه السلام .

وقد ورد أن نوحا وهودا وصالحاً وموسى ويونس[١] عليهم السلام قد حجوا إلى البيت العتيق ، وهذه الأخبار من السنة تؤكد أيضا أن البيت العتيق كان موجودا منذ زمن بعيد يعلمه الله عز وجل ، وكان يحج إليه المسلمون وعلى رأسهم الأنبياء . يتضح ذلك من أحاديث النبى ﷺ وخاصة الحديث الذى ورد فى صحيح البخارى والذى يصف حالة البيت العتيق عند وصول إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام :

(وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله) والذى يذكر أن إبراهيم عليه السلام قد استقبل البيت يدعو الله قبل ترك

---

(١) حديث الحافظ أبو يعلى الطبرانى الذى قال : حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبى عن زمعة هو ابن أبى صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال حج رسول الله ﷺ فلمّا أتى وادى عسفان قال : « يا أبا بكر أىّ واد هذا قال : هذا وادى عسفان قال : لقد مر بهذا الوادى نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وأرديتهم النّمار يلبّون يحجون البيت العتيق . قال ابن كثير فيه غرابة (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ١١٩) ويقوى هذا الحديث ما أورده الإمام أحمد قال : حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال : « يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال : وادى عسفان قال : لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النّمار ، يلبون يحجون البيت العتيق (إسناده حسن ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣٨) قال الإمام أحمد : حدثنا هشام حدثنا داود بن أبى هند عن أبى العالية عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ قالوا : وادى الأزرق – قال كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنية هرشاء . فقال أى ثنية هذه ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء قال كأنى انظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقتة خلبة ، قال هشيم يعنى ليفا وهو يلبى أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هندبه (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٣١٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٢ ؛ وفى رواية : « أما إبراهيم ، فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فجعد آدم ، كأنى انظر إليه انحدر فى الوادى يلبّى على جمل مخطوم بُخلبة » أى حبل من ليف . رواه أحمد فى مسنده ، حديث صحيح الجامع الصغير ، رقم ٥٧٨/١٣٥٤ .

زوجه هاجر وابنهما إسماعيل بجوار بيت الله الحرام . والذى يذكر أيضا أن الملك جبريل ، الذى كلف من الله بتفجير المياه من تحت قدمى إسماعيل عليه السلام ، قال لأم إسماعيل عليهما السلام : (هنا بيت الله الحرام) .

والذى يذكر أيضا أن إبراهيم عليه السلام قد أشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها محددا لابنه مكان البيت الذى سيرفعون قواعده (صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ - ١٧٥) .

ولهذا فقد ذهب الإمام ابن كثير فى تفسير آية : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ ، وآية : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ ما يؤكد أن قواعد البيت كانت موجودة قبل إبراهيم عليه السلام ؛ فقال : (وفى هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم وإنما هُدى إبراهيم إليها وبوىء لها) [1] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

الجزء الثانى

الأساس الذى يقوم عليه بيت الله العتيق
وحرم الله الآمن

ما هى حدود حرم الله الآمن ؟

بين الله سبحانه وتعالى لعبده إبراهيم عليه السلام ، حدود حرم الله الآمن عن طريق جبريل عليه السلام ، وللحرم المكى حدود تحيط بمكة ، وقد نُصِبَتْ عليها أعلام فى جهات خمس :

فحده من جهة الشمال « التنعيم » وبينه وبين مكة (٦) كيلو مترات ، وحده من جهة الجنوب « أضاه » بينها وبين مكة (١٢) كيلو مترا ، وحده من جهة الشرق « الجعرّانة » بينها وبين مكة (١٦) كيلو مترا ، وحده من جهة الشمال الشرقى « وادى نخلة » بينه وبين مكة (١٤) كيلو مترا ، وحده من جهة الغرب « الشميسى » (كانت تسمى الحديبية وهى التى وقعت عندها بيعة الرضوان) بينها وبين مكة (٢٢) كيلو مترا .

قال محب الدين الطبرى : عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، قال : نصب إبراهيم أنصاب الحرم يريه جبريل عليه السلام ، ثم لم تحرك حتى كان قصى ، فجددها .

ثم لم تحرَّك حتى كان النبى ﷺ ، فبعث عام الفتح ، تميم بن أسيد الخزاعى فجددها . ثم لم تحرك حتى كان عمر ، فبعث أربعة من قريش مخرمة بن نوفل ، وسعيد بن يربوع ، وحويطب بن عبد العزى ، وأزهر بن عوف ، فجددها ، ثم جددها معاوية ، ثم أمر عبد الملك بتجديدها (١) .

وما زال الناس يعرفون حدود الحرم بالتواتر ، جيل بعد جيل حتى الآن .

هل هنالك حرم آخر غير الحرم المكى ؟؟

«ليس فى الدنيا حرم ، لا بيت المقدس ، ولا غيره إلا هذان الحرمان « مكة

---

(١) السيد سابق ، فقه السنة ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، جـ ١ ، ص ٦٨٩ .

والمدينة » ولا يسمى غيرهما حرما كما يسمى الجهّال فيقولون : حرم المقدس وحرم الخليل ، فإن هذين وغيرهما ليس بحرم باتفاق المسلمين »[1] .

الأماكن التى يحتويها حرم الله الآمن :

يقول الله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنّا جعلنا حرما آمنا وَيُتَخَطفُ النَّاسُ مِنْ حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[2] .

وحرم الله الآمن يضم بين جوانبه :

مكة المكرمة أو بكة :

﴿ إنَّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ﴾[3] ومن الثابت أن موقع مكة لم يسكن بصفة دائمة قبل وصول إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام كما جاء فى الحديث عن إبراهيم عليه السلام حينما ترك زوجه وابنه (عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء)[4] .

ومكة يتوسطها المسجد الحرام :

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾[5] .

والمسجد الحرام يضم بين جوانحه :

البيت العتيق :

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا ، وطَهِّرْ بيتى

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، المجلد ٢٦ ، ص ١١٧ .

(٢) العنكبوت ٦٧ ؛ جامع البيان ، جـ ٢١ ، ص ١٣ - ١٤ .

(٣) آل عمـران : ٩٦ .

(٤) صحيح أبي عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ - ١٧٥ ، فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٥ - ٤٠٧ .

(٥) الحـج : ٢٥ .

للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾[1] .

والنص القرآنى يؤكد لنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرشد إبراهيم عليه السلام إلى مكان البيت وسلمه له وأذن له فى بنائه .

والبيت العتيق هو أول بيت بنى فى الأرض ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر قلت : يا رسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » . قلت : ثم أى ، قال : « بيت المقدس» . قلت : كم بينهما ، قال : « أربعون عام » .

والبيت العتيق عبارة عن بناء مربع الشكل قائم وسط المسجد الحرام ، ويتكون من غرفة واحدة يرتفع سقفها عن سطح الأرض نحو خمسة عشر مترا ، وفى ضلع الكعبة الشرقى باب يوصل إلى جوفها ، ويرتفع عن سطح الأرض بنحو مترين . ويوجد الحجر الأسود فى ركن الكعبة الجنوبى - الشرقى من الخارج ، وهو يرتفع عن الأرض نحو متر ونصف . ويصلى المسلمون بداخلها متجهين إلى أى من جهاتها الأربع .

ويقال : إن ركن الحجر الأسود والركن اليمانى على أساس القواعد التى رفعها إبراهيم عليه السلام .

والحجر الأسود[2] قد نزل من الجنة ، والدليل ما ورد فى حديث محمد ﷺ : « نزل الحجر الأسود من الجنة ، وهو أشد بياضا من اللبن ، فسودته

---

(١) الحج : ٢٥ - ٢٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٥ - ٢١٨ .

(٢) « لو ما مس الحجر من أنجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا شفى وما على الأرض شىء من الجنة غيره » حديث صحيح ٥٢١٠ صحيح الجامع الصغير ، وفى حديث : « ليأتينى هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه حق » ٥٢٢٢ صحيح الجامع الصغير .

خطايا ابن آدم »[1] ، وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى فى سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : « إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب »[2] .

قال ابن عمر رضى الله عنهما : (استقبل رسول الله – ﷺ – الحجر واستلمه ، ثم وضع شفتيه يبكى طويلا ، فإذا عمر يبكى طويلا . فقال : « يا عمر ، هنا تسكب العبرات »)[3] .

وعن ابن عباس : أن عمر أكب على الركن (المراد هنا : الحجر الأسود) فقال : إنِّى لأعلم أنك حَجَرْ ، ولو لم أر حبيبى ﷺ قَبَّلَكَ واستلمك ما استلمتك ، ولا قبلتك[4] ، ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

وروى البخارى ، ومسلم ، وأبو داود عن عمر رضى الله عنه أنه جاء إلى الحجر فقبله : فقال : (إنِّى أعلم أنك حجر لا تضر ، ولا تنفع ، ولولا إنى رأيت رسول الله – ﷺ – يقبلك ما قبلتك) .

تعليـــق :

وهكذا يتضح لنا أن المسلمين لا يعبدون الحجر الأسود ولا يسجدون أمامه وإنَّما هم يقبلونه ويستلمونه اقتداء برسول الله ﷺ ، وهم يعلمون أنه حجر لا يضر ولا ينفع ، فالقيام بتقبيل الحجر واستلامه متابعة لسنة ، وإن لم يوقف على علل معلومة وأسباب معقولة ، فهى قربى إلَى الله مأخوذة عن رسول الله الذى قال : « خذوا عنى مناسككم » .

---

(١) صحيح الجامع الصغير ، جـ ٦ ، ص ٢٧ ؛ حديث رقم ٦٦٣٢ .

(٢) قال الترمذى موقوفا : والمقام هو مقام إبراهيم عليه السلام .

(٣) رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد (انظر : فقه السنة ، جـ ١ ، ص ٦٩٨ – ٦٩٩) .

(٤) رواه أحمد وغيره بألفاظ مختلفة متقاربة .

والأصل فى العبادة الاتباع ، فالمسلم يستقبل الحجر ويقبله لأن رسول الله ﷺ قد فعل ذلك .

بئـــر زمـــزم :

وقد أنبع الله ماءه لإسماعيل وأمه وللناس عندما نزلت أم إسماعيل وإسماعيل عليهما السلام إلى جوار بيت الله العتيق . وقد روى لنا رسول الله محمد - ﷺ - تلك القصة التى وردت فى صحيح البخارى : (فلما أشرفت (أى أم إسماعيل) على المروة سمعت صوتا ، فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال : بجناحه حتى ظهر الماء [1] فجعلت تحوضه ، وتقول بيدها : هكذا - تغترف من الماء فى سقائها ، وهو يفور بعدما تغترف) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغترف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا » « قال : فشربت ، وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله يبتنى هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مثل الرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله » .

وقد روى السيوطى فى الجامع الصغير حديثا هذا نصه : (ماء زمزم لما شرب له : فإن شربته ، تستشفى به ، شفاك الله ، وإن شربته مستعيذا أعاذك الله ، وإن شربته ، تقطع ظمأك قطعه الله ، وإن شربته ، ليشبعك ، أشبعك الله وهى همزة جبريل ، وسقيا إسماعيل) . [2] .

---

(١) صحيح ابى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ - ١٧٥ ، وفى هذا رد على أعداء الإسلام الذين يزعمون أن زمزم كانت موجودة قبل وصول هاجر ، وأن هاجر هى التى اكتشفتها (تاريخ العرب العام ، ص ٣٠) .

(٢) المعجم المفهرس ، جـ ٤ ، ص ٢٧ ، رواه الترمذي باب الحج ، ورواه أحمد بن حنبل ، كما أورده الألباني فى صحيح الجامع الصغير ، جـ ٥ ، ص ١١٦ بلفظه (ماء زمزم لما شرب له) ، انظر أيضا : تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

مقام إبراهيم عليه السلام :

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾ (١) .

عن جابر رضى الله عنه : أن النبى ﷺ حين قدم مكة طاف بالبيت سبعا ، وأتى المقام فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (٢) ، فصلى خلف المقام ، ثم أتى الحجر فاستلمه . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

والمراد بالمقام الحجر الذى كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة . لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيصفها بيده ، لرفع الجدار ، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة ، وهو واقف عليه . كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة . وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ، ولم يزل هذا معروفا تعرفه العرب في جاهليتها ولهذا قال أبو طالب في قصيدته اللامية المعروفة :

وموطىء إبراهيم فى الصخرة رطبة   على قدميه حافيا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا كما قال عبد الله بن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثهم ، قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم .

وقد تكلفت هذه الأمة شيئا مما تكلفته الأمم قبلها . وقد ذكر من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه ، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى .

وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر ، يمين الداخل من الباب ، فى البقعة المنفصلة هناك .

وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة ،

---

(١) آل عمران : ٩٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ – ٣٨٤ .

(٢) البقرة : ١٢٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٦٨ – ١٧١ .

أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك . ولهذا – والله أعلم – أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف . وثابت أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين ، الذين أمرنا باتباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى أبو بكر وعمر » . وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين »[١] .

الحجـــــر :

وهو جزء من الكعبة ، كما ورد بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ لعائشة « صلّى فى الحجر ، فإن قومك استقصروا (أى تركوا منه جزءا وهو الحجر) من بناء البيت حين بنوه » .

وكانت قريش قد بنت البيت قبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، وأبت أن تُدْخِل فى بنيانها من كَسْبها إلّا طيبا ، لم يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربِا ، ولا مظلمة أحد من الناس [٢] .

ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمَارة عبد الله بن الزبير ، فحينئذ نقضها ابْنُ الزبير إلى الأرض ، وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأدخل فيها الحجر ، وجعل لها بابا شرقيا وبابا غربيا غير ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج ، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك كما قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه [٣] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨١ .

الصفا والمروة :

وقد ورد ذكرهما فى قوله تعالى :

﴿ إنَّ الصفَا والمروَةَ من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أنْ يطَّوف بهمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فإن الله شاكر عليم ﴾(١) .

كما ورد تعريف لها فى حديث لرسول الله ﷺ ، يتحدث فيه عن هاجر والدة إسماعيل عليه السلام وهى تبحث عن الماء :

« فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدا ؟ . فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ؟ . . ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ: فذلك سعى الناس بينهما » (٢) .

كما وَجَّهَ رسول الله ﷺ المسلمينَ للسعى بينهما بقوله : « اسعوا فَإِنَّ الله كتب عليكم السعى » (٣) .

ولكن هل البيت الآن على الهيئة ، التى أقام قواعدها ، إبراهيم عليه السلام ؟

البيت الآن ليس على الهيئة التى كان عليها أيام إبراهيم عليه السلام ، والدليل . قول رسول الله ﷺ : « لولا أن قَوْمَكَ حَديثُو عَهْد بجاهلية ، لأنفقت كنز الكعبة فىَ سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها من الحجر » (٤).

---

(١) البقرة : ١٥٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ – ١٧٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٩٩ .

(٤) صحيح الجامع الصغير ، جـ ٥ ، ص ٧٦ – ٧٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .

« لولا أن الناس حديثو عهدهم بالكفر ، وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنيانه ، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ، ولجعلت لها بابا يدخل الناس منه ، وبابا يخرج منه » [١] .

ومن هذا نخلص أن شكل البيت كما بناه إبراهيم عليه السلام كان على الهيئة التالية : بناء مربع الشكل ، يدخل فيه منطقة الحجر الحالية ، وكان له بابان : بابا شرقيا ، لدخول الناس ، وآخر غربي ، لخروج الناس منه ، وكانت أرضية البيت بمستوى الأرض ، وهو الأساس الذى بنى عليه إبراهيم عليه السلام .

وهذا ما عبر عنه حديث رسول الله ﷺ التالى :

« يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ، لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه ، وألزقته بالأرض ، وجعلت له بابين : بابا شرقيا ، وبابا غربيا ، فبلغت به أساس إبراهيم » [٢] .

والحديث الرابع :

« يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه) ، (لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ، ولهدمت الكعبة ، فألْزَقْتُها بالأرض ، (ثم لبَنَيْتُها على أساس إبراهيم) ، وجعلتُ لها بابين : بابا شرقيا (يدخل الناس منه) وبابا غربيا (يخرجون منه) ، (وألزقتُهَا بالأرض) ، وزدت فيها خمسة أذرع من الحجر ، (وفى رواية : ولأدخلت فيها الحجر) ، فإن قريشا اقتصرتها حيثَ بَنَتْ الكعبة (فإن بدا لقومك من بعدَى أن يبنوه فهلمى لأرِيكِ ما تركوا منه ، فأراها قريبا من سبعة أذرع) » [٣] .

وفى رواية عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (أى الحجر) ، أمن البيت هو ؟ قال : نعم ، قلت : فلم لم يدخلوه فى البيت ؟ قال : إن قومك

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٧٥ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، وزيادته (الفتح الكبير) ، جـ ٦ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الأول الجزء الأول ص ٦٨ – ٦٩ ، حديث رقم ٤٣ .

قصرت بهم النفقة ، قلت : فما شأن بابه مرتفعا ؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا (وفى رواية : تعززا أن لا يدخلها إلّا من أرادوا ، فكان الرجل إذا أراد أن يدخلها يدعونه يرتقى حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط) ، ولولا أن قومك حديث عهدهم فى الجاهلية ، فأخاف أن تنكر قلوبهم ، لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت ، وأن ألزق بابه بالأرض) . فلما ملك ابن الزبير هدمها ، وجعل لها بابين (وفى رواية : فذلك الذى حمل ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه الحجر ، وقد رأيت أساس إبراهيم عليه السلام أحجارا متلاحمة كأسنمة الإبل متلاحكة (١) .

وذهب الألبانى إلى أن من فقه الحديث :

الأول : أن الكعبة المشرفة بحاجة الآن إلى الإصلاحات التى تضمنها الحديث لزوال السبب الذى من أجله ترك رسول الله ﷺ ذلك ، وهو أن تنفر قلوب من كان حديث عهد بشرك فى عهده ﷺ ، وقد نقل ابن بطال عن بعض العلماء أن النفرة التى خشيها رسول الله ﷺ ، أن ينسبوه إلى الانفراد بالفخر دونهم .

ويمكن حصر تلك الإصلاحات فيما يلى :

١ - توسيع الكعبة وبناؤها على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام وذلك بضم نحو سبعة أذرع من الحجر .

٢ - تسوية أرضها بأرض الحرم .

٣ - فتح باب آخر لها من الجهة الغربية .

٤ - جعل البابين منخفضين مع الأرض لتنظيم وتيسير الدخول إليها والخروج منها لكل من شاء (٢) .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الأول ، ص ٦٨ - ٧٠ ، وقد رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو نعيم في المستخرج ، والنسائى ، والترمذى وصححه ، والدارمي ، وابن ماجه ، ومالك والأزرقي في أخبار مكة ، وأحمد .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، جـ ١ من المجلد الأول ، ص ٧١ - ٧٢ .

الثانى : أن القيام بالإصلاح إذا ترتبت عليه مفسدة أكبر منه وجب تأجيله ، ومنه أخذ الفقهاء قاعدتهم المشهورة : دفع المفسدة قبل جلب المصلحة .

مكة فى حماية الله سبحانه وتعالى :

ومكة فى حماية الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فإن الدجال لا يستطيع دخولها ، كما ورد فى حديث محمد ﷺ عن فتنة الدجال : « وأنه لا يبقى شيء فى الأرض إلا وطئه وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة » (١) .

وقال رسول الله ﷺ بعد فتح مكة :

« لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة » (٢) .

كما أن رسول الله ﷺ بين أيضا فضل مكة فى قوله : « الوزن وزن أهل مكة ، والمكيال مكيال أهل المدينة » (٣) .

كما ورد فى فضل البيت أحاديث منها : « من طاف فى هذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة ، لا يضع قدما ، ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه بها خطيئة ، وكتب له بها حسنة » (٤) .

« من حلف فليحلف برب الكعبة » (٥) . وهذا دليل على فضل بيت الله تعالى .

« من قطع سدرة صوب الله رأسه فى النار (يعنى من سدر الحرم) » (٦) .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، جـ ٦ ، ص ٢٧٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، جـ ٦ ، ص ١١٦ .
(٤) صحيح الجامع الصغير ، جـ ٥ ، ص ٣٢٠ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .
(٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الثانى ، ص ١٧٣ ؛ حديث ٦١٤ .

وفى الصحيحين ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » . وقال يوم فتح مكة : « إنَّ هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلَّا فى ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلَّا من عرفها ، ولا يختلى خلاها » ، فقال العباس : يا رسول الله إلا الأذخر فإنَّه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : « إلَّا الأذخُر » . ولهما عن أبى هريرة مثله أو نحوه ، ولهما واللفظ لمسلم أيضا عن أبى شريح العدوى أنه قال : لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : إئذَن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به ، إنه حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يسفك بها دما . أو يعضد بها شجرة ، فإنْ أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها ، فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ، ولم يأذن لكم ، وإنَّما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب » . فقيل لأبى شريح : ما قال لك عمرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فارا بدم ، ولا فارا بجزية .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة » رواه مسلم [1] .

منى (وبها : العقبة – الجمرة الوسطى – الجمرة الصغرى) .

المزدلفة (وبها المشعر الحرام) .

عرفــة (وهى خارج الحرم) .

وقد وردت أسماء بعض هذه المواقع فى القرآن الكريم ، والبعض الآخر فى الحديث الشريف .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٤ .

فقد وردت تسمية المشعر الحرام فى قوله تعالى :

﴿ ليس عليكم جناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً من رَبّكُم ، فإذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ ، فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كُنْتُم من قبله لمن الضالين ﴾ (١) .

يقول الحافظ ابن كثير :

«عرفات موضع الوقوف فى الحج (وإن كانت خارج منطقة الحرم) ، وهى عمدة أفعال الحج . ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح عن الثورى عن بكير عن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحج عرفات – ثلاثا – فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه ﴾» .

وروى الإمام أحمد عن الشعبى عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لآم الطائى قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت : يا رسول الله ، إنِّى جئت من جبل طىء ، أكللت راحلتى ، وأتعبت نفسى ، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه ، فهل لى من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من شهد صلاتنا هذه ، فوقف حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهارا ، فقد تم حجه ، وقضى تفثه » (٢) .

وفى حديث لجابر (٣) عبد الله الطويل : « فلم يزل واقفا بعرفة حتى غربت الشمس ، وبدت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : « أيها الناس ، السكينة السكينة » كلما أتى جبلا من الجبال

---

(١) البقرة : ١٩٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ .
(٢) رواه أحمد وأهل السنن ، وصححه الترمذى ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .
(٣) فى صحيح مسلم ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يُسبح بينهما شيء ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعا الله وكبره وهلله ، ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس (١) .

وفى الحديث وردت روايات نعرف منها بقية مواقع المناسك ، داخل الحرم :

فحينما دعا إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا وأرنا مناسكنا ﴾ فأتاه جبريل ، فأتى به **البيت** فقال : ارفع القواعد . فرفع القواعد ، وأتم البنيان ، ثم أخذ بيده ، فأخرجه ، فانطلق به إلى **الصفا** ، قال : هذا من شعائر الله . ثم انطلق به إلى **المروة** ، فقال : وهذا من شعائر الله . ثم انطلق به نحو **منى** ، فلما كان من **العقبة** إذا إبليس قائم عند الشجرة ، فقال : كبر وارْمِهِ ، فكبر ورماه ، ثم انطلق إبليس فقام عند **الجمرة الوسطى** ، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له : كبر وارْمِهِ ، فكبر ورماه . فذهب الخبيث إبليس ، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحرم شيئا ، فلم يستطع ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به **المشعر الحرام** ، فقال : هذا المشعر الحرام ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به **عرفات** ، قال : قد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاث مرات ، قال : نعم (٢) .

وروى الإمام أحمد أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان عند **المسعى** فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى **جمرة العقبة** ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند **الجمرة الوسطى** فرماه بسبع حصيات ، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض فقال له : يا أبت ، إنّه ليس لي ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه فعالجه فنودى من خلفه :

---

(١) فى صحيح مسلم ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ ، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتتبَّعُ ذلك الضرب من الكباش [1] .

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ١٥ ؛ هذا هو تاريخ حرم الله الآمن ، وبيت الله العتيق ، والكعبة المشرفة ، يا أساتذة التاريخ ، يامن تحسبون على الأمة الإسلامية (انظر محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الإسلام ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠) .

الجزء الثالث

الله سبحانه وتعالى هو الذى حرم مكة

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ (١) .

أى أن مكة صارت حراما شرعا ، وقدرا بتحريم الله لها ، كما ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضّدُ شوكه ، ولا يُنَفَّر صيده ، ولا يلتقط لُقْطَتُه ، إلا من عرَّفها ، ولا يختلى خلاها » (٢) .

وهذا فضل من الله ونعمة ، وذلك ما يؤكده الله سبحانه وتعالى فى مواضع شتى من كتاب الله عز وجل (٣) ، وهذا التحريم لهذا البلد من قبل الله تعالى لا يتعارض مع ما ورد فى حديث محمد ﷺ : « أن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها (٤) .... الخ الحديث » .

فإبراهيم* لا يحرم ولا يحلل إلا بإذن وتوجيه من الله ، فالمعنى هنا ، أن إبراهيم عليه السلام قد حرّمها لتحريم الله لها ، والله أعلم أو كما قال الإمام الحافظ ابن كثير : (إن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه

---

(١) النمل : ٩١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ ، نفس المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٣ وما بعدها ، ص ٣٨٢ – ٣٨٤ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩١ ، ١٩٦ . التوبة : ٣٨ . الإسراء : ١ ، الحج : ٣٥ .

(٤) عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه (انظر مختصر صحيح مسلم ، ص ٢٠٣ ، حديث ٧٧٣) .

* وفى هذا المعنى قال رسول الله ﷺ : « اللهم إن إبراهيم حرّم مكة فجعلها حراما ، وإنى حرمت المدينة ما بين مأزميها (أى طرفيها) أن لا يراق فيه دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف ، اللهم بارك لنا ..... إلى آخر الحديث » رقم ١٢٨٢ صحيح الجامع الصغير .

فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل حراما عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٤) .

ففيه يأمن الإنسان ، وفيه يأمن الطير والحيوان ، بل وفيه يأمن النبات (١) ، وفيه تصان الأمانات وتصان الحرمات ، والله يخلق ما يشاء ويختار . بل وذهب الإمام الحافظ ابن كثير إلى أن لا يجوز حمل السلاح بمكة استناداً إلى حديث رسول الله ﷺ فى صحيح مسلم : « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٤ ، ٣٨٤) .

ولا عجب فى ذلك ، فهذه البقعة من الأرض هى موضع بيت الله العتيق ، بيت الخالق العظيم الجبار القهار ، مالك الملك ، ذى الجلال والإكرام ومن المؤكد أنه قد سبق فى علم الله عز وجل ، ما سيعترى الأرض من ظلمات الظُلْم ، ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، بصورة لا تحدث فى عالم الحيوان ، فجعل الله البيت الحرام ملاذا وأمنا وطمأنينة ، يهرع إليه الإنسان ، فيسكب بين يدى الله العبرات مستنجدا ومستغيثا من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

هذا الحرم الآمن ، يحوى بيت الله العتيق ، الذى جعله الله قبلة للمسلمين . وأوجب على المسلمين أن يتوجهوا إليه كل يوم فى صلواتهم على الأقل كل يوم وليلة خمس مرات ، تماما كما كان يفعل أبوهم إبراهيم عليه السلام ، وكما كان يفعل إسماعيل عليه السلام .

﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (٢) .

ولمّا كان هذا الحرم الآمن .... لمَّا كان هذا البلد الأمين ..... لمّا كان بيت الله العتيق .... حراما لأنَّه بيت الله الواحد الصمد ، الذى جعله الله عتقا من الجبابرة ، فليس لأحد سلطان عليه ، لأن المالك هو الله سبحانه وتعالى ،

---

(١) ففى الحديث عن رسول الله ﷺ : « من قطع سدرة صوب الله رأسه فى النار » (يعنى من سدر الحرم) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الثانى ، ص ١٧٣ ، حديث ٦١٤ .

(٢) البقرة : ١٤٤ .

الذى وضع النظام والشريعة التى يسير عليها أمر البيت ، ولذلك كان من رحمة الله سبحانه وتعالى أن يحدد :

من هم الذين يسمح لهم بدخول بيت الله العتيق وحرمه الآمن ، من هم الذين يمنعون ، ما هى الهيئة التى يكون عليها من يدخلون إلى حرم الله الآمن ، وكيف يتعبدون إليه فى بيته وفى حرمه .

ولمّا كان الله سبحانه وتعالى ، قد أوجب حجه واعتماره لمن استطاع إليه سبيلا ؛

فقد حدد سبحانه وتعالى ، كيف يتعبد العبد إلى ربه داخل بيته ، وماذا يفعل العبد ليصح حجه ، وماذا يفعل لتصحَّ عمرته ، ولمّا كان ذلك هو بيت الله العتيق وحرمه الآمن ، وأن الذى يقصده . إنما يطلب القبول والأجر من الله ، فإنه سبحانه وتعالى لم يجعل لأحد عليه سلطانا ، وهذا هو التحرر الحقيقى ، وهي اللحظة التى يصبح فيها الإنسان المسلم عبدا لله ، لله فقط ، حينما يتحرر من نير العبودية لغير الله عز وجل .

ولما كان ذلك بيت الله العتيق ، فليس لأحد أن يحول بين الناس وبينه ، لأن الله جعله للناس ، سواءاً المقيم فيه ، والطارىء عليه . لا يمنع عنه أحد ولا يملكه أحد : ﴿ والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ (٢) ، هكذا أراد الله سبحانه وتعالى لبيته العتيق وحرمه الآمن ، وهكذا كان وسيكون على مدار تاريخ البشرية ، بإذن الله .

ولمّا كان بيت الله العتيق وحرمه ، هو مكان للعبادة بمفهومها الشامل ، ولذلك فإن كل ما يجرى فيه مقنن ومشرع من الله عز وجل . كما أنه سبحانه وتعالى قد جعل له إماما من المسلمين هو إبراهيم عليه السلام وأوجب الله عليه ، وعلى كل إمام مسلم ، يلى هذا البيت أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفى عنه الشرك ، وأن يحميه من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ،

---

(١) الحج : ٢٥ .

ويغيرون الأساس الذى قام عليه ، ويتوعد من يريد اعوجاجا فى هذا المنهج المستقيم بالعذاب الأليم ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم . وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ (١) .

ولقد كان هذا المنهج الذى شرعه الله فى بيته الحرام سابقا لكل المحاولات البشرية فى إيجاد منطقة حرام ، يلقى الناس فيها السلام ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء .

---

(١) الحج : ٢٥ - ٢٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ - ٢١٥ .

الفصل السادس

الجـزء الأول

إبراهيم عليه السلام يؤذن فى الناس بالحج

« ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام - بانى البيت - إذا فرغ من إقامته ، على الأساس الذى كلف به أن يؤذن فى الناس بالحج ، وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ، ووعده أن يلبى الناس دعوته ، فيتقاطرون على البيت من كل فج ، رجالا ، يسعون على أقدامهم . ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ (١) .

وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم - عليه السلام - إلى اليوم والغد ، وما تزال أفئدة من الناس تهوى إلى البيت الحرام ، وترف إلى رؤيته والطواف به ... الغنى القادر الذى يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله ، والفقير المعدم الذى لا يجد إلا قدميه . وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التى أذن بها إبراهيم - عليه السلام - منذ آلاف الأعوام ...

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته :

﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ (٢) .

والمنافع التى يشهدها الحجيج كثيرة . فالحج موسم ومؤتمر . الحج موسم

---

(١) الحج : ٢٧ ، كل ضامر جهده السير من الجهد والجوع ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) الحج ٢٨ - ٢٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

تجارة وموسم عبادة . والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون . وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة .. أصحاب السلع والتجارة يجدون فى موسم الحج سوقا رائجة ، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء ...... من أطراف الأرض ، ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق فى أرجاء الأرض فى شتى المواسم ، يجتمع كله فى البلد الحرام فى موسم واحد . فهو موسم تجارة ومعرض إنتاج ، وسوق عالمية تقام فى كل عام .

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهى تستشعر قربها من الله فى بيته الحرام . وهى ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد ...

طيف إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه ﴿ ربنا إنّى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] ...

وطيف هاجر ، وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع فى تلك الحرة الملتهبة حول البيت ، وهى تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش ، وهدها الجهد . وأضناها الإشفاق على الطفل .. ثم ترجع فى الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدى الطفل الرضيع الوضيىء . وإذا هى زمزم . ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجدب .

وطيف إبراهيم عليه السلام وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد فى التضحية بفلذة كبده ، ويمضى فى الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد : ﴿ قال يا بنى إنِّى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾[2] فتجيبه الطاعة الراضية فى إسماعيل - عليه السلام - ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله

---

(١) إبراهيم : ٣٧ .
(٢) الصافات : ١٠٢ .

من الصابرين ﴾ (1) .. وإذا رحمة الله تتجلى فى الفداء ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنَّا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ (2) ...

وطيف إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – يرفعان القواعد من البيت فى إنابة وخشوع ﴿ ربنا تقبل منَّا إنَّك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾(3) ...

وتظَلُّ هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء . وإذا هو عبد الله . وإذا عبد المطلب حريصا على الوفاء بالنذر . وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء . وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ، ويضاعف الفداء ، والقدح في كل مرة يخرج على عبد الله ، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هى الدية المعروفة ، فقبل منه الفداء ، فينحر مائة وينجو عبد الله . ينجو ليودع فى رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله – محمد رسول الله ﷺ ثم يموت . فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد العظيم الكريم الكبير .

ثم تتواكب الأطياف والذكريات . من محمد رسول الله ﷺ وهو يدرج فى طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت ... وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفىء الفتنة التى كادت تنشب بين القبائل وهو يصلى ... وهو يطوف .... وهو يخطب ... وهو يعتكف ... وإن خطواته عليه الصلاة والسلام لتنبض حية فى الخاطر ، وتتمثل شاخصة فى الضمير ، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق فى تلك الذكريات ... وخطوات الحشد من صحابته الكرام ، وأطيافهم ، ترف ، وتدف ، فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الآذان وتكاد تراها الأبصار .

---

(1) الصافات : 102

(2) الصافات : 103 – 105 .

(3) البقرة : 128 .

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾[1] .. ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعاً إليه . هذه القبلة التى يتوجهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً ويجدون رايتهم التى يفيئون إليها . راية العقيدة الواحدة التى تتوارى فى ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان .. ويجدون قوتهم التى قد ينسونها حيناً . قوة التجمع والتوحيد والترابط الذى يضم الملايين . الملايين التى لا يقف لها أحد ، لو فاءت إلى رايتها الواحدة التى لا تتعدد ... راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى . وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب . وتنظيم ذلك العالم الإسلامى الواحد الكامل المتكامل مرة فى كل عام . فى ظل الله . بالقرب من بيت الله . وفى ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة . فى أنسب مكان ، وأنسب جو ، وأنسب زمان ...

فذلك إذ يقول الله سبحانه : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ ... كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته ، وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر إبراهيم عليه السلام – أن يؤذن به فى الناس .

– ويمضى السياق يشير إلى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها –

﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾[2] .. وهذه كناية عن نحر الذبائح فى أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده . والقرآن يقدم ذكر الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن الجو جو عبادة ، ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله . ومن ثم فإن أظهر ما يبرز فى عملية

---

(١) الحج : ٧٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٢) الحج : ٢٨ ؛ عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه » قالوا ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج ويخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء رواه أحمد وأبوداود والترمذى ، تفسير القرآن العظيم ،جـ ٣ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة . وكأنما هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته .

والنحر ذكرى لفداء إسماعيل - عليه السلام - فهو ذكرى لآية من آيات الله وطاعة من طاعات عبديه إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فوق ما هو صدقة وقربى لله بإطعام الفقراء . وبهيمة الأنعام هى الإبل والبقر والغنم والمعز .

﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ (١) ..

والأمر بالأكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للإباحة أو للاستحباب . أما الأمر بإطعام البائس والفقير منها فهو أمر للوجوب ، ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمة .

وبالنحر ينتهى الإحرام فيحل للحاج ، حلق شعره ، أو تقصيره ، ونتف شعر الإبط ، وقص الأظافر والاستحمام . مما كان ممنوعا عليه فى فترة الإحرام . وهو الذى يقول عنه ﴿ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ﴾(٢) التى نذروها من الذبائح غير الهدى الذى هو من أركان الحج ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ (٣) .... طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات ، وبه تنتهى شعائر الحج . وهو غير طواف الوداع .

والبيت العتيق هو المسجد الحرام ، أعفاه الله فلم يغلب عليه جبار وأعفاه الله من البلى والدثور ، فما يزال معمورا منذ إبراهيم - عليه السلام - ولن يزال .

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذى قام عليه ... بيت أمر الله خليله إبراهيم - عليه السلام - بإقامته على التوحيد ، وتطهيره من الشرك وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه . ليذكروا اسم الله - لا أسماء الآلهة المدعاة - على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . ويأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير على اسم الله دون سواه .. فهو بيت حرام ، حرمات الله فيه مصونة - وأولها عقيدة التوحيد ،

---

(١) الحج : ٢٨ .
(٢) الحج : ٢٩ .
(٣) الحج : ٢٩ .

وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود - إلى جانب حرمة الدماء ، وحرمة العهود والمواثيق وحرمة الهدنة والسلام .

﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[1] ...

وتعظيم حرمات الله ، يتبعه التحرج من المساس بها . وذلك خير عند الله . خير فى عالم الضمير والمشاعر ، وخير فى عالم الحياة والواقع . فالضمير الذى يتحرج ، هو الضمير الذى يتطهر ، والحياة التي ترعى فيها حرمات الله هى الحياة التى يأمن فيها البشر من البغى والاعتداء ، ويجدون فيها مثابة أمن ، وواحة سلام ، ومنطقة اطمئنان »[2] .

---

(١) الحج : ٣٠ - ٣١ .
(٢) فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٤١٥ .

الجـــزء الثانى

معالم يرسيها نسك الحج فى حياة الأمة المسلمة

١ – والحج بمناسكه رمز على استسلام الإنسان لله إذا بلغه أمر الله بواسطة رسوله ، إذ ينفذ الأمر بصرف النظر عن المعنى العملى لهذا الأمر .
وما الطواف ، والوقوف ، والسعى ، والحلق ، والتقصير وغيرها من أعمال الحج ، إلا رمز استسلام المسلم لأمر الله دون نقاش .

وهو رمز على ارتباط هذه الأمة بأبيها إبراهيم عليه السلام حيث تحيي شعائره ، وتطوف بالبيت الذى بناه .

وهو رمز على وحدة الأمة الإسلامية ، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان ، فوحدة المسلمين نابعة من عقيدتهم ودينهم وشريعتهم .

٢ – والحج مظهر عملى لكثير من قواعد الإسلام :

فهو المظهر العملى للأخوة الإسلامية حيث يحس الإنسان بشكل عملى أنه أخ لكل مسلم فى العالم .
وهو المظهر العملى للمساواة بين الشعوب إذا دخلت فى الإسلام .
وهو المظهر العملى لقوله تعالى : ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ .
فبه يتم أعظم تعارف بين شعوب العالم .
وهو المظهر العملى لخضوع المسلمين جميعا لسلطة سياسة واحدة[1] ...

٣ – والحج مدرسة يرتفع بها المسلم إلى آفاق أرقى وأعلى
يتعلم بها على بذل الجهد مع الصبر « لكن أفضل الجهاد حج مبرور »
ويتعلم بها أن يعيش فى عبادة دائمة .

---

(١) سعيد حوى ، الإسلام ، ج ١ ، ص ١٧٦ – ١٨٠ .

ويتعلم بها أن يكون لطيفا مع المؤمنين رحبا بهم .
ويتعلم بها كبح عواطفه ، وإلجام نزواته .
ويتعلم بها دروسا من الاخشيشان والقسوة .
ويتعلم بها دروس العبودية لله .
ويتعلم بها كيف ينفق فى سبيل الله دون مقابل .
ويتعلم بها كيف يعظم ما عظمه الله ، وكيف يحقر ما حقره الله .
ويتعلم بها أن يعادى من عادى الله ، وأن يوالى من والى الله .

٤ — والحج يحيى فى نفس الإنسان مشاعر كثيرة

يحيى فيه مشاعر العطف على المسلمين ، والانتصار لمأساتهم ، ومشاعر الجيل الإسلامى الأول الذى عاش هنا . وحياة الاضطهاد من أجل العقيدة التى عاناها .
ومشاعر الولاء لله والرسول والمؤمنين .
ومشاعر التوجه الخالص لله .
ومشاعر التجرد عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة .
ومشاعر العزم على فتح صفحة جديدة مع الله .

٥ — وفى كل فعل من أفعال الحج عظات ومعان ، إذا تحسسها الإنسان ولدت معه مفاهيم ربانية أكثر ، وسلوكا إسلاميا أجود ، وتأسيا برسول الله أعلى

مجمع الناس عرفات قبل طواف الركن ، حيث يجتمع فى يومه كل من نوى الحج ، ليبدأ كل الناس منطلقهم منه دفعة واحدة لتعظيم البيت ، ثم يزدلفون منه نحو البيت إلى مزدلفة ، وقد تابوا وأنابوا وأقبلوا على البيت بنفوس أطهر وأكثر شفافية .

ومن مزدلفة ينطلقون إلى منى ، ليرموا الجمار قبل أن يطوفوا معلنين أن عدو الله هو عدوهم ، ويذبحون لله شكرا على أن أباح لهم بهيمة الأنعام ، ويحلقون استعدادا للطواف بنفوس نظيفة ، وثياب نظيفة ، ومنظر حسن .

ثم يطوفون بالبيت العتيق معظمين له ، لتعظيم الله إياه ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ ثم يسعون بين الصفا والمروة فعل أمهم الصالحة ، يوم ابتدأ أمر التمهيد لبناء بيت الله .

ويخرج الإنسان من هذه الرحلة وقد ولد من جديد ، ويرجع مرة ثانية ليرمى الجمار معلنا الشيطان بالعداء أولا وآخرا .

٦ – والحج عودة بالمسلمين إلى مراكز الإسلام الأولى ، دين إبراهيم ومحمد عليهما السلام وجميع الأنبياء والمرسلين . فتقوى فى المسلم رابطته بهذه المراكز ، على أنها وطنه الروحى ، وقبلته الوحيدة ، ووجهة جسمه ، ومنطلق تطلعاته وآماله ، فيرجع منه وقد تغيرت كثير من معالم صورة الحياة لديه . فبعد أن كان ارتباطه بمراكز الإسلام نظريا ، أصبح حقيقة وواقعا ، وحسا وعملا . وفى النصوص التالية إشارات لمن تأمل :

أولا : « قلت لابن عباس يزعم قومك أنه ﷺ سعى بين الصفا والمروة وأنه سنة . قال : صدقوا أن إبراهيم لما أمر بالمناسك اعترض له الشيطان ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع ثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض قال . يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودى من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض ، أقرن ، أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتُنَا نتتبع ذلك الضرب من الكباش . قال . ثم ذهب به جبريل إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حتى ذهب ، ثم ذهب به جبريل إلى منى . قال : هذا منى مناخ الناس ، ثم أتى به جمعا قال : هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب به إلى عرفة هل تدرى لم سميت عرفة ؟ قلت لا ، قال : إن جبريل قال لإبراهيم هل عرفت ؟ قال نعم فمن ثم سميت عرفة . هل تدرى لم كانت التلبية ؟ قلت وكيف كانت ؟ قال إن إبراهيم لما أمر أن يؤذن فى الناس

بالحج . خفضت له الجبال رؤوسها ، ورفعت له القرى فأذن بالناس بالحج) [1] .

ثانيا : روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص :

طوفوا بهذا البيت ، واستلموا هذا الحجر ، فإنهما كانا حجرين أهبطا من الجنة ، فرفع أحدهما ، وسيرفع الآخر ، فإن لم يكن كما قلت ، فمن مر بقبرى فليقل هذا قبر عبد الله بن عمرو الكذاب .

ثالثا : روى عن ابن عمر[2] :

« أن النبى ﷺ أتاه فى مسجد منى رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف ، فقالا : يا رسول الله جئنا نسألك فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه . وإن شئتما أمسك وتسألانى فقالا : أخبرنا يا رسول الله . فقال : للأنصارى – جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم المسجد الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه ، وعن حلقك رأسك ومالك فيه ، وعن طوافك بالبيت بعد ذلك ومالك فيه . فقال : والذى بعثك بالحق لَعن هذا جئت أسالك قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل ، وأما طوافك بين الصفا والمروة كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة . يقول عبادى جاءونى شعثاً وغبرا من كل فج عميق يرجون جنتى . فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر ، وزبد البحر لغفرتها . أفيضوا عبادى مغفورا لكم وعمن شفعتم له . وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات . وأما نحرك فمدخور لك عند ربك . وأما حلاقك رأسك فلك

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبرانى فى الكبير عن أبى الطفيل ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٥ .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، حديث رقم ١٣٧٣ – ٥٨٨ ، وهو حديث حسن .

بكل شعرة حلقتها حسنة وتمحى عنك خطيئة . وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول : اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى » (١) .

رابعا : « عن ابن مسعود رفعه : « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة وما من مؤمن يظل يومه محرما إلا غابت الشمس بذنوبه » (٢) .

خامسا : « عن أبى هريرة رفعه – العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

وفى رواية « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » (٣) .

« وعن أبى هريرة رفعه : – الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم » .

وبعد – فالحج إحياء لأخلد ذكريات ربانية عرفها البشر ، ذكرى الأسرة التى لا تبالى فى الله بشيء ، ذكرى الولد الذى يقدم نفسه قربانا لله ، ذكرى الوالد الذى يقدم ابنه قربانا لله ، ذكرى الأم التى تثق برعاية الله ثقة لا حد لها ، وتطيعه وتطيع سيدها طاعة لا حد لها ، ذكرى التوكل الكامل ، ذكرى العودة الفاتحة إلى البيت الذى أخرج من جواره المستضعفون .

والحج ميزان يعرف به المهتمون بأمر المسلمين ، حال المسلمين ، فالأمة الإسلامية بما فيها من قوة أو خير ، من ضعف أو جهل ، من ذلة أو فقر من عزة أو غنى ، بما فيها من كل شيء ، لا تعرف كما تعرف فى الحج .

والحج معول الهدم الأول ، فى كل حاجز يوضع بين أبناء هذه الأمة ، حاجز القومية ، والوطنية ، والمال والجاه ، والسلطان ، كل هذا يزول بضربة واحدة

---

(١) رواه البزار والطبرانى فى الكبير عن ابن عمر .
(٢) رواه الترمذى والنسائى بلفظه .
(٣) للستة إلا أبو داود .

من معول الحج العظيم .

والحج قبل هذا وبعده ، طريق من طرق الخلاص من براثن الشيطان ، إلى معية الرحمن . فالمسلم الذى يرمى الجمرة قبل طوافه بالبيت ، ثم يطوف بالبيت[1] ، ثم يرجع ليرمى . لاشك أنه تحقق لو تأمل بقوله تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ .

---

(١) وفى الحديث عن رسول الله ﷺ : « من طاف بالبيت سبعا وصلى ركعتين كان كعتق رقبة » حديث صحيح ٦٢٥٥ صحيح الجامع الصغير ، وفى رواية أخرى « من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة لا يضع قدما ولا يدفع أخرى إلا حط الله بها عنه خطيئة ، وكتب له حسنة » حديث صحيح رقم ٦٢٥٦ صحيح الجامع الصغير .

الجـــزء الثالث

الحـــج

الحج عبادة مقننة مشروعة وليست عادة عربية قديمة[1] أخذها محمد ﷺ وجعلها ركنا من أركان الإسلام الخمس .

حكمه : الحج فريضة على كل مسلم ومسلمة استطاع إليه سبيلا لقوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ [2] . وقول رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » [3] .

وهو فرض مرة فى العمر لقوله ﷺ : « الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع » [4] . غير أنه يستحب تكراره كل خمسة أعوام ، لقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل « إن عبدا صححت له جسمه ، ووسعت عليه فى المعيشة يمضى عليه خمسة أعوام لا يفد إلى لمحروم ») [5] .

---

(١) وقد افترى هذه المزاعم المستشرقون اليهود والنصارى ووافقهم عليه الكثير من أبناء العرب والمسلمين . انظر ، تاريخ العرب المطول ، ص ١٨٥ ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ص ٣٨ ؛ ونحن مضطرون إلى إفراد جزء من رسالتنا هذه لموضوع الحج فى مواجهة كتب التاريخ التى زيفت وشوهت هذا الركن من أركان الإسلام .

(٢) آل عمران : ٩٦ .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه أبو داود وأحمد والحاكم وصححه . هذا الجزء منقول عن منهاج المسلم ط ٨ ، ١٣٩٦ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ابن حبان فى صحيحه والبيهقي وتكلم فى سنده .

أما العمرة فهى سنة واجبة لقوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ [١] . وقول رسول الله ﷺ : « حج عن أبيك واعتمر » [٢] . لمن سأله . إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن .

حكمتهمـــا :

من الحكمة فى الحج والعمرة ، تطهير النفس من آثار الذنوب لتصبح أهلا لكرامة الله تعالى فى الدار الآخرة ، لقوله ﷺ : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » [٣] .

شروط وجوبهمـــا :

ويشترط لوجب الحج والعمرة على المسلم الشروط الآتية : الإسلام والعقل والبلوغ والاستطاعة .

الترغيب فى الحج والعمرة والترهيب من تركهما :

وقد رغب الشارع العظيم فى هاتين العبادتين العظيمتين وحث على فعلهما ، ودعا إلى ذلك بأساليب متنوعة ، وأضرب من البيان مختلفة . من ذلك قوله ﷺ « أفضل الأعمال ، إيمان بالله ورسوله ، ثم جهاد فى سبيله ، ثم حج مبرور » [٤] . وقوله ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » [٥] . وقوله : « جهاد الكبير والضعيف والمرأة الحج المبرور » . وقوله : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ، ليس له جزاء إلا الجنة » [٦] .

كما رهب الشارع من ترك الحج والعمرة ، وحذر من التقاعس عن فعلهما بما لا مزيد عليه ، فقال : « من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو منع

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

(٢) رواه أصحاب السنن وصححه الترمذى .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه .

(٦) البخـــارى .

من سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أونصرانيا » [1] .

وقال علي رضي الله عنه : من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا ، وذلك لقوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾[2] .
وقال عمر رضي الله عنه : (لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار ، فينظروا كل من كانت له جدة ولم يحج فيضربوا عليه الجزية ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين)[3] .

أركان الحج والعمرة :

والحج أربعة أركان ، وهى الإحرام ، والطواف ، والسعى والوقوف بعرفة ، فلو سقط منها ركن لبطل الحج .

وللعمرة ثلاثة أركان ، وهى الإحرام والطواف والسعى فلا تتم إلا بها .

الركن الأول :

والركن الأول من أركان الحج والعمرة **الإحرام** وهو نية الدخول فى النسك ، الحج أو العمرة المقارنة للتجرد والتلبية وله واجبات وسنن ومحظورات ، وهى :

(أ) الواجبات :

المراد من الواجبات الأعمال التى لو ترك أحدها لوجب على تاركه دم أو صيام عشرة أيام إن عجز عن الدم ، وواجبات الإحرام ثلاثة ، وهى :

١ - الإحرام من الميقات .
٢ - التجرد من المخيط .
٣ - التلبية .

---

(١) أحمد وأبو يعلى والبيهقي وإن كان ضعيفا ، فإن له متابعات حسن بها كما قال الشوكاني .
(٢) الترمذى ، ووصفه بالغرابة وهو غير مرفوع والموقوف أصح .
(٣) رواه البيهقي وسعيد في سننه .

(ب) السـنن :

وهى الأعمال التى لو تركها المحرم لا يجب عليه فيها دم ، ولكن يفوته بتركها أجر كبير وهى :

١ – الاغتسال للإحرام .

٢ – الإحرام فى رداء وإزار أبيضين نظيفين .

٣ – وقوع الإحرام عقب نافلة أو فريضة .

٤ – تقليم الأظافر ، وقص الشارب ونتف الإبط ، وحلق العانة .

٥ – تكرار التلبية وتجديدها .

٦ – الدعاء والصلاة على النبى ﷺ عقب التلبية .

(جـ) المحظـورات :

هى الأعمال الممنوعة والتى لو فعلها المحرم لوجب عليه فيها فدية دم أو صيام أو إطعام ، وتلك الأعمال هى :

١ – تغطية الرأس بأى غطاء كان .

٢ – حلق الشعر أو قصه وإن قل ، وسواء كان شعر رأسه أو غيره .

٣ – قلم الأظافر ، وسواء كان فى اليدين أو الرجلين .

٤ – مس الطيب .

٥ – لبس المخيط مطلقا .

٦ – قتل صيد البر .

٧ – مقدمات الجماع من قبلة وغيرها .

٨ – عقد النكاح أو خطبة .

٩ – الجمـاع .

حكم هذه المحظورات ، الخمس الأولى من فعل واحدا منها وجبت عليه فدية ، وهى صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين مدا من بر ، أو ذبح شاة ، لقوله تعالى ﴿ فمن كان منكم مريضا أو به أذى

من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ (١) . وأما قتل الصيد ففيه جزاؤه بمثله من النعم (٢) ، لقوله تعالى ﴿ فجزاء مثل (٣) ما قتل من النعم ﴾ . وأما مقدمات الجماع فإن على فاعلها دما ، وهو ذبح شاة ، وأما الجماع يفسد الحج بالمرة ، غير أنه يجب الاستمرار فيه حتى يتم وعلى صاحبه بدنة - أى بعير - فإن لم يجد صام عشرة أيام ، وعليه مع ذلك القضاء من عام آخر لما روى الإمام مالك فى الموطأ أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وأبا هريرة سئلوا عن رجل أصاب أهله وهو محرم بالحج ؟ فقالوا ينفذان ويمضيان لوجههما حتى يقضيا حجهما ، ثم عليهما حج قابل والهدى .

وأما عقد النكاح وخطبته وسائر الذنوب كالغيبة والنميمة وكل ما يدخل تحت لفظ الفسوق ففيه التوبة والاستغفار ، إذ لم يرد عن الشارع وضع كفارة له سوى التوبة والاستغفار .

الركن الثانى وهو الطواف :

الطواف ، هو الدوران حول البيت سبعة أشواط ، وله شروط وسنن وآداب تتوقف حقيقته عليها ، وهى :

(أ) **شروطه** ، وهى :

١ - النية عند الشروع فيه ، إذ الأعمال بالنيات ، فكان لابد للطائف من نية طواف وهى عزم القلب على الطواف تعبدا لله تعالى ، وطاعة له عز وجل .

٢ - الطهارة من الخبث والحدث ، لخبر ، الطواف حول البيت مثل الصلاة .

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

(٢) النعم ، الإبل والبقر والغنم .

(٣) مما عرفت مثليه بقضاء الصحابة ، النعامة حكم فيها ببدنة ، وحمار الوحش وبقر الوحش والضبع والإبل حكم فيها ببقرة ، والغزال بشاة ، والأرنب بعناق ، والحمام بشاة ، وإن لم يوجد للحيوان مثل قوم بدراهم وتصدق بقيمته ، وإن لم يستطع صام عن كل مد يوما .

٣ – ستر العورة ، إذ الطواف كالصلاة ، لقوله ﷺ : « الطواف حول البيت مثل الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه ، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير » [١] . وعليه فمن طاف بغير نية أو طاف وهو محدث أو عليه نجاسة أو طاف وهو مكشوف العورة فطوافه فاسد وعليه إعادته .

٤ – أن يكون الطواف بالبيت داخل المسجد ولو بعد من البيت .

٥ – أن يكون البيت على يسار الطائف .

٦ – أن يكون الطواف سبعة أشواط ، وأن يبدأ بالحجر الأسود ويختمه به لفعل الرسول ﷺ ذلك كما ورد فى الصحيح .

٧ – أن يوالى بين الأشواط ، فلا يفصل بينهما لغير ضرورة ولو فصل بينها وترك الموالاة لغير ضرورة بطل طوافه ووجبت إعادته .

(ب) سننـه ، وهى :

١ – الرمل ، وهو سنة للرجال القادرين دون النساء [٢] ، وحقيقته أن يسارع الطائف فى مشيه مع تقارب خطاه . ولا يسن إلا فى طواف القدوم ، وفى الأشواط الثلاثة الأولى منه فقط .

٢ – الاضطباع ، وهو كشف الضبع [٣] أى الكتف الأيمن ، ولا يسن إلا فى طواف القدوم خاصة ، وللرجال دون النساء ، ويكون فى الأشواط السبعة عامة .

٣ – تقبيل الحجر الأسود عند بدء الطواف إن أمكن وإلا اكتفى بلمسه باليد أو الإشارة عند تعذر ذلك . لفعله عليه الصلاة والسلام ذلك .

---

(١) الترمذى .

(٢) روى مسلم عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ رمل من الحجر الأسود ثلاثا ومشى أربعا .

(٣) روى أحمد أن النبى ﷺ وأصحابه اعتمروا من الجعرانة فاضطبعوا فجعلوا أرديتهم تحت آباطهم وقذفوها على عواتقهم اليسرى .

٤ – قول بسم الله ، والله أكبر . اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك محمد ﷺ عند بدء الشوط الأول .

٥ – الدعاء أثناء الطواف وهو غير محدد ولا معين بل يدعو كل طائف بما يفتح الله عليه غير أنه يسن ختم كل شوط بقول : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

٦ – استلام الركن اليمانى باليد ، وتقبيل الحجر الأسود كلما مر بهما أثناء طوافه لفعله ﷺ ذلك كما ورد فى الصحيح .

٧ – الدعاء بالملتزم عند الفراغ من الطواف . والملتزم هو المكان ما بين باب البيت والحجر الأسود ، لفعل ابن عباس رضى الله عنهما ذلك .

٨ – صلاة ركعتين بعد الفراغ من الطواف خلف مقام إبراهيم يقرأ فيهما بالكافرون والإخلاص بعد الفاتحة ، لقوله تعالى ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (١) .

٩ – الشرب من ماء زمزم والتضلع منه بعد الفراغ من صلاة الركعتين .

١٠ – الرجوع لاستلام الحجر الأسود قبل الخروج إلى المسعى « تنبيه » أدلة جميع ما تقدم عمل الرسول ﷺ المبين فى حجة الوداع .

(ج) آدابـــه ، وهى :

١ – أن يكون الطواف فى خشوع واستحضار قلب ، وشعور بعظمة الله عز وجل ، وفى خوف منه تعالى ، ورغبة فيما لديه .

٢ – أن لا يتكلم الطائف لغير ضرورة ، وإن تكلم تكلم بخير فقط ، لقوله ﷺ :« فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير » .

٣ – أن لا يؤذى أحدا بقول أو فعل ، إذ أذية المسلم محرمة ولا سيما فى بيت الله تعالى .

---

(١) البقرة : ١٢٥ .

٤ – أن يكثر من الذكر والدعاء والصلاة على النبى ﷺ .

الركن الثالث ، السعـى :

السعى ، هو المشى بين الصفا والمروة ذهابا وإيابا بنية التعبد ، وهو ركن الحج والعمرة ، لقوله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ (١) . وقوله ﷺ : « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى » (٢) . وله شروط وسنن وآداب ، وهى :

(أ) شروط السعى ، وهى :

١ – النية ، لقوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات » . فكان لابد من نية التعبد بالسعى طاعة لله وامتثالا لأمره .

٢ – الترتيب بينه وبين الطواف ، بأن يقدم الطوّاف على السعى .

٣ – الموالاة بين أشواطه ، غير أن الفصل اليسير لا يضر ولاسيما إذا كان لضرورة .

٤ – إكمال العد سبعة أشواط ، فلو نقص شوط أو بعض الشوط لم يجزىء ، إذ حقيقته متوقفة على تمام أشواطه .

٥ – وقوعه بعد طواف صحيح ، سواء كان الطواف واجبا أو سنة غير أن الأولى ، أن يكون بعد طواف واجب كطواف القدوم ، أو ركن كطواف الإفاضة .

(ب) سـنن السـعى ، وهى :

١ – الخبب ، وهى سرعة المشى بين الميلين الأخضرين الموضوعين على حافتى الوادى القديم الذى خبت فيه « هاجر » أم إسماعيل عليهما السلام ، وهو سنة للرجال القادرين دون الضعفة والنساء (٣) .

---

(١) البقرة : ١٥٨ .

(٢) ابن ماجة وأحمد والشافعي وقال في الفتح هو حسن لكثرة طرقه .

(٣) روى الشافعي أن عائشة رضي الله عنها رأت نساء يسعين – يسرعن . فقالت أما لكن فينا أسوة ؟ ليس عليكن سعي . أى خبب وسرعة مشي .

٢ – الوقوف على الصفا والمروة للدعاء فوقهما .

٣ – الدعاء على كل من الصفا والمروة فى كل شوط من الأشواط السبعة .

٤ – قول الله أكبر ثلاثا عند الرقى على كل من الصفا والمروة فى كل شوط وكذا قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

٥ – الموالاة بينه وبين الطواف ، بحيث لا يفصل بينهما بدون عذر شرعى .

(جـ) **آداب السعى ، وهى :**

١ – الخروج إليه من باب الصفا تاليا قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾[١] .

٢ – أن يكون الساعى متطهرا .

٣ – أن يسعى ماشيا إن قدر على ذلك بدون مشقة .

٤ – أن يكثر من الذكر[٢] ، والدعاء ، وأن يشتغل بهما دون غيرهما .

٥ – أن يغض بصره عن المحارم ، وأن يكف لسانه عن المآثم .

٦ – أن لا يؤذى أحدا من الساعين أو غيرهم من المارة بأى أذى قول أو فعل .

٧ – استحضاره فى نفسه ذله وفقره وحاجته إلى الله تعالى فى هداية قلبه ، وتزكية نفسه ، وإصلاح حاله .

---

(١) البقرة : ١٥٨ .

(٢) لما روى الترمذى وصححه أنه ﷺ قال : « إنما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله تعالى » .

الركن الرابع ، وهو الوقوف بعرفة :

الوقوف بعرفة ، هو الركن الرابع من أركان الحج ، لقوله ﷺ : « الحج عرفة » (١) . وحقيقته الحضور بالمكان المسمى عرفات ، لحظة فأكثر بنية الوقوف من بعد ظهر يوم تاسع الحجة إلى فجر اليوم العاشر منه . وله واجبات وسنن يتم بها وهى :

(أ) الواجبـــات ، وهى :

١ – الحضور بعرفة يوم تاسع الحجة بعد الزوال إلى غروب الشمس .

٢ – المبيت بمزدلفة بعد الإفاضة من عرفات ليلة عاشر الحجة .

٣ – رمى جمار العقبة يوم النحر .

٤ – الحلق أو التقصير بعد رمى جمرة العقبة يوم النحر .

٥ – المبيت بمنى ثلاث ليال ، وهى ليالى الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر ، أو ليلتين لمن تعجل وهما ليلة الحادى عشر والثاني عشر .

٦ – رمى الجمرات الثلاث بعد زوال كل يوم من أيام التشريق الثلاثة أو الاثنين .

« **تنبيه** » أدلة هذه الواجبات عمله ﷺ وقد قال : « لتأخذوا عني مناسككم » (٢) .

وقال ﷺ : « حجوا كما رأيتمونى أحج » (٣) . وقال عليه الصلاة والسلام : « قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم » (٤) .

---

(١) أحمد والترمذى وهو صحيح .

(٢) مسلم .

(٣) في الصحيح .

(٤) الترمذى وصححه .

(ب) **السـنن ، وهى :**

١ – الخروج إلى (منى) يوم التروية – وهو ثامن الحجة والمبيت بها ليلة التاسع – وعدم الخروج منها إلا بعد طلوع الشمس ، لصلاة خمس صلوات بها .

٢ – وجوده بعد الزوال (بنمرة) وصلاته الظهر والعصر قصرا ، وجمعا مع الإمام .

٣ – إتيانه لموقف (عرفات) بعد أدائه لصلاة الظهر والعصر مع الإمام والاستمرار بالموقف ذاكرا داعيا حتى غروب الشمس .

٤ – تأخير صلاة المغرب إلى أن ينزل بجمع (المزدلفة) فيصلى المغرب والعشاء بها جمع تأخير .

٥ – الوقوف مستقبل القبلة ذاكرا داعيا عند المشعر الحرام (جبل قزح) حتى الإسفار البين .

٦ – الترتيب بين رمى جمرة (العقبة) والنحر والحلق وطواف الزيارة (الإفاضة) .

٧ – أداء طواف الزيارة فى يوم النحر قبل الغروب .

(جـ) **الآداب ، وهـى :**

١ – التوجه من (منى) صباح التاسع إلى (نمرة) بطريق (ضب) لفعله ﷺ ذلك .

٢ – الاغتسال بعد الزوال للوقوف (بعرفة) وهو مشروع حتى للحائض والنفساء .

٣ – الوقوف بموقف رسول الله ﷺ عند الصخرة فى أسفل جبل الرحمة الذى يتوسط (عرفة) .

٤ – الذكر والدعاء والإكثار منهما وهو مستقبل القبلة بالموقف حتى تغرب الشمس .

٥ – كون الإفاضة من (عرفة) على طريق لا على طريق (ضب) الذى أتى منه ، لأن من هديه أن يأتى من طريق ويرجع من طريق آخر .

٦ – السكينة فى السير وعدم الإسراع فيه ، لقوله ﷺ : « يا أيها الناس[1] عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بالإيضاع » . والإيضاع هو الإسراع .

٧ – الإكثار من التلبية[2] فى طريقه إلى (منى) و (عرفات) و (مزدلفة ومنى) إلى أن يشرع فى رمى جمرة العقبة .

٨ – التقاط سبع حصيات من (مزدلفة) لرمى جمرة العقبة .

٩ – الدفع من (مزدلفة) بعد الإسفار وقبل طلوع الشمس .

١٠ – الإسراع فى السير ببطن محسر ، وتحريك الدابة أو دفع السيارة قدر رمية حجر إن لم يخش ضررا .

١١ – رمى جمرة العقبة بين طلوع الشمس والزوال .

١٢ – قول (الله أكبر) مع كل حصاة يرميها .

١٣ – مباشرة ذبح الهدى أو شهوده حال نحره أو ذبحه وقول ، « اللهم هذا منك وإليك ، اللهم تقبل منى ، كما تقبلت من إبراهيم خليلك ، بعد أن يقول (بسم الله والله أكبر) الواجب قولهما .

١٤ – الأكل من الهدى ، إذ كان ﷺ يأكل من كبد أضحيته أو هديه .

١٥ – المشى إلى رمى الجمرات الثلاث أيام التشريق .

١٦ – قول الله أكبر مع كل حصاة . وقول اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا ، وذنبا مغفورا .

١٧ – الوقوف للدعاء مستقبل القبلة بعد رمى الجمرة الأولى والثانية دون

---

(١) البخارى .

(٢) كل هذه الآداب ثابتة في السنة الصحيحة فما من مسألة إلا ولها مأخذها من قول الرسول ﷺ أو فعله .

الثالثة ، لأنه لا دعاء يستحب عندها ، إذ كان ﷺ يرميها وينصرف .

١٨ – رمى جمرة العقبة من بطن الوادى مستقبلا لها جاعلا البيت عن يساره ، و (منى) عن يمينه .

١٩ – قول المنصرف من مكة ، آيبون [1] تائبون ، عابدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إذ كان ﷺ يقول ذلك عند انصرافه منها .

---

(١) بعد أن يقول لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير . والرد الفقهى مأخوذ عن منهاج المسلم تأليف أبى بكر جابر الجزائرى ، ط ٨ ، دار الفكر بيروت ١٢٩٦ .



الفصـــل السابع

دراسة نقدية
لبعض المراجع التى تناولت :

- تاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام .
- تاريـخ الأمة المسلمـة .
- تاريخ الحرم الآمن وبيت الله العتيق ومكة المكرمة .
- تاريخ الاغتصاب اليهودى لأرض الإسلام فى فلسطين .

الجـــزء الأول

(أ) الكتاب الأول :

دراسات تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب ، تأليف د . محمد بيومى مهران (أستاذ التاريخ القديم - كلية الآداب جامعة الإسكندرية) .

(ب) الكتاب الثانى :

دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى .

الجزء الثانى

(ج) الكتاب الثالث :

سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الثانى من القرن العشرين ، تأليف د. حسن صبرى الخولى .



الفصـــل السابــع

الجـــزء الأول

(أ) الكتاب الأول

« دراسات تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب »

شبهـــات
حول تاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم
السلام ، وتاريخ الحـــرم الآمـــن وبيت الله
العتيـــق ومكـــة المكرمـــة ، والـــرد عليهـــا

سؤال : تحدث الأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران فى كتابه « دراسات تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب » ، جـ ١ ، ص ١١٥ عن إبراهيم عليه السلام بقوله (وأول من أعطى المسلمين اسمهم) . واستند فى قوله على آية ٧٨ من سورة الحج [١] . فما رأيكم ؟

الـــرد : بالرجوع إلى نص الآية ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ .

وقد فسر الإمام الحافظ ابن كثير ﴿هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ بقوله قال مجاهـــد : (الله ســـماكم المســـلمين من قبل فى الكـــتب المتقدمـــة وفى الذكر ..) ، وكذا قال غيره (قلت) وهذا هو الصواب ، واستند فى ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ .

على حديث لمحمد رسول الله ﷺ منه « فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله » .

يؤكد هذا المعنى الذى ذهب إليه ابن كثير ، ما تجلى لنا واضحا من خلال دراستنا (١) (إن الدين عند الله الإسلام) وأن الدين الإسلامى قبل آدم ، وأن آدم كان مسلما وكذلك نوح ، وكان هناك عشرة قرون بين آدم ونوح كانت على الإسلام ، وكل هؤلاء يسبقون إبراهيم عليه السلام بزمن لا يعلمه إلا الله ، أى أن المسلمين والإسلام كانوا موجودين قبل إبراهيم بزمن طويل لا يعلمه إلا الله ، وليس إبراهيم عليه السلام هو أول المسلمين ، وليس هو أول من أعطى المسلمين اسمهم كما أورد المؤلف فى كتابه « دراسات تاريخية من القرآن الكريم » وما ذهب إليه المؤلف هو قول ضعيف نقده جل المفسرين(٢) .

سؤال : ورد فى كتاب « دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، جـ ١ ، ص ١١٥ ، عن إبراهيم عليه السلام : (أنه جاعل مكة أقدس بقاع الأرض قاطبة) واستند فى قوله على آية ٩٦ سورة آل عمران . فما رأيكم ؟ .

الـــرد : يقول الله تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ .

ونص الآية وتفسيرها لا يعين أبدا على المعنى الذى ذهب إليه الأستاذ الدكتور لأن الله هو واهب البركة وواهب القداسة وهذا من مقتضى توحيد الربوبية . فالله هو الذى اصطفى إبراهيم عليه السلام واتخذه خليلا ، وهو الذى جعل حرما آمنا مباركا ، وليس إبراهيم (٣) . (ارجع إلى تفسير القرآن العظيم جـ ١ ،

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، القاهرة ١٤٠٥ هـ ؛ وقد رواه النسائى عند تفسيره هذه الآية .

(٢) لأنه يعنى إسقاط وجود الإسلام والمسلمين قبل إبراهيم عليه السلام ، وهذا باطل .

(٣) خاصة وأن الله سبحانه وتعالى قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، كما وإن مكة هى الموضع الذى وضع فيه أول مسجد فى الأرض ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ﴾ ؛ وأول الناس هو آدم عليه السلام ومن ذريته إبراهيم عليه السلام .

ص ٣٨٣ ؛ وصفوة التفاسير ، جـ ١ ، ص ٢١٨ – ٢١٩) .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، جـ ١ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ : (وفى الواقع رغم وجود البيوت الحرام فى بلاد العرب كبيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء .... فإن واحدا من هذه البيوتات لم يجتمع له ما اجتمع لبيت مكة ، ذلك لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال .... ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل .... فمكة إذن بمثابة عبادة وتجارة ، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه ، وهى إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها ، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق ..... أضف إلى ذلك أن مكة كانت عربية لجميع العرب ، ولم تكن كسرية أو قيصرية ... الخ) .

ما رأيكم فى هذا القول فى ضوء رسالتكم عن مكة والحرم الآمن ؟؟

الـــرد : **أولا** – التحريم والتحليل بأمر الله سبحانه وتعالى ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ .

ثانيا – إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم سوى مكة المكرمة ، والرسول محمد ﷺ حرم المدينة بأمر الله ، لأن الرسول ﷺ ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ﴾ .

ثالثا – عدم جواز تحريم مناطق لم يجعلها الله حراما ، ويدخل فى ذلك عدم جواز القول بالحرم الإبراهيمى أو الحرم الجامعى .

رابعا – إن مكة وحرم الله الآمن وبيته العتيق قد حرمها الله سبحانه وتعالى يوم خلق السموات والأرض [١] . بل ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ .

---

(١) بدليل حديث الرسول محمد ﷺ الوارد في الصحيحين ، إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . (انظر السيرة النبوية ، جـ ١ ، دار المعرفة لبنان ١٣٩٦ هـ ، ص ٢٧١ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ .

خامسا – إن مكة ليست للعرب خاصة ولكنها لجميع المسلمين هكذا كانت وهكذا ستكون إن شاء الله ، وإن كانت هنالك فترات كان يتردد عليها ويعيش فيها المشركون ، وإنما هى ليست لهم فى الأصل .

سادسا – يجب على الكاتب أن يصحح العبارات الواردة فى كتابه ، والتى تتعارض مع الحق الذى بينه الله عز وجل .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن (ص ٢٠٩) ما يأتى : (وقد عملت قريش على توفير الأمن فى منطقة مكة .... ولعل هذا هو السبب فى أن تسن قريش الأشهر الحرم فى موسم الحج ، حتى يأمن الناس) . أفيدونا أفادكم الله فى ضوء دراستكم عن هذا الموضوع .

الــرد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [(١)] .

أورد الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم التفسير [(٢)] التالى :

(قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل أخبرنا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب فى حجته فقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى » وشعبان ثم قال : « أى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال :« أليس يوم النحر ؟ » قلنا بلى . ثم قال : « أى شهر هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا بلى ، ثم قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا

---

(١) التوبة : ٣٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٥٣ .

بلى ، قال : « فإن دماءكم وأموالكم - وأحسبه قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » . ورواه البخارى فى التفسير وغيره . ومسلم من حديث أيوب .... الخ » . وذلك يعنى أن تحريم الأشهر الأربع وتحديدها أمر توقيفى من الله عز وجل ، وليس من وضع قريش ، ولذلك نرى أن يحذف الكاتب هذه العبارة ويبدلها برأى الشارع العظيم الذى يملك حق التحليل والتحريم .

سؤال : ورد فى كتاب « دراسات تاريخية من القرآن » ، جـ ١ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، كلام ، فيما يراه الكاتب مشكلة تحديد الأشهر الحرم ؛

ناقش الكاتب (ما يراه مشكلة تحديد الأشهر الحرم فى ضوء ما قاله المستشرق اليهودى فلهاوزن ووصل إلى أن : « الأشهر ذو القعدة وذو الحجة والمحرم » هى أشهر الحج فيما قبل الإسلام ، أما رجب ، فقد كان المكيون فيما يرى البعض يحتفلون فيه بعيد دينى ، ربما كان خاصا بقبائل مضر أو قبائل الحجاز أو بعضها ، وربما كان هذا أصل حرمته ، حتى يتمكن القوم من الذهاب والإياب ، وأداء المناسك فى ظل هدنة دينية مقدسة . انتهى كلام الكاتب ..... أفيدونا أفادكم الله ؟

الــرد : هل الكاتب هنا يريد أن يذهب إلى ما ذهب إليه غيره من المستشرقين اليهود والنصارى من أن محمدا ﷺ جاء فوجد العرب ، عرب الجاهلية ، قد اتفقوا فيما بينهم على تحريم هذه الأشهر الأربع ، فأقرهم على ذلك ؟ فإذا كان يقصد ذلك ، فالأمر جد خطير ، لأن ذلك يعنى أن الرسول محمد ﷺ قد أقر أمرا من أمور الجاهلية وجعله من الشرع فى الإسلام ، أى أن الإسلام من اختراع محمد ﷺ . ولا أظن أن الكاتب يقصد ذلك ، إذن يلزم الدكتور محمد مهران تغيير النص ليقرر فيه الحقائق التالية ؛ كما تبين لنا من خلال القرآن الكريم وحديث الرسول محمد ﷺ وأقوال المفسرين :

١ – إن الله سبحانه وتعالى قد جعل أربعة أشهر حرما ، منذ خلق السموات والأرض ، وليس « قبل الإسلام » [١] .

٢ – إن الرسول محمد ﷺ الذى ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ، قد حدد هذه الأشهر الحرم « ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب » .

٣ – تحذف الفقرة (أما رجب ، فقد كان المكيون فيما يرى البعض – يحتفلون فيه بعيد دينى ، ربما كان خاصا بقبائل مضر أو قبائل الحجاز أو بعضها ، وربما كان هذا أصل حرمته) . لأن الفقرة تعنى أن جعل هذا الشهر حراما هو من اختراع عقل المكيين . بينما هذا أمر توقيفى شرعى من الله عز وجل . فالله سبحانه وتعالى هو الذى حرمها [٢] .

٤ – حذف ما يراه الكاتب مشكلة تحديد الأشهر الحرم فى ضوء ما قاله فلهاوزن ، لأنه لا يجوز لمسلم أن يطلب من يهودى تفسيرا لمشكلة صورها له الخيال فى دين الله عز وجل .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، ص ٢٠٠ – ٢٠١ كلاما بمناسبة – إحضار عمرو بن لحى لصنم من بلاد الشام إلى مكة ووضعه عند الكعبة : (فربما كانت تلك وسيلة من وسائل عمرو هذا ، لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال ، وإيناسهم بها كلما دخلوا إلى الحجاز وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام ، وهم جميعا حريصون على تقريب هذه الشقة ، وحماية روادها من كل قبيل ...الخ) ما أورده الكاتب ، فما رأيكم ؟

الـــرد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ إنَّما الخمْر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ ولذلك فإن أول ما فعله الرسول ﷺ يوم فتح مكة هو تحطيم أصنام الكعبة . قال البخارى : (حدثنا صدقة بن

---

(١) هذه العبارة خاطئة لأن الإسلام مفطور عليه الكون وبه أرسل جميع الرسل عليهم السلام (انظر أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ؛ دار الوفاء للطباعة ، القاهرة .

(٢) الدليل قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ﴾ (التوبة ٣٦) ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٣٥٣ .

الفضل ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن أبى معمر ، عن عبد الله هو ابن مسعود - قال ، دخل رسول الله مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » . وقد رواه مسلم (١) .

وعمرو بن لحى من أصحاب النّار كما أخبر بذلك نبينا محمد ﷺ(٢) ، لأن ما قام به عمل من أعمال الشرك بالله عز وجل .

ونأمل أن يقوم الكاتب ببيان أن هذا العمل من جانب عمرو هو انحراف عن دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، بدلا من سوق المبررات للشرك الذى كان عليه الرجل .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، ص ٢١٠ ، العبارات التالية ، فما رأيكم فى ضوء دراستكم عن هذا الموضوع ؟؟ :

(وخطت قريش خطوة أخرى فى اجتذاب القبائل العربية إلى مكة ، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة ..... (إلى غير ذلك)) .

(وهكذا تمضى الأيام وتزداد مكانة الكعبة عند العرب حتى تصبح آخر الأمر المفخرة القومية والحرم الإلهى عندهم ، ثم تغدو بعد حين من الدهر ، الحوار الوحيد الذى يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة عالية الرأس ، غير مستكينة لأجنبى كائنا من كان .... ولكنهم هنا - فى مكة - عند بيت الله ، فى حرم الله ، يقدسونه جميعا ، لأنه لهم جميعا ، يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم يلوذون به ويأوون إليه ، فكلهم من معبود وعابد فى حمى الكعبة ، لأنهم فى بيت الله ، وشعورهم هنا ، بأنهم عرب لم يماثله شعور قط فى أنحاء الجزيرة العربية) .

---

(١) السيرة النبوية ، جـ ٣ ، ص ٥٧١ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، يقول محمد ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النّار ، كان أول من سيّب السوائب » رواه البخارى ومسلم .

الـــرد : تحوى هذه العبارات عدة مسائل زعمها الكاتب :

أولا : أن نصب أصنام القبائل عند الكعبة ، جذب القبائل العربية إلى مكة .

ثانيا : الكعبة تصبح - آخر الأمر - المفخرة القومية للعرب .

ثالثا : الكعبة هى الحوار الوحيد الذى يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة .

رابعا : إن العرب عند بيت الله فى حرم الله ، يقدسونه جميعا ، لأنه لهم جميعا ، يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم .... فكلهم من معبود وعابد فى حمى الكعبة ، لأنهم فى بيت الله .

انتهى كلام المؤلف وردنا وبالله التوفيق .

إن قلوب العباد ومن بينهم العرب - وأفئدتهم منجذبة بطبيعة خلقها وتكوينها إلى بيت الله الحرام ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ (إبراهيم ٣٧) . ويقول ابن قيم الجوزية فى فضل مكة : (وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد) [١] .

وهذا طبيعى بالنسبة للأنبياء عموما ، والمسلم على وجه الخصوص ، لأن كل مولود مفطور على الإسلام ، كما أن المشرك لا يحرم من لحظات يتطلع إلى بارئه وخالقه ، فالعرب بطبيعة تكوينهم مفطورين على الإسلام ، وهو دين آبائهم وأجدادهم ، من عهد إبراهيم وإسماعيل ، كما أن قلوبهم متعلقة بالبيت الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وهذا الذى كان يغيظ أبرهة الحبشى المسيحى ، إذ إن تعلق العرب رغم شركهم بقبلة أبيهم إبراهيم ، هو الذى دفعه إلى محاولة غزو مكة وهدم الكعبة تصورا منه أنه بهدم قبلة المسلمين يسهل القضاء على وحدتهم .

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ، جـ ١ ، ص ٩ .

إذن فانجذاب القلوب يرجع لهذا السبب الإلهى وليس لأن قريشا نصبت أصنام العرب فى الكعبة ، وكلام الكاتب يحتاج منه أن يبدله ويغيره طبقا لما ورد فى شريعة الله . أما ما أورده الكاتب أن الكعبة أصبحت فى آخر الأمر المفخرة القومية . فالكعبة هى الحرم الإلهى منذ خلق الله السموات والأرض ، وهى منذ البداية وضعت للناس بداية بآدم عليه السلام ، ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ .

أما كونها المفخرة القومية للعرب فهذا ما لم يرد به شرع أو حتى قول مأثور ، فالكعبة هى قبلة للمسلمين جميعا سواء كانوا عربا أو عجما أو غيرهم . وليس لأى جنس الحق فى ادعاء أنه صاحب الفضل فى ذلك ، فللهِ المنة والفضل والإحسان . كما أنها محرمة على المشركين سواء كانوا عربا أو عجما ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ ولا يمكن السماح لمشرك أن تطأ قدمه أرض الحرم حتى لو كان عربيا .

إن هذه الكلمة « المفخرة القومية » (١) معالجة تاريخية من وجهة النظر القومية ، إنها إحياء للنعرة العصبية التى أماتها الإسلام وحذر من إحيائها أو عودتها ، (دعوها فإنها منتنة) ، بل إن رسول الله ﷺ قد تبرأ ممن يدعون إلى القومية فقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية » .

ثالثا : قبل أن نتناول النقطة الثالثة بالرد أود أن أوكد ، أن العرب هم مادة الإسلام ، ومحمد من أشرف القبائل العربية نسبا ، والقرآن نزل باللغة العربية ، والعربية لغة أهل الجنة ، والذى يبغض العرب يبغض محمدا ﷺ ، – ولكن أن تتحول العروبة إلى قومية وعصبية تلهى الناس بعيدا عن إسلامهم ، وتضع إلها جديدا يؤله الناس ، فهذا ما يرفضه الشارع الحكيم كما بينا .

---

(١) أورد الدكتور بيومى مهران ، ص ١١٥ بأن إبراهيم أبو العرب . وهذا تعصب قومى فإبراهيم ليس أبا للعرب كلهم ، وليس أبا للعرب وحدهم ، والقرآن ينص على أبوته للمؤمنين بعده ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ الحج : ٧٨ . ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ﴾ آل عمران : ٦٨ .

ومن الذى يقول بأن الكعبة هى الحوار الوحيد الذى يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة عالية الرأس ؟؟؟ أين الإسلام ؟؟ فهو الذى ألف الله به قلوب بنى البشر جميعا الذين أسلموا سواء أكانوا سمرا أم بيضا ، عربا أو عجما ، كون أن الإنسان المسلم يحس بعبوديته الكاملة لله وهو فى بيته العتيق ، كون أن المسلمين يشعرون بوحدتهم وحقيقة الآصرة التى تربط الأفريقى بالأوربى ، الأمريكى بالأسيوى ، فهذا لأن الله ألف بين قلوبهم ، ولأنهم مسلمون أولا وآخرا . قال تعالى : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (الأنفال ٦٣) .

وعلى الجانب الآخر حينما نقول العرب ، فالعرب لفظة تجمع تحتها العربى اليهودى والعربى النصرانى ، والعربى الدرزى والعربى النصيرى .... إلى غير ذلك .

وليس لهؤلاء جميعا أن يتواجدوا فى بيت الله الحرام أو زيارته ، إنما الذين يحق لهم ذلك هم المسلمون .

رابعا : الفقرة الأخيرة فيها مخالفات عقدية منها : أن الأصنام والأوثان والأرباب وعبادها فى حمى الكعبة لأنهم يلـوذون ببيت الله الحرام ، ويأوون إليه ، لأنه لهم جميعاً .

وهذا ما لم يقل به الشارع الحكيم ، وهو مخالف لشرع الله عز وجل وعلى الكاتب أن يسرع بحذف هذه الفقرة من الكتاب .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ العبارات التالية ، فما رأيكم فيها - (ولعل السبب المباشر فى انتقال إسماعيل وأمه هاجر إلى الحجاز ، وسكناهم هناك ، يرجع إلى القصة المشهورة عن سارة التى أرادت أن تبعد إسماعيل عن أبيه

وفى موضع آخر (ذلك أن العداوة بين المرأتين بدأت حتى قبل أن ترزق هاجر بوليدها ، وذلك حين أذلتها سارة ، فهربت منها إلى الصحراء المقفرة ، ولم

تعد إليها إلا بأمر ملاك الرب الذى بشرها بأنها ستلد ابنا تدعوه إسماعيل) [1] .

ويعتمد الكاتب هنا على سفر التكوين من التوراة .

ويذكر الكاتب أن من بين أسباب رحلة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام إلى الحجاز هى رغبة إبراهيم أن « يربط ولده وبكره بما ارتبط به هو من قبل (أى بعشيرته من العرب) » .

ويذكر أيضا : « وأما إسماعيل – عليه السلام – فقد كان نصف مصرى ، نصف عراقى ، وإسماعيل قد ولد فى الشام وعاش فى الحجاز ، وتزوج من يمنية أو مصرية – طبقا لرواية التوراة – وتخريجا من هذا ، فإن إسماعيل رمز العروبة كلها ، رمز لعروبة العراق ، ورمز لعروبة الشام ، ورمز لعروبة الجزيرة العربية ، ولعل هذا ما يميزه على أخيه إسحاق ، الذى اقتصرت حياته ومماته على جزء من الشام فحسب ، ولم يتصل بقرابة من دم ، أو صلة من نسب ، بغير عشيرة أمه [2] . انتهى كلام د . محمد مهران .

الــــرد – ونستعين بالله فنقول :

١ – ليس لنا رأى فى هذه المسائل إلا مانراه من توجيهات للشارع الحكيم فى هذا الشأن ، لا ندرى كيف سمح الدكتور محمد مهران لنفسه بالاعتماد على التوراة فيما يرويه من أخبار ، رغم علمه بأنها محرفة وغير موثقة المتون ؟؟؟ ولذلك فقد عنون كتابه – « دراسات تاريخية من القرآن الكريم » – فإذا كان رأى الكاتب – كما هو واضح فى كتابه – أنه لابد من الاعتماد على التوراة المحرفة كما فعل فقد كان من الواجب عليه أن يضيف « ومن التوراة » حتى ينطبق العنوان على فحوى الكتاب .

٢ – لماذا معالجة أحداث تاريخ إبراهيم وإسماعيل من وجهة النظر القومية ؟؟

ماذا يعنى إسماعيل – نصف مصرى ، نصف عراقى .... الخ ، وماذا يعنى رمزا لعروبة الجزيرة العربية ؟ ولعل هذا ما يميزه على إسحاق ؟؟ ... ما هذا ؟؟

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٥٧ .

إن الله سبحانه وتعالى ينأى بإبراهيم عليه السلام وذريته أن يكونوا قوميين ، لقد نعتهم الله بصفة الإسلام ، وحول هذا المعنى كانت حركة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ . ولم يقولا أمة عربية أو عجمية ؟؟ . بل إن حركة إبراهيم وإسماعيل برمتها فيها معنى القضاء على الفواصل الإقليمية والقبلية ، فالله لم يجعل إبراهيم إماما للأمة المسلمة إلا لأنه كان مسلما وليس لأنه كان عربيا .

وإذا رددنا الأمر للأصول الكلية فى التصور الإسلامى نجد أن الإسلام يؤكد على معان أساسية ورئيسية يجب على المسلم أن يظهرها ويحرص عليها ، ويتحرك بها ولها ، من هذه المعانى –

وحدة الأصل البشرى ، ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ .

ويقول محمد ﷺ الله : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

ويحذر النبى ﷺ من إثارة النعرة العصبية فيقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية ؛ دعوها فإنها منتنة » .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الإسلام قد آخى بين محمد العربى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى ، وكان ﷺ يقول : « سلمان منا آل البيت » .

وعلى الجانب المقابل نجد أن الإسلام قد قطع الوشيجة ، وشيجة النسب[1] ، التى تربط بين محمد العربى وعمه أبى لهب العربى الكافر .

---

(١) وقد روى رسول الله محمد ﷺ : « إنتسب رجلان على عهد موسى فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة ، فمن أنت لا أم لك ؟ قال أنا فلان بن فلان ابن الإسلام . فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين : أمّا أنت أيها المنتسب إلى تسعة فى النار فأنت عاشرهم ، وأمّا أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة فأنت ثالثهما فى الجنة » حديث صحيح رواه النسائى وأحمد فى مسنده والبيهقى والطبرانى فى الكبير .

بل ونزل قرآن من السماء يتوعد أبا لهب العربى بالنار ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾[1] .

إن الإسلام يرفض أية وشيجة تربط بين الناس إذا انقطعت وشيجة العقيدة - فها هو يقطع العلاقة بين نوح المسلم وابنه الكافر بها - لأنه عمل غير صالح ، ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ﴾[2] .

ويقطع العلاقة بين امرأة نوح ، ونوح المسلم ، وامرأة لوط ، ولوط النبى المسلم ﴿ وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾[3] .

وذلك لانقطاع رباط العقيدة بين نوح وزوجه ، ولوط وزوجه .

وتنقطع العلاقة بين زوجة فرعون المسلمة وفرعون ، لانقطاع وشيجة العقيدة .

﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابْنِ لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ﴾[4] .

بل إن العلاقة قد انقطعت بين إبراهيم المسلم ووالده ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[5] .

إن دراسة وكتابة التاريخ وخاصة تاريخ الأنبياء المسلمين يجب أن تبتعد عن إحياء النعرة العصبية والنعرة القبلية والشعوبية ، لأنها مدمرة « دعوها فإنها منتنة » . هكذا وجهنا نبينا محمد ﷺ .

كما أن معيار المفاضلة ، عند الله عز وجل « هو التقوى » ، وليست العنصرية أو القبلية ، إن الله لا يفضل جنسا على جنس ، ولكن المفاضلة على أساس التقوى ﴿ يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا

---

(١) سورة المسد .
(٢) هود : ٤٦ . (٣) التحريم : ١٠ . (٤) التحريم : ١١ . (٥) التوبة : ١١٤ .

وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [1] .

أما المفاضلة بين نبيين أخوين مسلمين على أساس العرق فهذا ما لم يشرعه الله سبحانه وتعالى . بل هو مرفوض شرعا -

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن إسحاق - عليه السلام - فنعته بأنه ﴿ نبيا من الصالحين ﴾[2] وعن إسماعيل عليه السلام بأنه ﴿ كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾[3] .

وهذه شهادة من الله عز وجل وغيرها كثير مبسوط فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لهذين النبيين الكريمين حتى ولو لم يتصل أى منهما بقرابة من دم ، أو صلة نسب ، بغير عشيرة أمه[4] .

وبالإضافة إلى ماسبق . فإن رحلة إبراهيم عليه السلام لم يرد نص شرعى أو خبر مأثور عن رسول الله ﷺ يشير إلى أنها كانت لربط ولده وبكره بعشيرته من العرب؟ وزَعْمُ المؤلف أن هذا هو السبب الذى يعتبر من باب التفسير المادى للتاريخ فهجرة إبراهيم عليه السلام وزوجه وابنه لم تكن تهدف إلى إيجاد رباط قومى عشيرى ، إنَّما ــ الحقيقة - أن رحلة إسماعيل وإبراهيم كانت موجهة من الله عز وجل إلى مكة المكرمة وحرم الله الآمن لإقامة القواعد من بيت الله العتيق ، والأذان فى الناس بالحج ، وإمامة المسلمين إلى آخر ما بينا فى رسالتنا هذه .

سؤال : ورد فى كتاب دراسات تاريخية من القرآن الفقرة التالية :

(ولعل فى تفكير إبراهيم فى إسكان زوجته المصرية وابنه إسماعيل منها فى منطقة مكة المكرمة هربا من ضرتها العجوز سارة ، لم يكن على الأرجح بمحض الصدفة ، ذلك لأن الصدفة لم يكن لها محل فى تنظيم مثل هذه الخلافات العائلية عند رؤساء العشائر الأقدمين ، وإذا كان إبراهيم قد اختار هذه المنطقة ،

---

(1) الحجرات : ١٣ . (2) ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ (الصافات ١١٢) .
(3) مريم : ٥٤ .
(4) ثم نتساءل ، هل لدى الكاتب بيان بنسب إسحاق عليه السلام ، يؤكد زعمه ، والإجابة مؤكدة أنه لا يملك دليلا ، إلا أن يكون من التوراة المحرفة ، فكيف إذن يجزم بأن إسحاق لم يتصل بغير عشيرة أمه .

فمما لا شك فيه أنه هو شخصيا كانت له صلات قرابة وصلات حلف وذمة مع سكانها وإلا لما اختار هذا المكان القفر البعيد مأوى لزوجته وابنه) .

ويعتمد الدكتور محمد مهران فى تفسيره هذا على كتاب « حسن ظاظا ، الصهيونية العالمية وإسرائيل » (١) فما رأيكم فى ضوء دراستكم ؟

الرد : ولنا على ما أورده الكتاب ملاحظات :

أولا : كان بودنا أن يكون الاعتماد لهذه التفسيرات على القرآن الكريم ، وأقوال النبى محمد ﷺ ، نظرا لأنهما المصدرين الوحيدين الموثقين عن إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، كما أن الدكتور عنون كتابه بدراسات تاريخية من القرآن ، فكان من الواجب عليه الاعتماد على تفسير القرآن الكريم والسنة النبوية ففيهما البيان الشافى الكافى بدلا من الاعتماد على التوراة .

ثانيا : لقد تبين لنا من دراستنا فى هذه الرسالة اعتمادا على القرآن والسنة (٢) :

(أ) إن إبراهيم قد أسكن زوجه هاجر المسلمة وابنه إسماعيل المسلم بجوار الحرم بتوجيه من الله عز وجل . وأن إبراهيم قد ترك ابنه وزوجه عليهما السلام بجوار البيت و « لم يكن به إنس ولا شيء » . ومعهما جراب من تمر وجراب من ماء . أى أنه لم يكن هنالك سكان ولا صلات ولا حلف ولا ذمة ، لأن الجراهمة جاءوا إلى الوادى بعد تفجر زمزم بالماء بأمر الله عز وجل ، وطلبوا من هاجر السماح لهم بالنزول إلى جوارها فسمحت لهم على أن لا يكون لهم حق فى الماء . وقد بينا ذلك بيانا شافيا صفحة ٣٦ ومابعدها من بحثنا هذا .

(ب) إن الحديث عن الأنبياء وأزواجهم وأبنائهم يجب أن يكون

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٢٢ .

(٢) جامع البيان ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٩ – ٢٣٥ ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ .

بأسلوب يتناسب مع كمال النبوة .

(جـ) إن إبراهيم عليه السلام لم يختر جوار البيت الحرام ليكون مأوى لزوجته وابنه ولكنه اختيار الله سبحانه وتعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ .

(د) إن ذلك المكان [1] « القفر البعيد » كما يصفه الكاتب؛ الذى وجه إليه إبراهيم وزوجه وإسماعيل ، يجاور بيت الله العتيق الذى كان يبدو ساعة وصول إبراهيم عليه السلام وزوجه وابنه كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله .

وبهذا يتضح خطأ ما أورده الكتاب من أن إبراهيم (قد اختار هذه المنطقة « مكة المكرمة » لأنه كانت له صلات قرابة وصلات حليف وذمة مع سكانها ، وإلَّا لما اختار هذا المكان القفر البعيد مأوى لزوجته) ، وعليه أن يحذف هذه الفقرة لأنها تعارض الخبر الصحيح الوارد فى السنة والقرآن الكريم الذى يقول ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ .

سؤال : إن دراسات تاريخية من القرآن الكريم تحدثت – عن موطن الخليل وعصره وهجراته وتستعرض ما كتبه المؤرخون اليهود والنصارى ، وما أوردته التوراة المحرفة ، ص ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٧ . فما هو رأيكم فى ضوء دراستكم ؟

الـرد : بالرجوع إلى الكتاب تجد أن الكاتب قد ذكر – أن (إبراهيم عليه السلام قد ترك ميزوبوتاميا فى عصر الغزو الأمورى والعيلامى ، وأن الاضطرابات التى حدثت هى التى اضطرته إلى الرحيل من موطنه الأصلى)[1] .

– (وهكذا ترجع هجرة إبراهيم الخليل إلى الأسباب السياسية والاقتصادية فى نفس الوقت) [2] .

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٢٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

ويستند هذا على رأى الدكتور رشيد الناضورى فى كتابه « المدخل فى التطور التاريخى للفكر الدينى » ص ١٧٣ - ١٧٤ .

وإن كان الأستاذ الدكتور محمد مهران قد خلص فى النهاية إلى القول : (فالرأى عندى أن هجرة إبراهيم لم تكن لأسباب سياسية أو اقتصادية فى الدرجة الأولى ، وإنما كانت دينية) [١] .

وسياق المعنى كما عرض الكاتب الموضوع يأبى إلا أن تكون الأسباب السياسية والاقتصادية وراء هجرة إبراهيم عليه السلام من بلاد العراق ، وإن كان الكاتب قد جعلها من الأسباب التى قد تكون فى المرتبة الثانية أو الثانوية ؟؟

وهذا تفسير مادى لأحداث التاريخ وترديد لما أورده الكاتب نفسه على لسان الكتاب غير المسلمين .

بالإضافة إلى ذلك إن كتاب التطور التاريخى للفكر الدينى ، يتبنى منهج مقارنة الأديان الذى بينا فساده سابقا فى رسالتنا الأولى[٢] .

وأخيرا فإن الدكتور يذكر : « الكتب المقدسة مصادرنا الأصلية عن الخليل عليه السلام » [٣] . فلا أدرى هل التوراة والإنجيل والتلمود من بينها ؟؟ . وإذا كان ذلك محتملا لدى الكاتب ، فلنا أن نقول ، أليست هذه دراسات تاريخية من القرآن حسب عنوان مؤلفه ، ألم يكن من الأولى أن يقتصر الكاتب على الأخذ عن القرآن وحده وخاصة فيما يتصل بأخبار النبى الكريم ؟ ثم كيف سمح الكاتب لنفسه أن يطلق لفظة مقدسة على كتب غير القرآن ؟؟ .

* * *

وفى موضع آخر قدم لنا الأستاذ محمد مهران أخبارا عن رحلة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى أرض الشام اعتمادا على التوراة رغم أن الكتاب الذى ألفه

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٢٨ . (٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، دار الوفاء للطباعة والنشر .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

يحمل عنوان « دراسات تاريخية من القرآن » وينعى فيه على الباحثين عدم اعتمادهم على القرآن ، واعتمادهم على التوراة رغم أنها محرفة غير موثقة السند)[1] .

فقد أورد الكاتب بالنص[2] (وعلى أى حال ، فإن إبراهيم الخليل قد اختار – كما **تشير التوراة** – فى زيارته الأولى لأرض كنعان ، الطريق الشاق والموحش ، إذ كان متجولا فوق التلال نحو الجنوب .... وعندما أراد الخليل أن يستقر فى بادىء الأمر ، فضل أن يكون ذلك فوق هضبة ، ذلك لأنه – بأقواسه ومقاليعه – لم يكن فى حالة تمكنه من أن يخاطر بالصدام مع الكنعانيين ، الذين كانوا بسيوفهم وحرابهم – أكبر من ند له ، ولم يكن إبراهيم بعد مستعدا للمغامرة بعيدا عن الهضاب . وأيا ما كان الأمر ، فقد نزل إبراهيم عند شكيم فى مكان بلوطة مورة ، بين جبل عيبال وجرزيم ، وهناك بنى مذبحا للرب ، وربما قد تحرش به الكنعانيون) .

(ويقيم الخليل ما شاء الله له أن يقيم فى أرض كنعان ثم يرحل عنها صوب أرض النيل الطيبة ، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان ، ومصر كانت دائما وأبدا ، للبدو الكنعانيين – وبخاصة فى أوقات القحط – ملاذهم ، وغالبا منقذهم الوحيد فحيثما كانت الأرض تجف فى أوطانهم ، كانت أرض الكنانة الطيبة تقدم له المأوى والمرعى ، وكان النيل بفيضانه المنتظم يتعهد بذلك) .

وبالإضافة إلى اعتماد الكاتب على التوراة ، فقد اعتمد على

W. Keller, the Bible as History;
unger's Bible Dictionary

ولنا على ما أورده الدكتور عدة ملاحظات :

أولا : هنالك أسباب شرعية تمنعنا عن الأخذ عن التوراة ، (انظر رسالتنا الأولى أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ[3] ، وأيضاً كتابنا جزيرة العرب منذ أقدم العصور ، ص ٣٥ – ٥٦ ، وأيضا تاريخ وحضارة مصر

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٤ – ١٣٥ .
(٣) الرسالة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، القاهرة .

والعراق وبلاد الشام وتركيا وإيران ، ص ١٢ - ١٩) ، لأنه لا يجوز شرعا الاعتماد على التوراة المحرفة فيما يتصل بتاريخ الأنبياء ،

والرسول محمد ﷺ قد نهانا عن سؤال أهل الكتاب (نص الحديث ص ٢٠٧ من بحثنا هذا) .

ثانيا : إن الخبر الذى أورده الكاتب نقلا عن التوراة يغص بكلام (يتعارض وعقيدة المسلم ، كما أنه ينتقص من قدر نبى كريم هو من أولى العزم) .
إن التوراة تذكر أن « الرب » الذى بنى له إبراهيم ، مذبحا هو يهوه ؟؟ ...
وهنا نتساءل هل بنى إبراهيم عليه السلام مذبحا لإله اليهود ؟؟ ... وهل كان إبراهيم يهودياً ؟؟ ... الحمد لله ، لقد بينا ذلك بيانا شافيا . إن إبراهيم كان مسلما موحدا وأقام وابنه إسماعيل عليهما السلام القواعد من بيت الله الحرام . أما كونه أقام مذبحا للإله يهوه فهذا ما لم يرويه خبر صحيح[1] .

ثم نتساءل من الرازق ؟؟ الله ؟ أم الأم ؟ .. من الذى ينقذ ؟ الله ؟ أم غيره ؟ .. من الذى يقدم المأوى والمرعى ؟ الله ؟ أم غيره ؟ .. ومن الذى ينزل الماء ؟ النيل ؟ أم الله ؟ .. إنه الله رب العالمين . ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ . ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

ثم هل كان إبراهيم جبانا ؟ « فهو لم يكن مستعدا للمغامرة » كما زعم الكاتب لأنه لا يملك إلا الأقواس والمقاليع في مواجهة السيوف والحراب . سبحان الله (لو كان ما أوردته التوراة صحيحا ، هل نسى كتابها موقف إبراهيم

---

(١) بالرغم من أن مُؤَلَّف الكاتب يحمل عنوان دراسات تاريخية من القرآن ، فالقرآن وتفسيره الصحيح لا يشكل سوى نسبة ضئلة جدا فى صفحات المؤلف بينما تغطى أقوال التوراة وأقوال المستشرقين غالب صفحات الكتاب ، فلماذا لم يعنون الكاتب كتابه « دراسات تاريخية من القرآن والتوراة والإنجيل وكتابات المستشرقين اليهود والنصارى » .

بمفرده في مواجهة قومه الذين يملكون كل مقومات القوة المادية وقد حطم أصنامهم وسفه أحلامهم ، من الذى نجاه من كيد القوم ؟ من الذى نجاه من النار ؟ من الذى نجاه إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ؟ .. إنه الله رب العالمين ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾) .

ثالثا : ما أهمية هذه المعلومة التي أوردتها التوراة وخاض فيها الكتاب غير المسلمين ؟ .. ما هو العمل الذى يترتب عليها ؟ .. وخاصة أن الله قد أغنانا بكتابه وسنة نبيه عن أن نتسول أخبار رسلنا وأنبيائنا على موائد اليهود والنصارى .

وفى موضع آخر يستمر الدكتور مهران فى سرد أخبار إبراهيم فيقول : (وهكذا اعتزم إبراهيم الهجرة إلى مصر - كما يقول يوسف بن متى - ليصيب من خيراتها ، ويسمع ما يقوله أحبارها فى أمر الله ، وفي نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله ، أو يرى في عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم [1] إليها) .

ولنا على هذا الزعم ملاحظة ، إن الكتاب هنا يجعل إبراهيم عليه السلام النبى المسلم الذى كان من الموقنين بسلامة دينه وعقيدته - كما هو واضح من أخباره المبسوطة فى كتاب الله - متشككا في إسلامه وعقيدته . وهذا افتراء على نبى الله ، ويتعارض مع الخبر الصحيح عن سلامة دين وعقيدة إبراهيم عليه السلام ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾[2] .

* * *

ويستمر « كتاب دراسات تاريخية » ، فى عرضه لأخبار إبراهيم عليه السلام ورحلته إلى مصر ، ويكفى أن نشير إلى ما يأتي ، إن **الكتاب وهو يعالج** قصة محاولة الاعتداء على سارة زوج إبراهيم عليه السلام ردد أخبارا غير صحيحة

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٣٥ .

(٢) البقرة : ١٣١ .

تعارض الأخبار الواردة فى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ ، وهذا أمر يجب أن يراجع الكاتب نفسه فيه ، وأن يصدر نشرة يرجع فيها عما كتبه فى هذا الشأن . لأنه بعرضه يكذب أخبارا واردة فى صحيح البخارى .

فالكاتب يقول – مثلا – ، ص ١٣٧ من كتابه (إن التاريخ ما حدثنا أن الفراعين كانوا يأخذون النساء من أهليهم غصبا) .

وهذا الكلام يدحضه حديث محمد ﷺ الوارد فى صحيح البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٠ ، و جـ ٩ ، ص ٢٨ (أنظر ، جزيرة العرب منذ أقدم العصور ، ص ٢٤٧ ، ورسالتنا التى بين يديك ، ص ٢٥٣) .

وإذا كانت سارة قد أخذت إلى جبار مصر ، فهل ذلك يعنى في تصور الكاتب أنها قد ذهبت برجليها ؟ وهى العفيفة الطاهرة المسلمة التقية زوجة النبى المسلم ، إن المسلم يجب أن يغضب لله ، ولا يغضب لفرعونيته على حساب إسلامه .

والكاتب الدكتور محمد مهران يصور رحلة إبراهيم وسارة إلى أرض مصر حينما كانت سارة عجوز . وهذا يدحضه ويدفعه حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه : « .... إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس » . فسارة كما أورد الحديث كانت امرأة من أحسن الناس [١] .

والكاتب يقول أيضا ، (على أن الأمر الذى يدعو إلى العجب حقا ، ادعاء الرواة أن إبراهيم قال عن سارة : إنها أختى ، لأنه لا يوجد على ظهر الأرض غيرهما من المؤمنين ، والأعجب من ذلك أن تأتى الرواية من كبار المفسرين ، والقرآن الكريم لا يشير إلى ذلك .... الخ) ما أورده الكاتب ، ص ١٣٧ – ١٣٨ من كتابه .

---

(١) ارجع إلى ص ٢٥٣ ، من رسالتنا هذه .

والـــرد :

وردنا لا ندرى هل يقر الكاتب معنا أن الحديث والسنة النبوية هما المصدر الثاني لهذا الدين ، وأنها مكملة لأن النبى محمداً ﷺ ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلّا وحى يوحى ، علَّمه شديد القوى ﴾ وإذا أقرنا الكاتب على ذلك ، فلماذا يدفع ويرفض أخبارا حقيقية وردت في صحيح البخارى ، وحاول أن ينال من المؤرخين والمفسرين المسلمين لأنهم قالوا بها واعتمدوا عليها ؟ .. ونسي أن الأخبار التى أوردها البخارى في هذا الشأن صحيحة مائة في المائة بإجماع أهل العلم وفيها أن إبراهيم عليه السلام قال عن سارة أنها أخته ، أى أخته في الله .. وبهذا قال المفسرون المسلمون . فما رأى الكاتب الدكتور محمد بيومى مهران ؟ إن انكار أخبار صحيحة واردة فى السنة أمر خطير .

ملاحظات أخرى على كتاب دراسات تاريخية :

ولقد قمنا بقراءة ما أورده كتاب « دراسات تاريخية من القرآن الكريم » وقد لاحظنا ما يأتي :

- عن رحلة إبراهيم عليه السلام إلى بلاد الحجاز ، أورد الكتاب كلاما عجيبا ، بعضه نقلا عن كتاب العقاد « إبراهيم أبو الأنبياء » وكتاب « إسرائيل » للمؤلف ، من هذا الكلام:

* (إن إبراهيم عليه السلام قد توجه إلى الحجاز لأنه لم يكن صاحب وطن عند بيت المقدس ، سواء أكان وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى)[1] .

* « المتواتر من روايات التوراة » لا أدرى هل هناك روايات متواترة للتوراة ؟ إنه لم يجد هناك مدفنا لزوجه فاشتراه من عفرون ..

* (أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها للأحبار , إيل عليون) وكان

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٣٩ – ١٤٠ .

إبراهيم يقدم العشر أيضا لأولئك الأحبار) ، وهل كان إبراهيم يهوديا ؟ .. وهل يعقل أن إبراهيم الحنيف المسلم يقدم عشورا لأحبار اليهود ؟ ما هذا ؟ .

* « هناك أسباب دينية غير الأسباب الدنيوية توحي إليه أن يجرب المسير إلى الجنوب ، حيث يستطيع أن يبنى لعبادة الله هيكلا » هل هذا يعقل ؟ .. ألم يكن توجه إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز بتوجيه من الله عز وجل ؟ .
* إن الأهمية الدينية لبيت المقدس جاءت متأخرة بعد عصر إبراهيم وموسى بزمن طويل ، حتى استولى داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م) على المدينة المقدسة في العام الثامن من حكمه ثم اتخذها عاصمة له ثم جاء من بعده ولده سليمان (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) فأقام فيها هيكله المشهور » .

وهذا الكلام الذى زعم الكاتب لا أصل له في المصادر الإسلامية الموثقة ؛ فالقرآن الكريم قد أكد لنا أن الله قد نجى إبراهيم ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ وهي بيت المقدس ، أى أنها كانت مباركة قبل عهد إبراهيم وموسى عليهما السلام .

ولا ندرى عن أى هيكل يتحدث الكاتب ، هل الهيكل الذى تزعم التوراة أن سليمان النبي اليهودى ؟ قد بناه لإله اليهود يهوه ؟ وهو أسفل المسجد الأقصى ؟ وهذا ما لم يرد به قرآن أو سنة أو نص تاريخي صحيح فداود نبي مسلم وسليمان نبي مسلم [١] عليهما السلام ، ولم يقوما ببناء ليهوه ، وإنما قد جددا بناء المسجد الأقصى ، كما أنه من الثابت شرعيا أن داود عليه السلام حينما دخل بيت المقدس ومكَّنَ الله له لم يكن ملكا ، وإنَّما كان جنديا من جنود المسلمين ، فلما فتح الله على يديه ، مكن له وآتاه الملك والحكمة . ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ [٢] .

---

(١) ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا عَليَّ وأتوني مسلمين ﴾ .
(٢) البقرة : آية ٢٥١ .

إن القول ببناء الهيكل على يد سليمان ، لا يخدم الآن إلا قضية اليهود الذين يريدون أن يهدموا المسجد الأقصى ويقيمون على أنقاضه هيكلهم المزعوم ، وساعتها سينهض من بين صفوف المسلمين من يقول دعوهم فإن كتب التاريخ قد علمتنا أن لهم هيكلا تحت المسجد الأقصى (١) .

* * *

شبهات أخرى وردت في كتاب دراسات تاريخية من القرآن ، تأليف الدكتور محمد بيومي مهران :

الشبهة الأولى : « فإبراهيم الذى خرج من العراق فارا من أهله إلى فلسطين » (٢) .

الــرد : وهنا نتساءل من الذى ألقي في النار ؟ .. أليس هو إبراهيم عليه السلام أم غيره ؟ .. ومن الذى نجّاه إلى أرض الإسراء ؟ الله ؟ أم أنه الفرار ؟ .. كثير أن يتحدث عن نبي من أولي العزم بهذه الطريقة . فالله يقول ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ ، أى أنه لم يكن فرارا .

الشبهة الثانية : « بل إن التراث الديني اليهودى ليزخر بأدلة لا تقبل الشك ، على أن اليهود الذين رافقوا موسى إلى سيناء ، لم يكونوا كفؤا لعبء حمل التوحيد وفلسفته التجريدية (٣) ... الخ » . ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية .

الــرد : إن اليهودية كفر ، وموسى لم يكن يهوديا ولكن كان حنيفا مسلما ، والذين آمنوا معه كانوا مسلمين ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ (٤) .

---

(١) ارجع إلى كتاب قصة الحضارة ، جـ ٢ ، المجلد الأول ، ط ٣ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ .
(٢) دراسات تاريخية من القرآن ، ص ١٤١ .
(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٢ .
(٤) يونس : ٨٤ .

وقد لقي السحرة الذين أسلموا مع موسى ، ربَّهم شهداء بعد أن أسلموا بين يدى الفرعون ﴿ آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ﴾ (١) .

ولا ندرى ماذا يقصد الكاتب بالفلسفة التجريدية للتوحيد ؟ .. الإسلام ليس فيه فلسفة ، لأن الاشتغال بالفلسفة اليونانية يناهض عقيدة المسلم وقد حرمها علماء السلف (٢) .

وإذا كان من الثابت شرعا أن أتباع موسى كانوا – مسلمين – فهل يمكن القول بأن الإسلام لم يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية ؟ .. نأمل أن يراجع الكاتب ما كتب ويقوم بحذف هذه العبارات طاعة لله ورسوله لأنها تتعارض والاعتقاد الصحيح .

* * *

الشبهة الثالثة : يتحدث الكتاب عن بني إسرائيل فيقول : « لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعى الإيمان بدعوة موسى ، إما خوفا من فرعون ، وإما خوفا من شيوخ بني إسرائيل ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإهم أن يفتنهم ﴾ ، باعتبار الضمير في « وملإهم » راجعا إلى قوم موسى .

الـرد : والآية إنما تؤكد أن هناك أشخاصاً « قوما » آمنوا بدعوة موسى عليه السلام ، كما يقول ابن كثير ، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام (٣) . وذلك عكس ما ذهب إليه الكاتب من تفسير آية من كتاب الله عز وجل ،

---

(١) الأعراف : ١٢١ – ١٢٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢) الفتاوى الكبرى ، جـ ٤ ، ص ٢٧ ، منهج الاعتدال ؛ شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٣٣ ؛ تهافت الفلاسفة لأبى حامد الغزالى ؛ تلبيس إبليس لابن الجوزى البغدادى ، ص ٤٥ ومابعدها .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ .

على غير مراد الشرع الحكيم ، والأصل الرجوع إلى كتب التفسير ، أم أن كبار المفسرين مشكوك فيهم ، كما أشار الكاتب إلى ذلك صراحة ص ١٣٧ ، ١٣٨ من كتابه .

الشبهة الرابعة : وهكذا بقي بنو إسرائيل - كالعرب تماما - يعبدون الأصنام إلى ما بعد إبراهيم بمئات السنين ، ومن هنا فإن عبادة الأوثان لا تدل على انتماء العرب أو اليهود إلى إبراهيم [١] .

الـــرد : إن الذين يعبدون الأوثان لا ينتمون بيقين ، من قريب أو من بعيد إلى إبراهيم عليه السلام ، سواء كانوا يهودا أو عربا . فالوشيجة التي بينهم وبينه قد انقطعت بمجرد مروقهم عن دين الله عز وجل وهو الإسلام ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ .

الشبهة الخامسة : ولا ندرى ما السبب الذى دفع الأستاذ الدكتور محمد إلى إفراد فصل تحت عنوان « قصة الذبيح والتضحية البشرية » [٢] .

وبعد أن يبين أن التضحية البشرية كانت عادة لدى شعوب الشرق الأدنى القديم ، يعلق قائلا : (وهنا - فيما يبدو لى - تظهر أهمية قصة الذبيح عليه السلام ، فى التاريخ الإنسانى ، إذ كتبت عليه ضريبة الفداء ، وهى فى مفترق الطرق بين الهمجية التى كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية ، وبين الإنسانية المهذبة التى لا تأبى الفداء بالحياة ، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان ، ولما كان الأنبياء هم الأسوة الحسنة التى يحتذى حذوها كافة الناس وخاصتهم ، فإن الله جلت قدرته أراد أن يجعل من خليله قدوة حسنة ومثلا أعلى ، لأرفع صور الإيمان وأجلها فى تاريخ الإنسانية ، وفى الوقت ذاته ، فإنه - جل وعلا - قد أعطى الإنسانية نفسها ، مثلا حيا فى إبراهيم وابنه إسماعيل ، تمهيدا لمنع هذه العادة البربرية ، فيأمره بذبح ولده ، ثم يفتديه ، بكبش عظيم ، ومن هنا كان ارتباط هذا الحادث ارتباطا وثيقا بظاهرة التضحية البشرية ، التى كانت تمارس فى بعض

---

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ص ١٤٤ .
(٢) دراسات تاريخية في القرآن ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

مجتمعات الشرق الأدنى القديم ، والحث على استبدال ذلك التقليد بالتضحية الحيوانية) .

« ومن عجب أن ذرية إبراهيم من إسحاق ، لم يكونوا على مستوى الدعوة ، فبقيت فيهم عادة التضحية البشرية إلى ما بعد أيام موسى) .

الـرد : ما هو وجه المقارنة والصلة بين الهمجية التى كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية ، وبين ابتلاء الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام بذبح ولده وفلذة كبده ؟

وهل لو فرض وذبح إبراهيم عليه السلام ابنه امتثالا لأمر ربه واستسلاما ، فهل هذا يعتبر همجية ؟ أو ضريبة فداء ؟؟

وهل نحن أعلم أم الله ؟ وهل حينما أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ، كان أدنى – وحاشا لله أن يكون كـذلك – وأقـل مرتبة من الإنسانية المهذبة التى تتورع عن ذبح الإنسان ؟ .

وهل كان الله سبحانه وتعالى يضرب هذا المثل ليعلم البشرية ألا تبخل بشيىء عن الله عز وجل ، وأن لا تستبقى شيئا عن الله حتى لو كانت النفس أو الولد أو المال ، أم أن قصد الشارع العظيم منع هذه العادة البربرية ؟ كما يزعم كتاب دراسات تاريخية ؟؟ وهنا نرى – وبالله التوفيق :

أولا : ما كان للكاتب أن يعقد هذه المقارنة مطلقا ، لأنها تخالف الشرع ، فلا وجه للمقارنة بين أمر الشارع الحكيم لإبراهيم بذبح ابنه ، وبين الإنسانية الهمجية التى لا تتورع عن الذبائح البشرية .

ثانيا : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ﴾ ، ومن هنا فالمؤمن قد باع نفسه وماله لله وأمضى العقد مع الله ، فحينما يندبه الله عز وجل أن يجاهد فى سبيله أو يقاتل فليس عليه إلا أن يطيع .

والإسلام يعنى الاستسلام لله عز وجل ، فى جميع جنبات الحياة ،

فحينما يطلب الله عز وجل من إنسان أن يفعل شيئا لا يملك أن يتردد .
وإبراهيم عليه السلام ﴿ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ .
لقد أسلم حقيقة ، ولكنه كان لابد وأن يبرهن على صدق إسلامه فكان الاختبار فى أعز شيء لديه كما بينا (ص ٦٩) .

ثالثا : إن ما وقع من استسلام إبراهيم وابنه لأمر الله يؤكد أن الهدف الربانى قد تحقق ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ . أى أنه لم يبق إلا إراقة الدم ، والله غنى عن إراقة دماء عباده ، والدم يسد مسده أى دم حتى ولو كان دم كبش .

رابعا : إن الشارع الحكيم بهذا المثل وبهذا الإسلام يعلمنا كيفية الاستسلام لله عز وجل ، ويريد أن يبتلى نبيه ليرفع درجته .

خامسا : إن الله قد حرم قتل النفس البشرية فقال ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ .

كما أن أحد أبناء آدم عَلَيْه كِفْل من كل نفس بشرية تقتل ، لأنه كان أول من سن القتل كما ورد بذلك الحديث الصحيح [1] .

(ب) الكتاب الثانى : دائرة معارف القرن العشرين :

سؤال : ورد فى دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى « العبارات التالية عن إبراهيم عليه السلام فما رأيكم فى ضوء دراستكم ؟ .

(هذا ما نقلناه عن الكتب القديمة ، ويظهر لنا أن فى مثل هذه الروايات ضعفا بل أن أكثر أمثال هذه الروايات مخلوطة بالخرافات ، فلا يعقل أن نبيا جليلا من أولى العزم كإبراهيم يلقى بامرأته وابنه فى واد قاحل لا زرع فيه ولا ماء ،

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٤١ – ٤٦ .

ويلوح لنا أن إبراهيم لم يطوح بامرأته وولده إلى هذا الحد بل انتقل بامرأته الثانية إلى جهات مكة لغرض من الأغراض بدليل أنه كان زار بلاد العرب مراراً) [1] .

الـرد : إن الخبر الصحيح الوارد فى صحيح البخارى [2] عن رسول الله ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى ، يؤكد أن إبراهيم عليه السلام قد أُمر من الله سبحانه وتعالى أن ينزل زوجه هاجر وطفله إسماعيل بذلك الوادى القاحل (ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ، وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء) [3] . فهل بعد ذلك يمكن لأحد أن يزعم أن هذه الرواية مخلوطة بالخرافات ؟ .. وأنها ضعيفة ؟

أرى أن يراجع الكاتب نفسه وكتابه لأنه يشكك فى السنة ، والتشكيك فى السنة يعتبر تشكيك فى الدين الإسلامى ، والذى يشكك فى الدين الإسلامى يجب أن يراجع نفسه ويصحح عقيدته . إن المسئول عن طبع دائرة معارف القرن العشرين يجب عليه أن يحذف هذه الفقرة أو يصححها طبقا للحديث .

دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى ، المجلد الرابع ، ط ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٥٩٤ وما بعدها تحت لفظة « زمزم »

(يزعم الكاتب أن زمزم) حفرها إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل (أى أن الكاتب يتجاهل حديث رسول الله ﷺ الذى يفيد بأن بئر زمزم قد نبع نتيجة لضربة من جناح جبريل بأمر من الله عز وجل ، من تحت قدمى إسماعيل عليه السلام) .

وعن ماء زمزم الذى قال رسول الله محمد ﷺ : « أنه لما شرب له » يقول الكاتب ، ص ٥٩٥ ، وحقيقة فإنه ماء قلوى تكثر فيه الصودا والكلور والجير

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد الأول ، ص ٣٤٣ ، وص ٣٦٠ – ٣٦٢ .

(٢) صحيح البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ – ١٧٥ ، جزيرة العرب منذ أقدم العصور ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ .

(٣) انظر تفاصيل المسألة في رسالتنا التي بين يديك ، ص ١١٠ .

وحامض الكبريتيك وحمض الأزوتيك والبوتاسا ، مما يجعله شبيها بالمياه المعدنية الصحية فى تأثيرها ويفيد قليله ولا تخلو الكثرة منه من الضرر وخصوصا فى غير موسم الحج حيث تكون بئرها مهجورة : لأن أهل مكة لا يشربون منها لملوحتها ، وفى هذه الحالة يزيد فيها الحامض الأزويتك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب .

وفى ص ٥٩٧ يقول الكاتب : (وليس الاعتقاد فى مثل ماء زمزم خاصا بالمسلمين فإن لليهود اعتقادا عظيما فى نهر الكنج وبحيرة مادن ، والنصارى يعتقدون فى نهر الأردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلو متر إلى شرق بيت المقدس ويسمونه نهرالشريعة .. إلى غير) ذلك . وهكذا يسوى الكاتب وهو من أبناء المسلمين بين اعتقاد أهل التوحيد وبين اعتقاد أهل الشرك والكفر .

وردّنا على الكاتب ، ورد فى رسالتنا هذه ، ومنه يمكن التأكد أن المسلمين لا يقدسون ماء زمزم ولكنهم يوقنون بأن الله سبحانه وتعالى قد وضع فيه خاصية ليست لغيره ، وأن الذى أخبر بذلك هو المعصوم ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى (انظر ص ١١٠ من كتابنا الذى بين يديك) .

الجزء الثانى : الكتاب الثالث

سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د. حسن صبر الخولى ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٣

شبهات

حول اغتصاب اليهود لأرض فلسطين « التى بارك الله فيها للعالمين » والتى كان يسكنها إبراهيم عليه السلام وذريته منذ أقدم الدهور

سؤال : ورد فى كتاب سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين (١) ، تحت عنوان : « ذرائع الصهيونية فى فلسطين » :

(يقرر الصهيونيون أن فلسطين هى الأرض التى وعدهم الله بها تأسيسا على ما جاء فى التوراة أن الله – سبحانه وتعالى – قد وعد إبراهيم – عليه السلام – وذريته من بعده أن يعطيه فلسطين لإنشاء دولة فيها « لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » (٢) . ونحن نسلم بما جاء فى التوراة على أساس أنه كتاب مقدس من عند الله ، ولكننا لا نستطيع أن نجارى اليهود فى تفسيرهم التعسفى ، لأن الوعد الإلهى ليس موجها إلى اليهود وحدهم وإنما هو وعد لإبراهيم وذريته : إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، يتساوى فى ذلك الحق ، إسحاق جد اليهود وإسماعيل جد العرب . وعلى ذلك فالحق فى فلسطين ليس مقصورا على اليهود وإنما هو لذرية إبراهيم على الإطلاق ومن هذه الذرية العرب واليهود . وكان إسماعيل أول أولاده بعد ما طلبت منه زوجته سارة أن يدخل بجاريتها هاجر حتى يكون له منها ذرية بعد أن ظلت عقيما . وبعد أن نيف إسماعيل على الثالثة عشرة من عمره ، رزق إبراهيم من زوجته العقيم سارة بمولود هو إسحاق ، وقد كثر أبناء إسماعيل وحفدته وذراريه حتى أصبحوا عدد نجوم السماء كما وعد الله . وتكونت منهم أمة العرب التى امتدت وغطت المنطقة الرحيبة التى تعرف اليوم بالوطن العربى

---

(١) تكوين : ١٥ : ١٨ – ٢٠ ؛ ص ٣٣ وما بعدها .
(٢) تكوين : ١٥ : ٣ – ٥ .

الكبير . أما أبناء إسحاق فقد ذهبوا قلة . ويُعَدُّ إبراهيم أبو الأنبياء والرسل ، ومن رسالته أهلت كل رسالات السماء اليهودية والنصرانية والإسلام .

والكاتب يعتمد فى جانب مما قال على كتاب د . حسين فوزى النجار : أرض الميعاد . دراسة علمية للوعد الإلهى لبنى إسرائيل بأرض الميعاد على ضوء الكتب السماوية ، القاهرة ١٩٥٩ م ، ص ٥٩ – ٨٩ . وكتاب د . محمد حافظ غانم : مبادىء القانون الدولى العام الخ ، ص ٣٥٩ .

فما رأيكم فى ضوء دراستكم لسيرة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق – عليهم السلام – أفيدونا أفادكم الله ؟ .

الـردّ : بالرجوع إلى ما كتبه الدكتور حسن صبرى الخولى فى كتابه [١] ، يمكن تلخيص ما قاله فى المسائل التالية ، وهو يتفق فى عرضه مع الخط العام الذى عالج به المحدثون من المشتغلين بالتاريخ قضية الاغتصاب اليهودى لأرض فلسطين ، بل يردد ما زعم الكتاب أمثال :

ول . ديورانت فى قصة الحضارة ، الجزء الثانى من المجلد الأول ، ص ٣٢١ وما بعدها ، وما زعم س . موسكاتى فى كتابه الحضارات السامية القديمة ، ص ١٣٩ :

المسألة الأولى :

« إن إبراهيم – عليه السلام – كان يهوديا ، ومن رسالته – كما يزعم الكاتب – أَهَلَّتْ كل الرسالات السماوية : اليهودية والمسيحية والإسلام [٢] ؟ ..

---

(١) سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د . حسن صبري الخولي ، دار المعارف مصر ١٩٧٣ م ، وهو في الأصل رسالة دكتوراه ، أشرف عليها الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، أستاذ كرسي التاريخ الحديث بجامعة الأزهر ، وناقشها الأستاذ الدكتور بدوى عبد اللطيف عوض ، أستاذ كرسي الدراسات الاستشراقية بجامعة الأزهر ، الأستاذ الدكتور محمد رفعت رمضان أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة القاهرة .

(٢) سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ص ٣٤ .

المسألة الثانية :

إن ما ألفه اليهود وزعموا أنها توراة : « العهد القديم » ، يسلم الكاتب أنه كتاب مقدس من عند الله – عز وجل – وأنه قد أنزل على إبراهيم – عليه السلام [1] ..

المسألة الثالثة :

إن الله – عز وجل قد وعد إبراهيم – عليه السلام – وذريته من بعده (مطلقا سواء كانوا ظلمة أو عدولا) فلسطين لإنشاء دولة فيها : (لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات) [2] (سفر التكوين ١٥ : ١٨ – ٢٠) .

المسألة الرابعة :

إن إسحاق نبى يهودى وهو جد اليهود [3] ..

المسألة الخامسة :

تسليم الكاتب بأن لليهود حق فى أرض فلسطين (وإن كان أقل من حق أبناء إسماعيل [4] .

وسنحرص فى الصفحات التالية ، على بيان وجه الحق فيما أورده الدكتور حسن صبرى الخولى فى كتابه ، فإن أخطأنا فمن أنفسنا ، وإن أصبنا فمن الله سبحانه وتعالى .

أولا : إبراهيم عليه السلام نبى مسلم وكذلك إسحاق عليه السلام :

إلى أى دين دعا إبراهيم وذريته وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وسليمان وعيسى عليهم السلام ؟

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

يقول الله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ (١)

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحدا ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسْألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(٢) .

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق – عليهما السلام – ويعتزون بنسبهم إليه . وكذلك قريش لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل – عليهما السلام – وتعتز بنسبها إليه . والقرآن يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم عليه السلام – منذ أن ابتلاه ربه واختبره واصطفاه ، وتنصيبه للناس إماما ... إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد – ﷺ – استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان البيت الحرام – فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعا ، بذلك السبب الوحيد الذى تقوم عليه وراثة العقيدة ... سبب الإيمان بالرسالة ، وحسن القيام عليها ، والاستقامة على تصورها الصحيح .

---

(١) البقرة : ١٢٧ – ١٢٨ . (٢) البقرة : ١٣٠ – ١٣٦ .

وفى ثنايا هذا العرض التاريخى يبرز السياق أن الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله وحده - كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة ، هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب (وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه) - والأسباط ، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ، ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين (١) .

فمن استقام على هذه العقيدة فهو وريثها ، ووريث عهودها ، وبشاراتها . ومن فسق عنها ، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته ، وعندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم ، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه : لقد سقطت عنهم الوراثة عندما انحرفوا عن هذه العقيدة .

إن التصور الإسلامى يقطع الوشائج والصلات التى لا تقوم على أساس العقيدة والعمل ، ولا يعترف بقربى ولا رحم ، إذا أنبتت وشيجة العقيدة والعمل ، ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل ، وهو يفصل بين الوالد (٢) والولد ، والزوج (٣) والزوجة إذا انقطع بينهما حبل العقيدة ... إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفادا ... إنما هى هؤلاء جميعا تجمعهم عقيدة واحدة ، وإن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس

---

(١) ليس هنالك دين اسمه المسيحية أو دين اسمه اليهودية دعا إليه رسول من عند الله ، ولكن هنالك دين واحد اسمه الإسلام دعا إليه رسل الله جميعا ومنهم عيسى وموسى وسليمان عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام (انظر رسالتنا أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر) .

(٢) كما فصل بين نوح وابنه ، وبين إبراهيم وأبيه ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (التوبة ١١٤) .

(٣) كما فصل بين نوح ولوط وزوجيهما ، وكما فصل بين آسية وزوجها فرعون ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ . التحريم ١٠ -١١ ؛ وفى الحديث الصحيح : « انتسب رجلان على عهد موسى فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة . فمن أنت لا أم لك ؟ قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة فى النار فأنت عاشرهم فى النار ، أما أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة فأنت ثالثهما فى الجنة » رواه النسائى والبيهقى وأحمد فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير ، انظر صحيح الجامع الصغير ، حديث ٦٦١/١٥٠٤ .

معين ... إنما هى مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم ... وهذا هو التصور الإيمانى .

ثانيا : اليهود لا يرثون إبراهيم عليه السلام :

هل لمن يسمون بالإسرائيليين الآن ، أو بمعنى آخر ، هل لليهود ، الآن ، الحق فى أن يدعوا وراثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ... إلى غير هؤلاء من الأنبياء والرسل عليهم السلام ؟

الإجابة طبعا بالنفى ، للأسباب التالية : اليهود كفروا بالله ، ورفضوا الإقرار له بالعبودية ، كما رفضوا الاعتراف له بالألوهية والربوبية ، بل نسبوا إليه كل الصفات الذميمة فهو يندم ويجهل ويتعب ..

اليهود كفروا بأنبياء الله ، فأنكروا نبوة هود ونبوة صالح ونبوة محمد - عليهم أفضل الصلوات وأزكى التسليمات - بل إنهم نسبوا إلى بعض الأنبياء والرسل صفات ذميمة منها السكر والزنا[1] وغيرها .

اليهود رفضوا اعتناق الإسلام ، ورفضوا شريعة الله ومنهاجه ، كما أنهم حرفوا التوراة ولم يقيموها فى حياتهم .

ولذلك فليس من حق اليهود الكفار أن يدعوا وراثة الأنبياء والرسل والمسلمين ، لأن الكافر لا يرث مسلما حتى لو كان من صلبه . وبالتالى فليس من حق اليهود أن يدّعوا أنهم يرثون أرض الله (سورية وفلسطين) التى نجى الله إليها نبيه إبراهيم عليه السلام .

ثالثا : صفات بنى إسرائيل[2] ، وحقيقة المعركة بينهم وبين الأمة المسلمة :

تحدث القرآن عن بنى إسرائيل ، ومواقفهم التى يتجلى فيها العصيان

---

(١) انظر للمؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم ، دار الوفاء للطباعة القاهرة .

(٢) وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام ، وهو نبى مسلم ، وعلى أبنائه أخذ العهد والميثاق أن يكونوا مسلمين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، فمنهم من وفّى ومنهم من لم يّوف ، وذلك يعنى أن من أبناء إسرائيل ، مسلمون ، ومن أبنائه غير المسلمين .

والالتواء والانحراف والنكول عن العهد والميثاق : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون . وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون .. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾(١) .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾(٢) ولما كانوا يدعون بأنهم شعب الله المختار ... وأنهم وحدهم هم المهتدون .. وأنهم وحدهم الفائزون فى الآخرة ، ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾(٣) .

﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾(٤) .

ومن هذه الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بنى إسرائيل ، ذلك الميثاق الذى أخذه عليهم فى ظل الجبل ، والذى أمروا أن يأخذوه بقوة ، وأن يذكروا ما فيه ... إن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله .. هذه القواعد التى

---

(١) البقرة : ٨٣ – ٨٥ .

(٢) البقرة : ٨٧ .

(٣) البقرة : ٩٤ – ٩٥ .

(٤) البقرة : ١٠٠ .

جاء بها الإسلام أيضا فتنكروا لها . لقد تضمن ميثاقهم مع الله : ألا يعبدوا إلا الله .... الخ ما ورد فى الآية .

ومن ثم تتقرر حقيقتان : الأولى هى وحدة دين الله ، وتصديق هذا الدين لما قبله فى أصوله . والثانية : هى مقدار التعنت فى موقف اليهود من هذا الدين ، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه ، وأعطوا عليه الميثاق .

﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾(١) . أى أنهم جحدوه وتركوا العمل به ، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم . ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمَنَ اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾(١) .

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾(٣) .

﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٤) ..

﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما فى السموٰات والأرض كل له قانتون ﴾(٥) .

---

(١) البقرة : ١٠١ .
(٢) البقرة : ١٠٢ .
(٣) البقرة : ١٠٥ .
(٤) البقرة : ١١١ .
(٥) البقرة : ١١٦ .

﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسْأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهوائهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله ولى ولا نصير ﴾(١) .

إنها العقيدة ، هذه هى المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة .

إنها معركة العقيدة هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ، وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها ، ولكنها تلتقى دائما فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين .

إنها معركة العقيدة فى صميمها وحقيقتها ، ولكن المعسكرين العريقين فى العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاما شتى فى خبث ومكر وتورية . إنهم قد جرَّبوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء فغيروا أعلام المعركة . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة – على حقيقتها – خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها ، إنما أعلنوها باسم الأرض ، الاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية وما إليها ، وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها . ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها . فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ، بينما هم فى قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بإضافة الشيوعية العالمية – جميعا يخوضون – المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها طويلا فأدمتهم جميعا .

ما تزال الأمة المسلمة تعانى من دسائس اليهود ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس ، غير أن الأمة المسلمة لا تنتفع مع الأسف – بتلك التوجيهات القرآنية ، وبهذا الهدى الإلهى ، الذى انتفع به أسلافها (٢) فغلبوا

---

(١) البقرة : ١١٩ – ١٢٠ .

(٢) في ظلال القرآن ، جـ ١ ، ص ١٠٨ .

كيد اليهود ومكرهم فى المدينة ، والدين ناشىء والجماعة المسلمة وليدة .... وما يزال اليهود - بلؤمهم ومكرهم - يضللون هذه الأمة عن دينها ، ويصرفونها عن قرآنها ، كى لا تأخذ منه أسلحتها الماضية وعدتها الواقية ، وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية وينابيع معرفتها الصافية .. وكل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود . سواء عرف أم لم يعرف ، أراد أو لم يرد ، فسيظل اليهود فى مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التى تستمد منها وجودها ... وقوتها وغلبتها - حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيمانى والشريعة الإيمانية - فهذا هو الطريق ، وهذه هى معالم الطريق .

نخلص من العرض السابق إلى الحقائق التالية :

١ - إن إبراهيم نبى مسلم ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ .

وكذلك كان إسحاق نبيا مسلما .

٢ - إن الله قد وعد إبراهيم بأن ترث ذريته المسلمة - وليس غيرها - الأرض المقدسة ، يعنى أنه ليس لليهود حق فى أرض فلسطين اعتمادا على أنهم ورثة إبراهيم ، لأن الكافر لا يرث مسلما ولو كان من صلبه .

والدليل بالإضافة إلى ما قدمنا رد الله سبحانه وتعالى على إبراهيم حينما طلب أن تكون الإمامة فى عقبه : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنِّى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ فالإمامة محجوبة عن الظلمة والفسقة والكفرة[1] . كما أن الله سبحانه وتعالى قد حسم الأمر حينما قال : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾[2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

(٢) آل عمران : ٦٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ .

واليهود لم يتبعوا إبراهيم ، والدليل على ذلك نكوصهم عن عهدهم مع ربهم ، وكفرهم بمحمد ﷺ . .

وهنالك صفات يجب أن يتصف بها الإنسان لكى يكون مؤهلا ومستحقا للإمامة منها : الإسلام والعدالة ... إلى غير ذلك مما بينا (ص ٣) ، وهذا لا يتوفر منه شيء على الإطلاق فى اليهود ، الذين كفروا بالله وكتبه ورسله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق إلى غير ذلك مما عرف منهم ... فكيف إذن يدعون لأنفسهم حق وراثة إبراهيم – عليه السلام – النبى المسلم ؟ .

وبهذا نصل إلى نتيجة مفادها أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون قد وعد الذرية الظالمة من أبناء إبراهيم بالإمامة فى أرض فلسطين ، حتى لو سلمنا بأن اليهود هم من ذرية إبراهيم عليه السلام ، لأن الله يقول : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ .

وإنما الموعودون بالتمكين فى الأرض المقدسة والمبشرون بوراثة الأرض المقدسة هم المسلمون من ذرية إبراهيم ، وبذلك نص الحديث الصحيح المروى عن رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودى يامسلم هذا يهودى ورائى فاقتله »[(١)]

خامسا : رسالة إبراهيم عليه السلام دعوة إلى الإسلام ، وليست دعوة إلى اليهودية أو النصرانية :

أما فيما يتصل بما أورده الكاتب ، (أن من رسالة إبراهيم عليه السلام أَهلَّتْ كل رسالات السماء : اليهودية والنصرانية والإسلام[(٢)] ، فهو ترديد لكل ما يكاد يجمع عليه كتاب التاريخ من أبناء العرب والمسلمين فى عصرنا الحاضر .

وما ردده الكاتب وغيره يعنى أن من دعوة إبراهيم إلى الإسلام انبثقت

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، حديث رقم ٧٢٩١ – ٣٠٦٨ . وفى رواية أخرى : « لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبيء اليهودى وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يامسلم ياعبدالله هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » (صحيح الجامع الصغير ، حديث ٧٣٠٤ – ٣٠٧٨) .

(٢) **مثال ذلك** : ما ذكره محمد مهران فى كتابه « دراسات تاريخية من القرآن الكريم » ، (ص ٣٦٥) : « لأن اليهودية والنصرانية ديانتان سماويتان ، لا مجال لتفضيل إحداهما على الأخرى .

اليهودية وانبثقت المسيحية ، وذلك يعنى أيضا أن إبراهيم كان يهوديا ، وكان نصرانيا ، وفى نفس الوقت كان مسلما (على قدر فهمنا ، وعلى قدر ما يبدو من عبارة الكاتب ، وذلك يعنى أيضا أن ورثة إبراهيم هم المسلمون واليهود والنصارى ، أى أن للجميع حق فى أرض فلسطين ، وهذا ما سلم به الكاتب ، وإن كان يرى لأبناء إسماعيل الجزء الأكبر فى هذه الأرض نظرا لكثرتهم) .

والتصحيح اعتماد على فهم السلف الصالح لكتاب الله وسنة النبى محمد ﷺ ، هو كالتالى :

نحن – المسلمين – نؤمن برسالات سماوية ، منها رسالة إبراهيم وموسى وعيسى ، ولكن كُلَّهَا دعت إلى دين واحد هو الإسلام : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ . وإن الأنبياء الذين كان لهم شرف حمل هذه الرسالات كانوا مسلمين موحدين ، ولم يكونوا هودا أو نصارى .... ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

ولما كانت الأرض المقدسة هى الأرض التى كانت الإمامة عليها لإبراهيم – عليه السلام – وذريته من الأنبياء المسلمين ، فذلك يعنى أن الذين يرثون إبراهيم – عليه السلام – هم المسلمون لإقامة حكم الله عليها ، وليس اليهود أو النصارى لأنهم كفار مشركون .

أما فيما يتصل بنسبة التوراة المحرفة إلى إبراهيم – عليه السلام – والزعم بأنه كان يهوديا فهذه شبهة قديمة قد رد الله عليها فى كتابه الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين ﴾[1] .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن أبى – مولى زيد بن ثابت –

---

(١) آل عمران ، ٦٥ – ٦٨ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ ؛ فى ظلال القرآن ، المجلد ١ ، ص ٤١١ .

حدثنى سعيد بن جبير - أو عكرمة - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله - ﷺ - فتنازعوا عنده . فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلّا يهوديّا وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلّا نصرانيا . فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب ، لم تحاجون فى إبراهيم .... ﴾ الآية . .

وسواء كانت هذه هى مناسبة نزول الآية أو لم تكن ، فظاهر من نصها أنها نزلت ردا على ادعاءات لأهل الكتاب ، وحجاج مع النبى ﷺ - أو مع بعضهم البعض فى حضرة الرسول - ﷺ - والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى بيته النبوة ، واحتكار الهداية والفضل كذلك . ثم - وهذا هو الأهم - تكذيب دعوى النبى - ﷺ - أنه على دين إبراهيم . وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى - وتشكيك المسلمين فى هذه الحقيقة ، أو بث الريبة فى نفوس بعضهم على الأقل ... .

ومن ثم يندد الله بهم هذا التنديد ويكشف مراءهم الذى لا يستند إلى دليل . فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل . فكيف إذن يكون يهوديا ؟ أو كيف يكون إذن نصرانيا ؟ إنها دعوى مخالفة للعقل ، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ :

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾

ثم يمضى فى التنديد بهم ، وإسقاط قيمة ما يدلون من حجج ، وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقى سليم فى الجدل والحوار :

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١) ..

وقد جادلوا فى أمر عيسى عليه السلام كما يبدو أنهم جادلوا فى بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم تولوا وهم

(١) آل عمران : ٦٦ .

معرضون ... وكان هذا وذاك فى دائرة ما يعلمون من الأمر ، أما أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم ، ووجود كتبهم ... فهو الأمر الذى لا سند له ولو كان سندا شكليا .... فهو الجدل إذن لذات الجدل . وهو المراء الذى لا يسير على منهج ، وهو الغرض إذن والهوى .... ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول . بل غير جدير بالاستماع أصلا لما يقول .

حتى إذا انتهى السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه ، ونزع الثقة منهم ومما يقولون ، عاد يقرر الحقيقة التى يعلمها الله . فهو سبحانه – الذى يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد وهو الذى يعلم كذلك حقيقة الدين الذى نزله على عبده إبراهيم ، وقوله الفصل الذى لا يبقى معه لقائل قول ، إلا أن يجادل ويمارى بلا سلطان ولا دليل :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين ﴾[1] .

فيؤكد ما قرره من قبل ضمنا من أن إبراهيم – عليه السلام – ما كان يهوديا ولا نصرانيا . وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده . ويقرر أنه كان مائلا عن كل ملة إلا الإسلام فقد كان مسلما ... مسلما بالمعنى الشامل للإسلام الذى مر تفصيله وبيانه ..

﴿ وما كان من المشركين ﴾ ..

وهذه الحقيقة متضمنة فى قوله قبلها ﴿ ولكن كان حنيفا مسلما ﴾ ... ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير :

يشير أولا إلى أن اليهود والنصارى – الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة – مشركون ... ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . ولكن حنيفا مسلما .

ويشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر ، فلا يلتقيان . الإسلام هو

---

(١) آل عمران : ٦٧ .

التوحيد المطلق بكل خصائصه ، وكل مقتضياته . ومن ثم لا يلتقى مع لون من ألوان الشرك أصلا ..

ويشير ثالثا إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أنهم على دين إبراهيم ، وسدنة بيته فى مكة ... فهو حنيف مسلم ، وهم مشركون ﴿ وما كان من المشركين ﴾ .

وما دام أن إبراهيم – عليه السلام – كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، فليس لأى من اليهود أو النصارى – أو المشركين أيضا – أن يدعى وراثته ولا الولاية على دينه ، وهم بعيدون عن عقيدته ، والعقيدة هي الوشيجة الأولى التى يتلاقى عليها الناس فى الإسلام . حين لا يلتقون على نسب أو أرومة ولا جنس ولا أرض . إذا أنبتت تلك الوشيجة التى يتجمع عليها أهل الإيمان . فالإنسان فى نظر الإسلام إنسان بروحه . بالنفخة التى جعلت منه إنسانا . ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه ولا يلتقى على مثل ما تلتقى عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج ، والولاية بين فرد وفرد ، وبين مجموعة ومجموعة ، وبين جيل من الناس وجيل ، لا ترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة . يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن ، والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة ، والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان ، ومن وراء فواصل الدم والنسب ، والقوم والجنس ، ويتجمعون أولياء – بالعقيدة وحدها – والله من ورائهم ولى الجميع :

﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾(١) . فالذين اتبعوا إبراهيم ــ فى حياته ــ وساروا على منهجه ، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه . ثم هذا النبى الذى يلتقى معه فى الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين . ثم الذين آمنوا بهذا النبى ــ ﷺ ــ فالتقوا مع إبراهيم ــ عليه السلام ــ فى المنهج والطريق .

﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ ..

---

(١) آل عمران : ٦٨ .

فهم حزبه الذين ينتمون إليه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحدا غيره . وهم أسرة واحدة ، وأمة واحدة ، من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ، ومن وراء القوميات والأجناس ، ومن وراء الأرومات والبيوت .

وهذه الصورة هى أرقى صورة للتجمع الإنسانى وتميزه من القطيع ، كما أنها هى الصورة الوحيدة التى تسمح بالتجمع بلا قيود . لأن القيد الواحد فيها اختيارى يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية . فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهى الأمر ... على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه - إن كانت رابطة التجمع هى الجنس - ولا يملك أن يغير قومه - إن كانت رابطة التجمع هى القوم - ولا يملك أن يغير لونه - إن كانت رابطة التجمع هى اللون - ولا يملك أن يغير لغته - إن كانت رابطة التجمع هي اللغة - ولا يملك أن يغير طبقته - إن كانت رابطة التجمع هى الطبقة - بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما فى الهند مثلا . ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبدا دون التجمع الإنسانى ، ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور ... الأمر المتروك للاقتناع الفردى ، والذى يملك الفرد بذاته ، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره ، وأن ينضم إلى الصف على أساسه .

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان ، بجعل رابطة تجمعه مسألة تتعلق بإكرام عناصره ، المميزة له من القطيع ..

والبشرية إما أن تعيش - كما يريدها الإسلام - أناسى تتجمع على زاد الروح .... وإما أن تعيش قطعانا خلف سياج الحدود الأرضية ، أو حدود الجنس واللون .... وكلها حـدود مما يقام للماشـية فى المرعى كى لا يختلـط قطيـع بقطيـع ...

سادسا : ما تسمى حاليا بالتوراة ليست هى التى أنزلت على موسى النبى المسلم عليه السلام ، وإنما هى كتاب من تأليف اليهود ، لأسباب شرعية وتاريخية ، ولذلك لا يجوز أن يعتبرها الكتاب كتابا « مقدسا ولا يجوز الاعتماد على ما ورد فيها من أخبار .

ففى الحديث الصحيح : « إن بنى إسرائيل كتبوا كتابا فاتبعوه وتركوا التوارة »[1] .

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، ص ٥٣ – ٦٣ ؛ رواه الطبرانى فى الكبير ، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ، المجلد الثانى ، ص ١٩١ ، حديث ٢٠٤٠/٨٩٨ .



الخاتمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المجاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فما له من مضل ، ومن يضلل فلا هادى له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعـد

فإن سير الأنبياء – عليهم السلام – ومنهم إبراهيم وزوجه وبنوه ، مليئة بالعظات والعبر والدروس المستفادة ، إنها مدرسة ضخمة ، دراستها ومدارستها وتربية الأمة المسلمة عليها ضرورى وهام وواجب ، لأنها دار علم ضخمة ، فيها تربى محمد وصحبه ، على عين الله – سبحانه وتعالى – بتوجيه من الوحى عليه السلام . إنه لا غنى عن دراستها وتملى ما فيها ، والوقوف عندها ، إذا أرادت الأمة المسلمة أن تعرف موقعها فى الماضى ، ودورها فى المستقبل .

وحسبنا بعض اللمحات الخاطفة من هذه الدروس ، والتوجيهات اللازمة والضرورية لحياة الأمة المسلمة :

وجوب الدعوة إلى الله :

وجوب الدعوة إلى الله – سبحانه وتعالى – وما يقتضيه ذلك من حشد لطاقات الأمة المسلمة وإمكانياتها ، وتوجيهها لعمل كل ما يؤدى إلى إقامة حكم الله فى الأرض كلها ، حتى يكون الدين كله لله سبحانه وتعالى ، وحتى يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

الداعية إلى الله يجب أن يكون صورة صادقة للإسلام :

هناك صفات معينة لابد وأن يتصف بها الداعية إلى الله عز وجل ، والتي لابد لكل راغب فى الدعوة إلى الله أن يتعرف عليها ويتمثل بها ، ويمكن أن نجملها فى كلمة الإسلام ، إن الداعية لكى يقتنع به الناس وبدعوته ، لابد وأن يكون هو صورة للإسلام الذى يدعو إليه .

دور المرأة المسلمة وصفاتها :

دور الزوجة المسلمة ، والأم المسلمة والصفات التى يجب أن تتصف بها كل منهما . نلمح هذا فى سارة زوج إبراهيم وأم إسحاق ، وهاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل ، نلمح هذا فى زوج إسماعيل عليه السلام .

نموذج للدعوة المضطهدة :

لقد شاهدنا نموذجا للدعوة إلى الله :

حينما تكون مضطهدة ، أتباعها قلة ، فى مواجهة مجتمع يسيطر عليه الملأ من القوم ؛ وهم أصحاب الجاه والسلطان ، الذين لا يطيقون أن يرتفع صوت بلا إله إلا الله ، أو أن ترتفع لله راية عليها لا إله إلا الله ، أو أن يقوم على أرض الله ، حكم الله .

من خلال استعراض هذا النموذج يمكن للدعاة أن يتعرفوا على أسلوب الدعوة الذى يتناسب وأحوال المجتمع الذى يعيشون فيه ، بشرط أن يكون البلاغ كاملا ، وبشرط عدم التقاعس أو التقاعد عن أداء واجب الدعوة إلى الله عز وجل .

فإبراهيم – عليه السلام – كان فتى صغيرا ﴿ سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ ، لا يملك من مقومات القوة الظاهرة شيئا ، ورغم هذا فقد وقف في وجه المجتمع بأسره حكاما ورعية يدعوهم : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

ما تقاعس ، ما قال : أنا فتى صغير ، هذه ليست مسئوليتى .. كيف أستطيع أن أواجه مجتمعا بأسره يملك كل مقومات القوة الظاهرة لا داعي للمواجهة ، هذا لم يخطر ببال إبراهيم – عليه السلام .

لقد وقف إبراهيم كالطود الشامخ يفاصل قومه : ﴿ إنَّا بُرَءَاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاءُ أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ .

وبهذا النبى الكريم تأسى محمد ﷺ وصحبه ، وبهؤلاء جميعا يجب أن يتأسى المسلمون فى كل زمان ومكان .

إن موقف إبراهيم الذى جاد بنفسه على أرض الرافدين ، يجب أن يتملاه الداعون إلى الله عز وجل . ولن يكون ذلك إلا إذا عادوا إلى القرآن الكريم والسنة يتتلمذون عليها ، تتلمذ الراغب فى التعلم والعمل .

قيمة المؤمن عند الله عز وجل كبيرة :

نلمح قدر المؤمن عند الله عز وجل ، فى التمكين لإبراهيم – عليه السلام – وذريته ، ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ ، ملكا عظيما للفتى المطارد ، الذى أخرج من بين ظهرانى قومه ، لا يملك شيئا من متاع الدنيا ، لا يملك إلا إيمانا بالله عز وجل وكفى به فضلا كبيرا .

سمت الدولة الإسلامية :

سمت الدولة الإسلامية : إمام مسلم وأمة مسلمة ونظام وشريعة ربانية وسنة نبوية . ومن خلال استعراض سمات الدولة الإسلامية نلمح الصفات التي تؤهل المسلم لإمامة المسلمين ، ونلمح واجبات الإمام المسلم حيال نفسه ، وحيال زوجه وبنيه وحيال رعيته ، واجبه بالدرجة الأولى أن يعيش وأمته بالإسلام ، ويموتون عليه ، وأملهم بالدرجة الأولى أن يتقبل الله أعمالهم : ﴿ ربنا تقبل منا، إنَّك أنت السميع العليم ربَّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنَّك أنت التواب الرحيم ﴾ .

الأمة الشاهدة هى الأمة المسلمة ، وليست اليهود أو النصارى :

إنّ الأمة الشاهدة : هى الأمة المسلمة : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ ، وهى خير أمة أخرجت للناس : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ ، وليس لأحد أن يقول بغير ذلك .

وبالتالى لا يمكن أن يدعى اليهود أنهم شعب الله المختار . وأن الله قد اصطفاهم من بنى البشر لكى يكونوا سادة ، وجعل من دونهم عبيدا لهم .

فهم ملعونين أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

تاريخ الأمة الإسلامية يبدأ بخلق آدم عليه السلام :

إن تاريخ الأمة الإسلامية لا يبدأ فقط ببعثة محمد ﷺ ، وإنما يرجع إلى زمن خلق آدم مسلما موحدا ، ونزوله إلى الأرض ، ليتكون منه ومن نسله أول مجتمع مسلم على الأرض .

إبراهيم عليه السلام نبى مسلم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا :

إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أنبياء مسلمون وليسوا يهودا أو نصارى ، وإن تاريخهم هو جزء من التاريخ الحقيقى للأمة المسلمة ، وليس تاريخا أسطوريا .

إبراهيم عليه السلام يدعوا إلى الله فى أرض الرافدين والشام ومصر والحجاز :

إن إبراهيم عليه السلام من أولى العزم من الرسل ، وقد حمل أمانة الدعوة إلى الله فى أرض الرافدين ، ثم فى بلاد الشام وفى مصر ثم على أرض الحجاز ، وأن هجرته إلى بلاد الشام – الأرض التى بارك الله فيها للعالمين – كان بأمر من الله الذى نجاه من قومه الذين حاولوا حرقه بالنار : ﴿ قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

الله يقيم الحجة على جبّار مصر بإبراهيم وسارة عليهما السلام :

إن رحلة إبراهيم وسارة إلى مصر حين كان يحكم جبار من جبابرتها ، كان من باب إقامة الحجة على جبار مصر الذى طغى وتجبر وذلك من خلال إثبات عجزه عن الاعتداء على امرأة مجردة من كل حول وطول إلا حول الله سبحانه وتعالى وقوته ، وإثبات أن الله الذى كفر به جبار مصر موجود ، وقادر على أن يحمى عباده منه ، وينزل به بطشه وانتقامه .

الله سبحانه وتعالى يحمى عرض سارة :

ومن الثابت – الحمد لله – أن الله قد حمى عرض إبراهيم وحفظه ، وأن إبراهيم قد عاد إلى بلاد الشام ، إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، – والتي جعلها الله لذريته المسلمة من بعده – حيث بنى بهاجر ، ورزق منها بإسماعيل جد محمد ﷺ .

إبراهيم يصحب إسماعيل وهاجر إلى جوار بيت الله العتيق بأمر من الله :

إن توجه إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى جوار بيت الله العتيق ، ثم تركهما هناك بواد ليس به إنس أو ماء ، وكان ذلك بأمر من الله تعالى .

الذبيح هو إسماعيل عليه السلام :

إن الغلام الذى أمر إبراهيم – عليه السلام – بذبحه كان إسماعيل – عليه السلام – وليس إسحاق ، وأن ذلك وقع بحرم الله الآمن بمكة .

إن تاريخ مكة وبناء الكعبة جزء من التاريخ الحقيقى للأمة المسلمة .

إن الحج عبادة مقننة مشروعة ، شرعها الله لأمته المسلمة على مدار تاريخها .

الله يحرم مكة ويجعل أربعة أشهر حُرُماً :

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى جعل مكة حرما آمنا يوم خلق السموات والأرض ، وهو سبحانه وتعالى الذى جعل أربعة أشهر حرماً : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموٰات والأرض منها أربعة

حرم ﴾ (١) . ومن المؤكد أن الله سبحانه وتعالى حينما استخلف آدم فى الأرض قد أعلمه بهذا الأمر ، وظلت الأجيال تعرف ذلك بالتواتر ، والرسل عليهم السلام يذكرون من نسى منهم ، حتى جاءت بعثة محمد ﷺ . فأعلمه الله سبحانه وتعالى بما كان .... وبهذا يتضح لنا أن جعل أربعة أشهر حرما ، وجعل منطقة حرام هى مكة ، كان أمرا توقيفيا من الله عز وجل ، ولم يكن من اختراع الناس فى الجاهلية ، فجاء محمد ﷺ فأدخلها فى نظم الإسلام - كما زعموا -

الإسلام دين الأنبياء جميعا ومنهم إبراهيم عليه السلام :

إن إبراهيم عليه السلام كان - كغيره من بنى آدم - مفطورا على الإسلام ، وآتاه الله رشده وهو غلام يافع ، ثم اصطفاه بعد ذلك برسالاته .

والتوحيد الذى كان عليه إبراهيم - عليه السلام - هو الإسلام ، والإسلام دين الله وبه أرسل الرسل ، وبه نزل الوحى على هؤلاء الأنبياء ومنهم إبراهيم - عليه السلام - وليس من اختراع العقل البشرى .

جبريل عليه السلام يفجر زمزم بأمر الله :

إن زمزم لم تكن موجودة عند وصول هاجر عليها السلام ، ولكنها تفجرت مياهها بهمزة من جناح جبريل عليه السلام ، بأمر من الله تعالى ، من تحت قدمي إسماعيل عليه السلام . « وماء زمزم لما شرب » له كما قال ﷺ .

المسلمون لا يعبدون الحجر الأسود (٢) :

إن الحجر الأسود من الجنة ، والمسلمون لا يعبدون الحجر الأسود ، ولا يسجدون أمامه وإنما يستقبلونه اقتداء برسول الله ﷺ .

فساد كل مصادر ومراجع التاريخ القديم التى لا تعتمد على الكتاب والسنة :

فساد كل مصادر ومراجع ما يسمى بالتاريخ القديم التى تتجاهل بضعة آلاف عام من التاريخ الإسلامى ، والتى زيفت وشوهت التاريخ الإسلامى

---

(١) التوبة : ٣٦ .

(٢) وفى هذا رد على ما أورده الدكتور محمد بيومى مهران : (إن الحجر الأسود قد يكون من نوع =

(بما فى ذلك تاريخ الرسل والأنبياء) ، إذ زعمت أن هناك أديان سماوية اسمها : اليهودية والمسيحية دعا إليها رسل من عند الله عز وجل ، وزعمت أن إبراهيم وذريته كانوا يهودا ونصارى ، والتى تعتمد أيضا فى مصادرها على ما ألفه كتاب اليهود قديما وأسموه بالتوراة ، (ويدخل فى ذلك ما يسمى بالعهد القديم والتلمودة) وما يسمى بدائرة المعارف الإسلامية التى ألفها المستشرقون اليهود والنصارى ، وقصة الحضارة لديورانت ، والحضارات السامية لموسكاتى ، والشرق الخالد لعبد الحميد زيد ، وحضارة مصر والشرق القديم ، والموسوعة العربية الميسرة .

عدم جواز الاعتماد على العهد القديم أو التلمود :

عدم جواز الاستشهاد بما ورد فى العهد القديم أو التلمود ، خاصة فيما يتصل بتاريخ الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام – لأسباب كثيرة منها :

(أ) **أسباب شرعية :**

دليلها ما ورد فى صحيح البخارى : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم ، أخبرنا ابن شهاب عن عبيد الله أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذى أنزل على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرءونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب[1] الله

= النيازك (ص ١٩٤ من كتابه دراسات تاريخية من القرآن) ، ورد أيضا على إنكاره ما روى عن رسول الله ﷺ من أن الحجر الأسود كان ياقوتة بيضاء فاسود بذنوب العباد ، ص ١٩٤ من نفس الكتاب) ورد أيضا على زعم الكاتب بأن المسلمين يقدسون الحجر الأسود ، وأن تقديسه ربما قد نجم عن ارتباطه بشيء مقدس ، فهو إما يكون رمزاً للعهد الذى أخذه إبراهيم على نفسه وولده بجعل هذا البيت مثابة للناس وأمنا (ص ١٩٤ من نفس الكتاب) وهذا شيء يدعو إلى العجب ، لأن الله هو الذى جعل البيت مثابة للناس وأمنا !! وليس إبراهيم عليه السلام . ورد على قول الكاتب « بأن إبراهيم عليه السلام قد اختار له اللون الأسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه .

والعجيب أيضا أن المؤلف قد استشهد بمستشرق يهودي هو فلهاوزن على أن قدسية البيت لم تكن عند قريش بسبب ما فيه من أصنام ، وإنما بسبب هذا الحجر الأسود ، فهو إذن مقدس لذاته « كما زعم المؤلف ص ٢٢٧ من كتابه » .

(١) « إن بنى إسرائيل كتبوا كتابا فاتبعوه وتركوا التوراة» حديث حسن رواه الطبرانى فى الكبير ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، المجلد الثانى ، ص ١٩١ ، رقم ٢٠٤٠/٨٩٨ .

وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم (١) .

أسباب منهجية :

وهى عدم صمودها أمام الجرح والتعديل ، وما قدمنا من دراسة موضوعية ، لبعض ما ورد فى العهد القديم والتلمود ، يعكس اعتداء على ذات الله ورسله وملائكته وكتبه (٢) .

الأهمية العقيدية لأرض الشام وعلى الأخص بيت المقدس :

إن الله سبحانه لا يقبل من الأمة المسلمة أن تكون حية على سطح الأرض ، وهناك من يعيثون فسادا فى أرض الشام ، وخاصة أرض الإسراء والمعراج . إن الله سبحانه وتعالى ، لا يقبل ، أن ترتفع راية للشرك على أرض الإسراء والمعراج . إن الله سبحانه وتعالى لا يغفر أن تحكم أرض الإسراء والمعراج بغير شرع الله .

فبيت المقدس ، كان مقرا لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء المسلمين على مدار التاريخ ، صحيح ، أنه فى بعض الفترات أخرج منه المرتدون من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ولكن سرعان ما يأخذ المسلمون زمام المبادأة ، ويستعيدون الأرض المقدسة التى جعلها الله للمسلمين ، تماما كما حدث على عهد يوشع بن نون ، وكما حدث على عهد داود بن سليمان : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة ﴾..

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذه الأرض المباركة فى قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام

---

(١) صحيح أبي عبد الله البخارى ، جـ ٩ ، ص ١٣٦ .

(٢) انظر « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، ص ٥٣ إلى ص ٦٣ ؛ ذرية إبراهيم عليهم السلام ، دار الوفاء للطباعة والنشر .

إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ﴾.

وكذلك قول رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

فى هذا المسجد الأقصى صلى رسول الله ﷺ إماما برسل الله الكرام فى ليلة الإسراء والمعراج . وحينما كلف رسول الله بالرسالة ، كان المسجد أسيرا فى أيدى طواغيت الروم ، لذلك فقد حرص ﷺ على إعطاء إشارة البدء لتطهيره والأرض كلها من رجس الشرك ورجس الوثنية .

لذلك لم يكن مصادفة أن يوجه الرسول ﷺ جيشا بقيادة مولاه زيد بن حارثة لقتال الغساسنة وجيوش الروم التى تجمعت عند مؤتة عام ٨ هـ ، وفيها استشهد زيد وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبى طالب .

وفى عام ٩ هـ خرج رسول الله ﷺ بنفسه على رأس جيش من المسلمين إلى تبوك ، فصالحه أهلها وجاءت الوفود من آيلة وغيرها ، وصالحوه على دفع الجزية ... كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجند إلى أكيدر دومه فأسر صاحبها وصالحه على الجزيـــة .

وقد واصل الرسول ﷺ جهاده للقضاء على طواغيت الأرض لتخلص الأرض ومن عليها لله الواحد القهار ... فأرسل رسالة إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام : بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم ، السلام على من اتبع الهدى أما بعد ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وإن تتول فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ ، لم يتردد المسلمون لحظة واحدة فى تنفيذ ما أراده الله لهم وللأمة المسلمة .. لم ترهبهم عدة الروم ولا عتادهم ، ولم يخشوا الموت ... لأن لقاء الله كان أفضل إليهم من العيش أذلاء يتبعون الشرق

أو الغرب وكان شعارهم : إمَّا الشهادة فى سبيل الله أو تحقيق النصر ....

فسير أبو بكر رضى الله عنه – جيش أسامة وكان قائدا لجيش المسلمين – ولاه رسول الله وعنده من العمر ثمانى عشرة سنة .. وكان النصر حليفه ..

وأوفد أبو بكر رضى الله عنه جيشا آخر عقد اللواء لأربعة من الأمراء فيه هم : أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن ، على أن تكون القيادة العامة لأبى عبيدة .

وخرج جند الرحمن يقاتلون طواغيت الأرض حتى تخلص الأرض لله ، ويكون الدين لله ، ثم انضم إليهم – بعد ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد – رضوان الله عليهم أجمعين .

وكانت معارك عديدة كتب فيها النصر للمسلمين على الكافرين من الروم وغيرهم . رغم قلة عدة المسلمين وعتادهم ، لأن معهم قوة الله تؤيدهم بعد أن آمنوا وأعدوا ما فى استطاعتهم .

وما يهمنا أن نسرده هنا هو فتح فلسطين .. بما فيها بيت المقدس على أيدى عمرو وأبى عبيدة بن الجراح – وذلك بعد هزيمة الروم وفرارهم وطلب أهلها التسليم على أن يكون ذلك فى حضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ... فرضى عمر بن الخطاب ، وغادر المدينة وحده ... ولم يأخذ معه من الزاد سوى قربة ماء وجراب شعير وأرز وتمر ، وأخذ عمر فى السير ليل نهار ليصل إلى القدس فى وقت قصير ، فلما دخلها أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم ...

عمر بن الخطاب يتسلم القدس ... وهو على بغلة ... لا مواكب ... لا ضجة ... لا تعالى ...

إن تذكر القدس .. والأرض التى بارك الله فيها ، يعيد إلى الذاكرة سيرة المسلمين الأوائل مع أعداء الله ... لا ذلة ... لا خضوع ... لا خضوع إلا لله

الواحد القهار ... إن تذكر القدس يعيد إلى النفس ذكرى إبراهيم ويوشع بن نون وداود وسليمان وكتاب عمر إلى هرقل يطالبه فيه بإطلاق سراح قائد مسلم أسره الروم فى إحدى الوقائع :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله ، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم أطلقوا الأسير المسلم – عبد الله بن حذافة – حين وصول كتابى هذا إليكم ، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديكم الصراط المستقيم . وإن لم تفعلوا فإننى أبعث إليكم رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله . والسلام على من اتبع الهدى) ..

ولم يكن أمام قيصر هرقل من سبيل إلا إطلاق الأسير مصحوبا بهدية إلى الخليفة عمر بن الخطاب ... هؤلاء هم المسلمون ، الذين كانوا يوقنون أن الإمارة أمانة ، وأنها يوم القيامة خزى وندامة .

وحينما وصل عمر إلى القدس ، كتب عمر لأهل القدس وثيقة الأمان التى عرفت « بالعهدة العمرية » ونصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها .

أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما تعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية . ومن أحب أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، فمن شاء منهم قعد ... وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى

يحصدوا حصادهم ... وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية) .

« كتب سنة ١٥ للهجرة ، وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان » .

إن هذه المشاعر تضطرم وتتزاحم فى الصدر والرأس عند الحديث عن القدس الأسيرة . أين القدس أين مسرى رسولنا عليه السلام ؟ .. أين فلسطين الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ؟ .. أين أرض المسلمين كلها ؟ . إنّها فى أيدى عصابات الصهيونية والصليبية العالمية ... أين أبناء المسلمين ... إنها تستصرخ الزمرة التى نذرت نفسها لله ؟ .. إنها تهيب بالرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله ؟ .. أن يجاهدوا فى سبيل الله لتحريرها .

إن النبوة والرسالة اصطفاء من الله عز وجل ، لتبليغ أوامر الله سبحانه وتعالى إلى بنى البشر عن طريق الوحى .

أى أن النبوة والرسالة ، لم تكن من اختراع العقل البشرى كما زعم فلاسفة اليونان ، وكتاب اليهود والنصارى ..

إن توحيد الله – سبحانه وتعالى – مفطور عليه بنو البشر جميعا ، بل ومخلوقات الله جميعا ، بما فى ذلك السموات والأرضين .. وليس ما زعمه كتاب اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم من أن إخناتون هو أول الموحدين ، فهذا غير صحيح ، فالكون كله مفطور على توحيد الله ، وكذلك الإنسان ، كما أن إخناتون لم يكن موحداً بالمعنى الإسلامى ، إنما هو كان يعبد وثنا واحداً بدلاً من الأوثان المتعددة التى كان يعبدها قومه . وبالتالى ينهار الزعم القائل بأن إبراهيم قد أخذ فكرة التوحيد من الزعيم المصرى إخناتون .

إن الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلون ، ومنهم إبراهيم – عليه السلام – وذريته هو الإسلام : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من

ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . وإن كان لكل أمة شرعة ومنهاجاً ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ .

والإسلام هو الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

ليست هنالك صلة أو رابطة بين إبراهيم النبى المسلم وبين اليهود أو النصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين إسحاق النبى المسلم وبين اليهود والنصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين يعقوب (إسرائيل) النبى المسلم وبين اليهود أو النصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين موسى النبى المسلم وبين اليهود والنصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين داود وسليمان النبيين المسلمين وبين اليهود والنصارى .

وبالتالى ليس من حق اليهود أو النصارى أن يدعوا حق وراثة هؤلاء الأنبياء ، لأن هؤلاء الأنبياء مسلمون ، واليهود والنصارى مشركون . والكافر المشرك لا يرث مسلما حتى لو كان من صلبه ومن ذريته : ﴿ إنَّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ .

وبالتالى فلا يحق لمغتصبى الأرض المقدسة من اليهود فى فلسطين أن يدعوا حق وراثتهم لإبراهيم – عليه السلام إنَّما الذين يرثون الأرض المقدسة ، ليقيموا عليها حكم الإسلام إنَّما هم المسلمون .

وهنا يبرز المفتاح الصحيح لا سترجاع الحق المغتصب فى أرض الإسراء والمعراج ، إنه العقيدة إنه الإسلام ، وذلك لمواجهة اليهود الذين اغتصبوا الأرض الإسلامية ، وانتهكوا العرض الإسلامى وسرقوا الثروة الإسلامية ، وزعموا أنهم يفعلون ذلك لأنهم أصحاب الحق ، لأنهم ذرية إبراهيم عليه السلام ، وذريته من لدن إسحاق إلى سليمان عليهم السلام . وزيفوا التاريخ وشوهوه ليخدم فكرتهم الآثمة المجرمة .

هنا تبرز أهمية العقيدة ، التى تكشف زيف اليهود ، وتقول لهم : إن إبراهيم

وذريته ، وسليمان يبرأون إلى الله منكم فى الدنيا والآخرة .

وأن ما بيننا وبينكم ليس صراعا على الأرض أو الثروة ، وإنما هو صراع بين الحق والباطل ، بين الإسلام والعقائد الفاسدة ، وأنه لن يقر لنا قرار ، حتى تطهر أرض الإسراء والمعراج ، من اليهودية ومن كل مبدأ هدام ، حتى لو كانت القومية أو الوطنية ، لنقيم عليها فى النهاية حكم لا إله إلا الله .

وهكذا نرى أن أعداء الجماعة المسلمة وهم أطراف الكيد الشيطانى والتآمر العالمى من يهود وصليبيين يعاونهم جيش كبير من أبناء العرب والمسلمين لا يحاربونها فى الميدان بالسيف والرمح فحسب ، ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب ... إنما كانوا يحاربونها أولا فى عقيدتها ... يحاربونها بالدس والتشكيك ، ونثر الشبهات كما يفعل المستشرقون — وتدبير المؤامرات والمناورات ، كانوا يعمدون أولا إلى عقيدتها الإيمانية التى انبثق منها كيانها ، ومنها قام وجودها ، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين .. ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تماما .. أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها ، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهى ممسكة بعروة الإيمان ، مرتكنة إلى ركنه ، سائرة على نهجه حاملة لرايته ، ممثلة لحزبه ، منتسبة إليه معتزة بهذا النسب وحده . ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة المسلمة هو الذى يلهيها عن عقيدتها الإيمانية ، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ، يخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة . إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هى قبل كل شيء معركة هذه العقيدة ، وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوا على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات ، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها ... ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين فى خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة ، ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال وهم آمنون من عزمة العقيدة فى الصدور .

وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة ، والتشكيك فيها ، والتوهين من عراها ، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة ، ولكن لنفس الغاية القديمة : ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ فهذه هى الغاية الثابتة الدفينة ..

لهذا كان القرآن الكريم يدفع هذا السلاح المسموم أولا ... كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذى عليه ، وينفى الشبهات والشكوك التى يلقيها أهل الكتاب ، ويجلّى الحقيقة الكبيرة التى يتضمنها هذا الدين ، ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها فى هذه الأرض ، ودورها ودور العقيدة التى تحملها فى تاريخ البشرية (وهذا هو واجب المؤرخ المسلم فى مواجهة الهجمة الاستشراقية ضد الإسلام كدين ، والإسلام كواقع عملى تطبيقى فى تاريخ البشرية » .

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين ، ويكشف لها نواياهم المستترة ، ووسائلهم القذرة وأهدافهم الخطرة ... وأحقادهم على الإسلام والمسلمين لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم .

وكان يأخذ بتقرير حقيقة القوى وموازينها فى هذا الوجود ، فبين لها هزال أعدائها وهوانهم على الله ، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل ، وقتلهم الأنبياء كما بين لها أن الله معها ، وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك ... وأنه سيأخذ الكفار بالعذاب والنكال كما أخذ المشركين .

ومن هنا فإن كتابات التاريخ الإسلامى تعكس لنا جانبا من جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة .. وهو ليس صراعا نظريا إنما هو الجانب النظرى من المعركة الكبيرة الشاملة بين الجماعة المسلمة وكل أعدائها الذين يتربصون بها ، ويتحفزون من حولها ، ويستخدمون فى حربها كل الأسلحة وكل الوسائل وفى أولها زعزعة العقيدة ، وهى فى صميمها المعركة التى لا تزال

ناشبة إلى هذه اللحظة بين الأمة المسلمة وأعدائها . إنهم هم الملحدون المنكرون ، والصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية .

إن على المؤرخ المسلم أن يراجع القرآن ثم أحداث التاريخ الإسلامى ، لأن مراجعة القرآن ثم أحداث التاريخ الإسلامى سوف تبين له أن الوسائل هى الوسائل كذلك ، والأهداف هى الأهداف ، ويتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة ، ومرجع هذه الأمة – اليوم وغدا – كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس فى نشأتها الأولى ... وأنه لا يعرض عن استنصاح هذا الناصح ، واستشارة هذا المرجع فى المعركة الناشبة اليوم إلا مدخول معرض عن سلاح النصر فى المعركة ، ويخدع نفسه أو يخدع الأمة ، لخدمة أعدائها القدامى والمحدثين فى غفلة بلهاء ، أو فى خبث لئيم .

﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ .. ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ .

﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ .

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ﴾[1] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾[2] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾.

---

(١) آل عمران : ٩٨ .
(٢) آل عمران : ١٠٠ – ١٠١ .

وثائق
سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام
وثائق
عن تاريخ البيت العتيق ومكة المكرمة والحرم الآمن

أولا : من القرآن الكريم وكتب التفسير :

سورة البقرة (١) :

يطالعنا القرآن الكريم فى أول سورة منه بأنباء عن إبراهيم عليه السلام ، بصورة تؤدى دورا هاما فيما شجر ويشجر بين اليهود والجماعة المسلمة فى يثرب من نزاع حاد متشعب الأطراف .

إن أهل الكتاب (وخاصة اليهود) يدعون بأنهم يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق – عليهما السلام – ويعتزون بنسبتهم إليه وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة ، وعهده معه ومع ذريته من بعده . ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين ، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان ما يعملون .

وإن قريشا لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل – عليهما السلام – وتعتز بنسبتها إليه ، وتستمد منها القوامة على البيت ، وعمارة المسجد الحرام ، وتستمد كذلك سلطانها الدينى على العرب ، وفضلها وشرفها ومكانتها .

والآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والحديث عن البيت الحرام وبنائه عمارته وشعائره .. فى جوه المناسب ، لتقرير الحقائق الخالصة

---

(١) ١٢٤ – ١٤١ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ وما بعدها ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٦٤ وما بعدها ، في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ١١٠ – ١١٩ .

فى ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعا حول هذه النسب وهذه الصلات . ولتقرير قضية القبلة التى ينبغى أن يتجه إليها المسلمون .. كذلك تجىء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم – وهى التوحيد الخالص – وبعد ما بينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التى عليها أهل الكتاب والمشركون سواء ، وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب – وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه – وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر رسالة . ولتقرير وحدة دين الله ، واطراده على أيدى رسله جميعا ، ونفى فكرة احتكاره فى أيدى أمة أو جنس ، وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء . وإن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة . "فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها فى أى جيل ومن أى قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب ! فالدين دين الله . وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب" ولا صهر !!!

هذه الحقائق التى تمثل شطرا من الخطوط الأساسية فى التصور الإسلامى يجلوها القرآن الكريم هنا فى نسق من الأداء عجيب ، وفى عرض من الترتيب والتعبير بديع .. يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم – عليه السلام – منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاه وتنصيبه للناس إماما .. إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد – ﷺ – استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام ، فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعا ، بذلك السبب الوحيد الذى تقوم عليه وراثة العقيدة . سبب الإيمان بالرسالة ، وحسن القيام عليها ، والاستقامة على تصورها الصحيح .

وفى ثنايا هذا العرض التاريخى يبرز السياق ، أن الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله وحده – كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة .. هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ... ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين .. فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها ، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته .

عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى فى اصطفائهم واجتبائهم ، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ! لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة .. وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته ، لأنهم قد فقدوا حقهم فى وراثة بانى هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته .. ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التى ينبغى أن يتجه إليها المسلمون . فالكعبة هى قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم ..

كل ذلك فى نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب ، حافل بالإشارات الموحية والوقفات العميقة الدلالة ، والإيضاح القوى التأثير . فلنأخذ فى استعراض هذا النسق العالى فى ظل هذا البيان المنير .

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾[1] ..

﴿ قال إنى جاعلك للناس إماما ﴾ .

﴿ قال ومن ذريتى ﴾ ..

وجاءه الرد من ربه الذى ابتلاه واصطفاه ، يقرر القاعدة الكبرى التى أسلفنا .. أن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل وبالشعور ، وبالصلاح والإيمان ، وليست وراثة أصلاب وأنساب . فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، إنما هى وشيجة دين وعقيدة . ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هى إلا دعوى الجاهلية ، التى تصطدم اصطداما أساسيا بالتصور الإيمانى الصحيح .

﴿ قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ ..

والظلم أنواع وألوان : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغى .. والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معانى الإمامة : إمامة الرسالة وإمامة الخلافة ، وإمامة الصلاة .. وكل معنى من معانى الإمامة والقيادة . فالعدل بكل

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ – ٥٣٢ .

معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة فى أية صورة من صورها . ومن ظلم - أى لون من الظلم - فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها ، بكل معنى من معانيها .

وهذا الذى قيل لإبراهيم - عليه السلام - وهذا العهد بصيغته التى لا التواء فيها ولا غموض قاطع فى تنحية اليهود عن القيادة والإمامة ، بما ظلموا ، وبما فسقوا ، وبما عتوا عن أمر الله ، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم .

وهذا الذى قيل لإبراهيم - عليه السلام - وهذا العهد بصيغته التى لا التواء ولا غموض قاطع كذلك فى تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم . بما ظلموا ، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله ، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم .. ودعواهم الإسلام ، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة ، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله .

إن التصور الإسلامى يقطع الوشائج والصلات التى لا تقوم على أساس العقيدة والعمل . ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا انبتت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل .. وهو يفصل بين جيل من الأمة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر فى عقيدته ، بل يفصل بين الوالد والولد ، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة . فعرب الشرك شىء وعرب الإسلام شىء آخر . ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة . والذين آمنوا من أهل الكتاب شىء والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسى وعيسى شىء آخر ، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة .. إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفادا .. إنما هى هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة . وأن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين .. إنما هى مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم .. وهذا هو التصور الإيمانى الذى ينبثق من خلال هذا البيان الربانى ، فى كتاب الله الكريم ..

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾[١] ..

هذا البيت الحرام الذى قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره .. لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعا ، فلا يروعهم أحد ، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم . فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام .

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى – ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره فى تفسيره – فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعى ، الذى لا يثير اعتراضا . وهو أول قبلة يتوجه إليها المسلمون ، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح ، بما إنه بيت الله لا بيت أحد من الناس . وقد عهد الله – صاحب البيت – إلى عبدين من عباده الصالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع والسجود – أى للحجاج الوافدين عليه ، وأهله العاكفين فيه ، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكا لهما ، فيورث بالنسب عنهما ، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما ، لإعداده لقصاده من المؤمنين .

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[٢] ..

ومرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت . ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير .. إن إبراهيم قد أفاد من عظة ربه له فى الأولى . لقد وعى منذ أن قال له ربه : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ .. وعى هذا الدرس ..

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٣٢ – ٥٤١ .

(٢) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٤١ – ٥٤٦ .

فهو هنا ، فى دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات ، يحترس ويستثنى ويحدد من يعنى :

﴿ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .

إنه إبراهيم الأواه الحليم القانت المستقيم ، ويتأدب بالأدب الذى علمه ربه ، فيراعيه فى طلبه ودعائه .. وعندئذ يجيئه رد ربه مكملا ومبينا عن الشطر الآخر الذى سكت عنه . شطر الذين لا يؤمنون ، ومصيرهم الأليم :

﴿ قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ ..

ثم يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذى تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود .. يرسمه مشهودا كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما فى آن :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1] ..

إن التعبير يبدأ بصيغة الخبر .. حكاية تحكى :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ .

وبينما نحن فى انتظار بقية الخبر ، إذ بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينا إياهما ، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال . أنهما امامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان :

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٤٦ - ٥٥٨ .

ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ..

فنعمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء .. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة .. وتلك إحدى خصائص التعبير القرآنى الجميل . رد المشهد الغائب الذاهب . حاضرا يسمع ويرى ، ويتحرك ويشخص ، وتفيض منه الحياة .. إنها خصيصة « التصوير الفنى » بمعناه الصادق ، اللائق بالكتاب الخالد .

وماذا فى ثنايا الدعاء ؟ إنه أدب النبوة ، وإيمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة فى هذا الوجود . وهو الآدب والإيمان والشعور الذى يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء . وأن يعمقه فى قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء :

﴿ ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم ﴾ ..

إنه طلب القبول .. هذه هى الغاية .. فهو عمل خالص لله . الاتجاه به فى قنوت وخشوع إلى الله . والغاية المرتجاة من ورائه هى الرضا والقبول .. والرجاء فى قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء . عليم بما وراءه من النية والشعور .

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾.

إنه رجاء العون من ربهما فى الهداية إلى الإسلام ، والشعور بأن قلبيهما بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن الهدى هداه ، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا بالله ، فهما يتجهان ويرغبان ، والله المستعان .

ثم هو طابع الأمة المسلمة .. التضامن .. تضامن الأجيال فى العقيدة : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ .. وهى دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن . إن أمر العقيدة هو شغله الشاغل ، وهو همه الأول . وشعور إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بقيمة النعمة التى أسبغها الله عليهما .. نعمة الإيمان .. تدفعهما إلى الحرص عليها فى عقبهما ، وإلى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذى لا يكافئه إنعام .. لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان ، وأن يريهم جميعا

مناسكهم ، ويبين لهم عباداتهم ، وأن يتوب عليهم . بما أنه هو التواب الرحيم .

ثم ألا يتركهم بلا هداية فى أجيالهم البعيدة :

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيتـك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ..

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هى بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون . بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الأرجاس والأدناس . إن الدعوة المستجابة تستجاب ولكنها تتحقق فى أوانها الذى يقدره الله بحكمته . غير أن الناس يستعجلون ! وغير الواصلين يملون ويقنطون .

وبعد فإن لهذا الدعاء دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف أن إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله إليهما برفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين ، وهما أصل سادنى البيت من قريش .. أنهما يقولان باللسان الصريح .: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ .. ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ .. كما يقولان باللسان الصريح : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ .. وهما بهذا يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ووراثتها للبيت الحرام سواء . وإذن فهو بيتها الذى تتجه إليه وهى أولى به من المشركين ، وهو أولى بها من قبله اليهود والمسيحيين !

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى ، ويدعم دعاواه العريضة فى الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة ، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش . فليسمع أن إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة ، قال له ربه : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ .. ولما أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خص بدعوته : ﴿ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .. وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما فى بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما : أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث فى أهل بيته رسولا منهم .. فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله ، وحقق على يديه الأمة المسلمة

القائمة بأمر الله . الوارثة لدين الله .

وعند هذا المقطع من قصة إبراهيم ، يلتقط السياق دلالته وإيحاءه ، ليواجه بهما الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة ، وينازعون الرسول - ﷺ - النبوة والرسالة ، ويجادلون فى حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة :

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(١) ..

هذه هى ملة إبراهيم .. الإسلام الخالص الصريح .. لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها .. إبراهيم اصطفاه ربه فى الدنيا إماما ، وشهد له فى الآخرة بالصلاح .. اصطفاه ﴿ إذ قال له ربه أسلم ﴾ .. فلم يتلكأ ، ولم يرتب ولم ينحرف ، واستجاب فور تلقى الأمر .

﴿ قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ ..

هذه هى ملة إبراهيم .. الإسلام الخالص الصريح .. ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها فى عقبه ، وجعلها وصيته فى ذريته ، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه . ويعقوب هو إسرائيل الذى ينتسبون إليه ، ثم لا يلبون وصيته ووصية جده وجدهم إبراهيم .

ولقد ذكر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم فى اختياره الدين لهم : ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ .

فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقل ما توجبه رعاية الله لهم ، وفضل الله عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، والحرص على ما اختاره لهم ، والاجتهاد فى ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم :

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٥٨ - ٥٦٢ .

﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ..

وها هى ذى الفرصة سانحة ، فقد جاءهم الرسول الذى يدعوهم إلى الإسلام ، وهو ثمرة الدعوة التى دعاها أبوهم إبراهيم ..

* * *

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه ووصية يعقوب لبنيه .. الوصية التى كررها يعقوب فى آخر لحظة من لحظات حياته ، والتى كانت شغله الشاغل الذى لم يصرفه عنه الموت وسكراته فليسمعها بنو إسرائيل :

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلـٰهك وإلـٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـٰهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾[1] ..

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه فى لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوى الإيحاء ، عميق التأثير .. ميت يحتضر .. فما هى القضية التى تشغل باله فى ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذى يعنى خاطره وهو فى سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذى يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ما هى التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم فى محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات ؟ .. إنها العقيدة .. هى التركة . وهى الذخر . وهى القضية الكبرى ، وهى الشغل الشاغل ، وهى الأمر الجلل ، الذى لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته :

﴿ ما تعبدون من بعدى ﴾ ..

هذا هو الأمر الذى جمعتكم من أجله . وهذه هى القضية التى أردت الاطمئنان عليها . وهذه هى الأمانة والذخر والتراث ..

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٢ – ٥٦٣ .

﴿ قالوا : نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ .

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه . إنهم يتسلمون التراث ويصونونه . إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه . وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية فى أبناء يعقوب . وكذلك هم ينصون نصا صريحا على أنهم « مسلمون ». والقرآن يسأل بنى إسرائيل : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾ .. فهذا هو الذى كان ، يشهد به الله ، ويقرره ، ويقطع به كل حجة لهم فى التمويه والتضليل ، ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل !

وفى ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التى خلت والجيل الذى كانت تواجهه الدعوة .. حيث لا مجال لصلة ، ولا مجال لوراثة ، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين :

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾[1] ..

فلكل حساب ، ولكل طريق ، ولكل عنوان ، ولكل صفة .. أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين . إن هذه الأعقاب ليست امتداد لتلك الأسلاف هؤلاء حزب وأولئك حزب . لهؤلاء راية ولأولئك راية .. والتصور الإيمانى فى هذا غير التصور الجاهلى .. فالتصور الجاهلى لا يفرق بين جيل من الأمة وجيل ، لأن الصلة هى صلة الجنس والنسب . أما التصور الإيمانى فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق ، فليسا أمة واحدة ، وليس بينهما صلة ولا قرابة .. إنهما أمتان مختلفتان فى ميزان الله ، فهما مختلفتان فى ميزان المؤمنين . إن الأمة فى التصور الإيمانى هى الجماعة التى تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض ، وليست هى الجماعة التى تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة . وهذا هو التصور اللائق بالإنسان ، الذى يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية ، لا من التصاقات الطين الأرضية !

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٣ - ٥٦٦ .

فى ظل هذا البيان التاريخى الحاسم ، لقصة العهد مع إبراهيم وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين ، ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين ، يناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين ، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم ، فيبدو هذا كله ضعيفا شاحبا كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل . كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها المتعنتون . ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ..

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعا ، وبين الرسل جميعا ، هى قاعدة التصور الإسلامى وهى التى تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله فى الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة فى الدرب على هدى ونور . والتى تجعل من النظام الإسلامى النظام العالمى الذى يملك الجميع الحياة فى ظله دون تعصب ولا اضطهاد . والتى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعا مفتوحا للناس جميعا فى مودة وسلام .

ومن ثم يقرر السياق الحقيقة الكبيرة ، ويثبت عليها المؤمنين بهذه العقيدة . حقيقة أن هذه العقيدة هى الهدى . ومن اتبعها فقد اهتدى . ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصل ثابت ، ومن ثم يظل فى شقاق مع الشيع المختلفة التى لا تلتقى على قرار :

﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ﴾ ..

وهذه الكلمة من الله ، وهذه الشهادة منه سبحانه ، تسكب فى قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه . فهو وحده المهتدى . ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادى للهدى . ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدى ولا يؤمن ، ولا عليه من كيده ومكره . ولا عليه من جداله ومعارضته . فالله سيتولاهم عنه ، وهو كافيه وحسبه :

﴿ فسيكفيكهم الله . وهو السميع العليم ﴾ [1] ..

إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته ، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه ، والعلامة التى يضعها الله على أوليائه ، فيعرفون بها فى الأرض :

﴿ صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾[2] ..

صبغة الله التى شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر . لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان .

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآنى ذات الدلالة العميقة .. إن صدر هذه الآية من كلام الله التقريرى : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ .. أما باقيها فهو من كلام المؤمنين . يلحقه السياق – بلا فاصل – بكلام البارىء سبحانه فى السياق وكله قرآن منزل . ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله ، والشطر الثانى حكاية عن قول المؤمنين . وهو تشريف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله فى سياق واحد ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم ، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم . وأمثال هذا فى القرآن كثير . وهو ذوى مغزى كبير .

ثم تمضى الحجة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة :

﴿قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾[3] ..

ولا مجال للجدل فى وحدانية الله وربوبيته . فهو ربنا وربكم . ونحن محاسبون بأعمالنا ، وعليكم وزر أعمالكم . ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئا ، ولا نرجو معه واحدا . وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم ، وهو غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج ..ومن ثم يضرب السياق

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٦٨ – ٥٧٠ .
(٢) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧٠ – ٥٧٢ .
(٣) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧٢ .

عنه وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل يظهر أنه هو الآخر غير قابل للجاجة والمحال :

أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ وهم كانوا أسبق من موسى ، وأسبق من اليهودية والنصرانية . والله يشهد بحقيقة دينهم – وهو الإسلام كما سبق البيان :

﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[1] ..

وهو سؤال لا جواب عليه ! وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه !

ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية . وكانوا على الحنيفية الأولى التى لا تشرك بالله شيئا ، ولديكم كذلك شهادة فى كتبكم أن سيبعث نبى فى آخر الزمان دينه الحنيفية ، دين إبراهيم . ولكنكم تكتمون هذه الشهادة :

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾..

والله مطلع على ما تخفون من الشهادة التى أئتمنتم عليها ، وما تقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها :

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ..

وحين يصل السياق إلى هذه القمة فى الإفحام ، وإلى هذا الفصل فى القضية وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة فى كل اتجاه ... عندئذ يعيد الفاصلة التى ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين :

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ .

---

(١) جامع البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧٣ – ٥٧٥ .

وفيها فصل الخطاب ، ونهاية الجدل ، والكلمة الأخيرة فى تلك الدعاوى الطويلة العريضة .

آيات أخرى من القرآن الكريم فيها ذكر إبراهيم عليه السلام وشعائر الحج :

سورة البقرة (١) :

﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ .

---

(١) ١٥٨ ، في هذه الآية بيان عن موضوع الصفا والمروة بسبب ما كان يلابس هذا الموضوع من تقاليد الجاهلية :

وهناك عدة روايات عن سبب نزول هذه الآية ، أقربها إلى المنطق النفسى المستفاد من التصور الذى أنشأه الإسلام فى نفوس المجموعة السابقة إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار .. الرواية التى تقول : أن بعض المسلمين تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة فى الحج والعمرة ، بسبب أنهم كانوا يسعون بين هذين الجبلين فى الجاهلية ، وأنه كان فوقهما صنمان هما أساف ونائلة . فكره المسلمون أن يطوفوا كما كانوا يطوفون فى الجاهلية .

قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنسا عن الصفا والمروة قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما . فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾.. وقال الشعبى : كان أساف على الصفا ، وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية .

ولم يرد تحديد لتاريخ نزول هذه الآية . والأرجح أنها نزلت متأخرة عن الآيات الخاصة بتحويل القبلة . ومع أن مكة قد أصبحت دار حرب بالنسبة للمسلمين ، فإنه لا يبعد أن بعض المسلمين كانوا يتمكنون أفرادا من الحج ومن العمرة . وهؤلاء هم الذين تحرجوا من الطواف بين الصفا والمروة ... وكان هذا التحرج ثمرة التعليم الطويل ، ووضوح التصور الإيمانى فى نفوسهم ، هذا الوضوح الذى يجعلهم يتحرزون ويتوجسون من كل أمر كانوا يزاولونه فى الجاهلية . إذ أصبحت نفوسهم من الحساسية فى هذه الناحية بحيث تفزع من كل ما كان فى الجاهلية ، وتتوجس أن يكون منهيا عنه فى الإسلام ، والأمر الذى ظهر بوضوح في مناسبات كثيرة ..

كانت الدعوة الجديدة قد هزت أرواحهم هزا وتغلغلت فيها إلى الأعماق ، فأحدثت فيها انقلابا نفسيا وشعوريا كاملا ، حتى لينظرون بجفوة وتحرز إلى ماضيهم فى الجاهلية ، ويحسون أن هذا شطر من حياتهم قد انفصلوا عنه انفصالا كاملا ، فلم يعد منهم ، ولم يعودوا منه ، وعاد دنسا ورجسا يتحرزون فى الإلمام به !

وإن المتابع لسيرة هذه الفترة الأخيرة فى حياة القوم ليحس بقوة أثر هذه العقيدة العجيب فى تلك النفوس .

آل عمران (١) :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ .

﴿ يا أهل الكتاب لما تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ (٢) .

﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ (٣) .

﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ (٤) .

(٢) الأنعام (٧٤ - ٨٣) (٥) :

فى هذه السورة نرى فطرة إبراهيم عليه السلام تنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام ، وتؤكد له أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مُدَبَّرَة ، مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ، ولا تخفى عليه خافية ؛ بل هو الدائم الباقي بلا زوال ؛ ولا إله

---

(١) ٣٣ - ٣٤ ؛ يقول : الطبرى لأنهم كانوا أهل الإسلام ، جامع البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٣٤ .

(٢) ٦٥ ؛ جامع البيان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٦ .

(٣) ٦٧ - ٦٨ ؛ جامع البيان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٦ - ٣١٠ .

(٤) ٩٥ - ٩٧ ؛ يقرر الله سبحانه وتعالى هنا أن الاتجاه للكعبة هو الأصل ، فهى أول بيت وضع فى الأرض للعبادة ، انظر جامع البيان ، جـ ٤ ، ص ٦ - ٢١ .

(٥) جامع البيان ، جـ ٧ ، ص ٢٤٢ - ٢٥٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ - ١٥٣ ، فى ظلال القرآن ، المجلد الثانى ، ص ١١٣٥ - ١١٤٣ .

إلا هو ، ولا رب سواه . فبين لهم أولا عدم صلاحية الكواكب . قيل هى الزهرة ، ثم ترقى منها ، إلى القمر الذى هو أضوأ منها ، وأبهى من حسنها ، ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياء ، وسناء ، وبهاء ، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة . ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آذر أتتخذ أصناماً آلهةً إنِّى أراكَ وقومكَ فى ضلالٍ مبين . وكذلكَ نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السموات والأرضِ وليكونَ من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربِّى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربِّى فلما أفل قال لئن لَمْ يهدنى ربى لأكوننَّ من القوم الضالِّين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربِّى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنِّى برىء مما تشركون . إنِّى وجهتُ وجهىَ للذِى فطرَ السموٰاتِ والأرضَ حنيفا وما أنَا من المشركين . وحاجَّه قومُه قال أتحاجُّونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافونَ أنَّكم أشركتُمْ بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأىُّ الفريقين أحقُّ بالأمنِ إنْ كُنْتُم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئكَ لهم الأمنُ وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ .

نلمح فطرة إبراهيم السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة (*) ... فالإله الذى يعبد والذى يتوجه إليه العباد فى السراء والضراء ، والذى خلق الناس والأحياء .. هذا الإله فى فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنما أو حجرا ... وإذا لم تكن هذه الأصنام هى التى تخلق وترزق وتسمع وتستجيب ... وهذا ظاهر من حالها للعيان ، فما هى بالتى تستحق أن تعبد ، وما هى بالتى تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد .

وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم عليه السلام للوهلة الأولى . وهى النموذج الكامل للفطرة التى فطر الله الناس عليها ... ثم هي النموذج الكامل

(*) وقوم إبراهيم من الكلدانيين بأرض الرافدين (العراق) كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم (مصر والعراق ، ص ٣٩٥

للفطرة وهى تواجه الضلال البين فتنكره وتستنكره ، وتجهر بكلمة الحق وتصدع ، حين يكون الأمر هو أمر العقيدة :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنِّى أراك وقومَك فى ضلال مبين ﴾ .

كلمة يقولها إبراهيم – عليه السلام – لأبيه ، وهو الأواهُ الحليمُ الرضي الخلق السمح اللين ، كما ترد أوصافه فى القرآن الكريم ، ولكنها العقيدة هنا . والعقيدة فوق رابطة الأبوة والبنوة ، وفوق مشاعر الحلم والسماحة . وإبراهيم هو القدوة التى أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها . والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالا ..

وكذلك استحق إبراهيم – عليه السلام – بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة فى الكون ، والدلائل الموحية بالهدى فى الوجود .. :

﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربِّى لأكوننَّ من القوم الضالين ﴾ .

لقد باتت قضية العقيدة هى التى تشغل بالْ إبراهيم وتزحم عالمه ، وهنا يحس إبراهيم أنه فى حاجة إلى العون من ربه الحق الذى يجد توحيده مركوزا فى ضميره وفطرته ، ربه الذى يحميه ويتولى أمره :

﴿ قال لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى فلما أفلت قال ياقوم إنِّى برىء مما تشركون . إنى وَجَّهْتُ وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ .

وهنا يجد إبراهيم إلهه ، ولكن لا يجده فى كوكب يلمع ، ولا فى قمر يطلع ، ولا فى شمس تطلع .. وإنما يجده خالقا لكل ما تراه العين ، ويحسه الحس وتدركه العقول :

وهنا يجد إبراهيم في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة ، ويبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك .. وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة ، ولكنهم كانوا يشركون معه هذه الأرباب الزائفة .. وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك ، إلى الله فاطر السموات والأرض ..

ويحس إبراهيم بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه في الطريق .. ويجيء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ، وفيما انشرح له صدره من توحيد ، وليخوفوه آلهتهم التي تَنَكَّر لها أن تُنْزِلَ به سوءا .. وهو يواجههم في يقينه الجازم ، وفي إيمانه الراسخ وفي رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذى هداه :

﴿ وحاجّه قومه ، قال : أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾.

وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ؟ ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة - غير قوة الله - هزيلة ، وكل سلطان - غير سلطان الله - لا يُخاف ..

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ .

الأنعام ٨٤ - ٩٠ :

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلّا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون.أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله

فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ [1] .

إبراهيم ٣٥ - ٤١ :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى [2] وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى

---

(١) سنتناول هذه الآيات بالشرح فى رسالتنا القادمة عن ذرية إبراهيم عليه السلام (إن شاء الله) انظر تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٦ .

(٢) والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء . إبراهيم الذى يظلل سمته هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران . ومن ثم يأتى به السياق فى مشهد خاشع ، يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ويتجاوب فيه الدعاء ، فى نغمة رخية متموجة ، ذاهبة فى السماء .

﴿ وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ ..

« إن السياق يصور إبراهيم - عليه السلام - إلى جوار بيت الله الذى بناه فى البلد الذى آل إلى قريش ، فإذا بها تكفر فيه بالله ، مرتكنة إلى البيت الذى بناه بانيه لعبادة الله . فيصوره فى هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف ، ويرد الكافرين إلى الشكر ويرد الغافلين إلى الذكر ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم يقتدون بها ويهتدون » .

ويبدأ إبراهيم دعاءه :

﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ ..

فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان ، عظيمة الوقع فى حسه ، متعلقة بحرصه على نفسه ، والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا ، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم ، فكفروا النعمة ، وجعلوا لله أندادا ، وصدوا عن سبيل الله . ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن :

﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ ..

ويبدو فى دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه فى أخص مشاعر قلبه . فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه ، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه ، ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله . وأنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده . فيخرج =

من التيه والحيرة والضلال والشرود ، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء . ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب ، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد .. إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه ، فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام .

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس فى جيله وفى الأجيال التى قبله ، ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير :

﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾ ..

ثم يتابع الدعاء ... فأما من تبع طريقى فلم يفتتن بها فإنه منى ، ينتسب إلى ويلتقى معى فى الآصرة الكبرى ، آصرة العقيدة :

﴿ فمن تبعنى فإنه منى ﴾ ..

وأما من عصانى أمره إليك ...

﴿ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ ..

وفى هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ، بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته . ويلقى على الجو ظلال المغفرة والرحمة ، وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية ، فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم !

ويمضى إبراهيم فى دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادى المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التى أسكنهم فى هذا القفر الجدب ليقوموا بها :

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ .. لماذا ؟

﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ ..

فهذا هو الذى من أجله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجدب والحرمان .

﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ ..

وفى التعبير رقة ورفرفة ، تصور القلوب رفافة مجنحة ، وهى تهوى إلى ذلك البيت وأهله فى ذلك الوادى الجديب ، إنه تعبير ندى يندى الجدب برقة القلوب ..

﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ ..

عن طريق تلك القلوب التى ترف عليهم من كل فج .. لماذا ؟ ليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا ؟ نعم ! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور :

﴿ لعلهم يشكرون ﴾ ..

=وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام .. إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله ، ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض .. إنه شكر لله المنعم الوهاب .

وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة فى موقف قريش جيدة البيت المحرم فلا صلاة قائمة لله ، ولا شكر بعد استجابة الدعاء ، وهدى القلوب والثمرات ! .

ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله ، يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذى يطلع على ما فى قلوبهم من توجه وشكر ودعاء . فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء . إنما هو توجه القلب إلى الله الذى يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء :

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن : وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ ..

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ، فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر :

﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

وهبه الذرية على الكبر أوقع فى النفس . فالذرية امتداد .. وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد . وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع فى رحمته :

﴿ إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر . الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه :

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ﴾ ..

وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى فى موقف جيرة البيت من قريش . وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه ، ويدعو الله ليوفقه إليه . وهم ينأون عنها ويعرضون ، ويكذبون الرسول الذى يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده !

ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنسانا إلا عمله ، ثم مغفرة الله فى تقصيره :

﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ ..

وينتهى المشهد الطويل : مشهد الدعاء الخاشع الضارع . ومشهد تعداد النعم والشكر عليها .. في إيقاع موسيقى متموج رخى .. ينتهى بعد أن يخلع على الموقف كله ظلا وديعا لطيفا ، تهفو القلوب معه إلى جوار الله ، وتذكر القلوب فيه نعم الله . ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجا للعبد الصالح الذاكر الشاكر ، كما ينبغى أن يكون عباد الله ، الذين وجه إليهم قبيل هذا الدعاء .. =

فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

النحل (١) :

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

مريم (٤١ - ٥٥) (٢) :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن

=ولا يفوّتنا أن نلمح تكرار إبراهيم - عليه السلام - فى كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة : « ربنا » أو « رب » . فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى .. إنه لا يذكر الله - سبحانه - بصفة الألوهية ، إنما يذكره بصفة الربوبية . فالألوهية قلما كانت موضع جدال فى معظم الجاهليات - وبخاصة فى الجاهلية العربية - إنما الذى كان دائما موضع جدل هو قضية الربوبية . قضية الدينونة فى واقع الحياة الأرضية . وهى القضية العملية الواقعية المؤثرة فى حياة الإنسان . والتى هى مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك فى عالم الواقع .. فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم .. وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية فى واقع الحياة . والقرآن وهو يعرض على مشركى العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء ؛ جامع البيان ، جـ ١٤ ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٥٤٠ ؛ فى ظلال القرآن .

(١) ١٢٠ - ١٢٣ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٥٩٠ - ٥٩١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال : سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا فلّما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا . واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا . واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾.

الأنبياء :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ . وفي تسمية الأخشاب والأحجار باسم هذه التماثيل دليل رشده ، ولم يقل إنها آلهة ، واستنكر أن يعكفوا على عبادتها ، فكان جوابهم أو حجتهم : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ ..

وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقاليد الميتة ، في مقابل حرية الإيمان ، وانطلاقه للنظر والتدبر ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية . فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية ، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل :

﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ . وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة فى التقدير ، وبهذه الصراحة فى الحكم ، راحوا يسألون : ﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ ﴾[1] .

وهذا سؤال المزعزع العقيدة الذى لا يطمئن إلى ما هو عليه ، لأنّه لم يتدبره ولم يتحقق منه ، ولكنه كذلك يعطل الفكر والروح بتأثير الوهم فهو

---

(١) الأنبياء : ٥١ – ٧٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨١ – ١٨٥ .

لا يدرى أى الأقوال أحق ، والعبادة تقوم على اليقين ، لا على الوهم المزعزع الذى لا يستند إلى دليل ، وهذا هو التيه ، الذى يتخبط فيه ، من لا يدينون ، بعقيدة التوحيد ، الناصعة ، الواضحة ، المستقيمة في العقل والضمير . أما إبراهيم فهو متيقن ، واثق ، عارف بربه . يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه :

﴿قال بل ربكم رب السموٰت والأرض الذى فطرهن . وأنا على ذٰلكم من الشاهدين ﴾.

فهو رب واحد ، رب الناس ورب السموات والأرض ، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب فى الوقت الذى يقرون أنها لا تخلق .

ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار ، أنه قد اعتزم فى شأن آلهتهم أمرا لا رجعة فيه : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

وتحولت الآلهة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة إلا كبيرا للأصنام فقد تركه إبراهيم لعلهم إليه يرجعون فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة ؟ وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذا إلا ذلك الكبير ؟ ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ، ولا إلى أنفسهم يسألونها إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئا ، وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها ؟ لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال لأن الخرافة قد عطلت عقولهم ، ولأن التفكير قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر . فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع .

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ .

وعندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها ؟

﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ .

ويبدو من هذا أن إبراهيم – عليه السلام – كان شابا صغير السن حينما آتاه

الله رشده ، فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطيم .

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ وقد قصدوا التشهير به ، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد .

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ فهم لا يزالون يصرون على أنها آلهة وهى جذاذ مهشمة فأما إبراهيم فهو يتهكم منهم ويسخر منهم . وهو فرد وحده وهم كثير . ذلك أنه ينظر لعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر ، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلى الدون :

﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ . ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزا وردهم إلى شيء من التدبير والتفكير :

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ .

وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما فى موقفهم من سخف ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم ، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام :

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ .

وحقا لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس ، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس . ومن ثم يجيبهم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم ، لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم :

﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ . عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ، فيلجأون إلى القوة القاسية والعذاب الغليظ :

﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فيا لها من آلهة ينصرها عبادها ، وهى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً . ولا تحاول لها ولعبادها نصرا :

﴿ قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم ، ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ .

وقد روى أن الملك المعاصر (أورنامو ؟) قد أهلك هو والملأ من قومه عذاب من عند الله . تختلف الروايات فى تفصيلاته ، وليس لنا عليها من دليل . المهم أن قد أنجى إبراهيم من الكيد الذى أريد به وباء الكائدون له بخسارة ما بعد خسارة ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد ....

﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

وهى أرض الشام التى هاجر إليها وابن أخيه لوط . فكانت مهبط الوحي فترة طويلة ، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم ، وفيها الأرض المقدسة . والمسجد الأقصى ، وفيها بركة الخصب والرزق ، إلى جانب بركة الوحى والنبوة جيلا بعد جيل .

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ﴾ .

لقد ترك إبراهيم – عليه السلام – وطنا وأهلا وقوما . فعوضه الله الأرض المباركة وطنا خيرا من وطنه . وعوضه بابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلا خيرا من أهله ، وعوض من ذريته ، أمة عظيمة العدد ، قوما خيرا من قومه . وجعل من نسله أئمة يهدون بأمر الله وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وكانوا طائعين لله عابدين . فنعم العوض ، ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التى قسمها الله لإبراهيم . لقد ابتلاه بالضراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل .

الحـــج (١) :

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم . وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا

---

(١) ٢٥ – ٣٧ : الأساس الذى أقيم عليه المسجد الحرام يوم فوض الله إبراهيم – عليه السلام – فى بنائه ، والأذان فى الناس بالحج إليه : – ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفى عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعا سواء المقيم فيه والطارىء عليه ، لا يمنع عنه أحد ، ولا يملكه أحد .. ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة القلوب للتقوى وذكر الله والاتصال به .. وينتهى إلى ضرورة حماية المسجد الحرام من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ويغيرون الأساس الذى قام عليه ، وبوعد الله للمدافعين بالنصر متى نهضوا بالتكاليف التى تفرضها حماية العقيدة .

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد . ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ ..

وكان ذلك فعل المشركين من قريش : أن يصدوا الناس عن دين الله – وهو سبيله الواصل إليه ، وهو طريقه الذى شرعه للناس ، وهو نهجه الذى اختاره للعباد – وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام – كما فعلوا عام الحديبية – وهو الذى جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام وواحة اطمئنان . يستوى فيه المقيم بمكة والطارىء عليها . فهو بيت الله الذى يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم : « سواء العاكف فيه والباد » .

ولقد كان هذا النهج الذى شرعه الله فى بيته الحرام سابقا لكل محاولات البشر فى إيجاد منطقة حرام . يلقى فيها السلام ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ، ويجد كل أحد فيها مأواه . لا تفضلا من أحد ، ولكن حقا يتساوى فيه الجميع . =

واختلفت أقوال الفقهاء فى جواز الملكية الفردية لبيوت مكة غير المسكونة بأهلها . وفى جواز كراء هذه البيوت عند من أجاز ملكيتها .. فذهب الشافعى رحمه الله – إلى أنها تملك وتورث وتؤجر محتجا بما ثبت من أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة بأربعة آلاف درهم فجعلها سجنا . وذهب إسحاق بن راهويه – رحمه الله – إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، وقال : توفى رسول الله – ﷺ – وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة (جمع ربع) إلا السوائب ، ومن احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن . وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهم – أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وقال أيضا عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج فى عرصاتها ، فكان أول من بوب سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب فى ذلك ، فقال : انظرنى يا أمير المؤمنين إنى كنت امرأ تاجرا ، فأردت أن أتخذ لى بابين يحبسان لى ظهرى (أى ركائبى) قال : فلك ذلك إذن . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال : يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث يشاء .. وتوسط الإمام أحمد – رحمه الله – فقال : تملك وتورث ولا تؤجر . جمعا بين الأدلة (تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٤) .

وهكذا سبق الإسلام سبقا بعيدا بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان ! والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا فى هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ .. فما بال من يريد ويفعل ؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة فى التحذير ، ومبالغة فى التوكيد . وذلك من دقائق التعبير .

ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر إن فى الجملة : إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام .. فلا يذكرهم مالهم ؟ ما شأنهم ؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغنى عن كل شيء آخر فى شأنهم ، ويقرر أمرهم ومصيرهم !

ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام ، الذى يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله ، المتطهرين من الشرك .. يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم – عليه السلام – بتوجيه ربه وإرشاده . ويرجع إلى القاعدة التى أقيم عليها وهى قاعدة التوحيد . وإلى الغرض من إقامته وهو عبادة الله الواحد وتخصيصه للطائفين به والقائمين لله فيه :

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ ..

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة . عرف الله مكانه لإبراهيم – عليه السلام – وملكه أمره ليقيمه على هذا الأساس : ﴿ ألا تشرك بى شيئا ﴾ فهو بيت الله وحده دون سواه . وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيه للصلاة : ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ فهؤلاء هم الذين أنشىء البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

قول الزور . حنفاء لله غيرمشركين[1] به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها

---

(١) ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام – كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى – فيجعلون لها حرمة ، وهى ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله – فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم الله منها – كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به : ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ . وذلك كى لا تكون هنالك حرمات إلا لله ، وألا يشرع أحد إلا بإذن الله ، ولا يحكم إلا بشريعة الله .

وبمناسبة حل الانعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان . وقد كان المشركون يذبحون عليها وهى رجس – والرجس دنس النفس – والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ، ويشوب نقاءها وطهارتها كما تشوب النجاسة الثوب والمكان .

ولأن الشرك افتراء على الله وزور ، فإنه يحذر من قول الزور كافة : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ ..

ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك .. وهكذا روى الإمام أحمد – بإسناده عن فاتك الأسدى قال : صلّى رسول الله – ﷺ – الصبح فلما انصرف قام قائماً فقال : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل ، ثم تلا هذه الآية .... »

إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ .. ثم يرسم النص مشهدا عنيفا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوى إلى درك الشرك فإذا هو ضائع ذاهب بددا كأن لم يكن من قبل أبدا :

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ ..

إنه مشهد الهوى من شاهق ﴿ فكأنما خر من السماء ﴾ وفى مثل لمح البصر يتمزق ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار : ﴿ أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ فى هوة ليس قرارا .

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها فى اللفظ « بالفاء » وفى المنظر بسرعة الاختفاء .. على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير .

وهى صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إذ يفقد القاعدة الثابتة التى يطمئن إليها . قاعدة التوحيد . ويفقد المستقر الآمن الذى يثوب إليه ، فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التى تربطه بهذا الوجود الذى يعيش فيه .

ثم يعود السياق من تعظيم حرمات الله باتقائها والتحرج من المساس بها إلى تعظيم شعائر الله – وهى ذبائح الحج – باستحسانها وغلاء أثمانها ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ .

ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ، إذ إن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره . وهذه المناسك والشعائر إن هى إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته . وقد تحمل فى طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم – عليه السلام – وما تلاه . وهى ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة . فهى والدعاء والصلاة سواء .

وهذه الأنعام التى تتخذ هديا ينحر فى نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها . إن كان فى حاجة إليها يركبها ، أو فى حاجة إلى ألبانها يشربها ، حتى تبلغ محلها – أى مكان حلها – وهو البيت العتيق . ثم تنحر هناك ليأكل منها . ويطعم البائس الفقير .

« وقد كان المسلمون على عهد النبى – ﷺ – يغالون فى الهدى ، يختارونه سمينا غالى الثمن ، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله ، ومدفوعين بتقوى الله . روى عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال : أهدى عمر نجيبا فأعطى بها ثلاث مائة دينار ، فأتى النبى – ﷺ – فقال : يا رسول الله إنى أهديت نجيبا ، فأعطيت بها ثلاث مائة دينار . أفأبيعها واشترى بثمنها بدنا ؟ قال : « لا انحرها إياها » .

والناقة النجيب التى جاءت هدية لعمر – رضى الله عنه – وقومت بثلاث مائة دينار لم يكن عمر – رضى الله عنه – يريد أن يضن بقيمتها ، بل كان يريد أن يبيعها فيشترى بها نوقا أو بقرا للذبح . فشاء رسول الله – ﷺ – أن يضحى بالنجيب ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها ، ولا يستبدل بها نوقا كثيرة ، وقد تعطى لحما أكثر ، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل . والقيمة الشعورية مقصودة ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ . وهذا هو المعنى الذى لحظه رسول الله –ﷺ – وهو يقول لعمر – رضى الله عنه « انحرها إياها » هى بذاتها لا سواها !

هذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة من شتى الأمم ، إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه :

﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد . فله أسلموا وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمى الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ..

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله . ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة . إلى تلك الوجهة الواحدة . وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة .

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به ، وحتم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله . ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ..

من تقوى القلوب .. لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم مِحلها إلى البيت العتيق . ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والبدن جعلناهم لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون – لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ .

= ويعقب بتقرير الوحدانية : « فإلهكم إله واحد » .. وبالأمر بالإسلام له وحده : ﴿ فله أسلموا ﴾ .. وليس هو إسلام الإجبار والاضطرار . إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان : ﴿ وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل فى ضمائرهم ومشاعرهم . ﴿ والصابرين على ماأصابهم ﴾ . فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم . ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ . فهم يعبدون الله حق عبادته ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فهم لا يضنون على الله بما فى أيديهم ..

وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر . فهى منبثقة من العقيدة وقائمة عليها والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها . والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة ، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الإنسانية فى شتى الاتجاهات .

ويستطرد السياق فى تقرير هذا المعنى وتوكيده وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن .

﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف . فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون .. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها . ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين ﴾ ..

ويخص البدن بالذكر لأنها أعظم الهدى ، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم فجعل فيها خيرا وهى حية تركب وتحلب ، وهى ذبيحة تهدى وتطعم فجزاء ما جعلها الله خيرا لهم أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها إليه وهى تهيأ للنحر بصف أقدامها : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ واطمأنت على الأرض بموتها أكل منها أصحابها استحبابا . وأطعموا منها الفقير القانع الذى لا يسأل والفقير المعتر الذى يتعرض للسؤال . فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة : ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ ..

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه . إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها – لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة (انظر تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢١٥ – ٢٢٤ .

الشعراء (٦٩ - ٨٩) :

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . ربِّ هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [1] .

النمل (٩١ - ٩٣) :

﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[2] .

العنكبوت (١٦ - ٢٧) :

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٢) وكان أهل مكة قبل رسالة محمد يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت . ثم لا يوحدون الله فى حرمه وأقام حياتهم كلها عليه . انظر جامع البيان ، جـ ٢٠ ، ص ٢٤ - ٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٧٨ .

سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (١) . ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ (٢) .

الصافات (٣) :

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربّه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين . وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤٠٧ - ٤١١ .
(٢) ٦٧ ، انظر جامع البيان ، جـ ٢١ ، ص ١٣ - ١٤ .
(٣) ٨٣ - ١١٣ ؛ جامع البيان ، جـ ٢٣ ، ص ٦٩ - ٧٦ .

كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ (١) .

ص : (٤٥ - ٤٨) :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكُلٌّ من الأخيار ﴾ .

الممتحنة (٤ - ٦) :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بِرءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾(٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٠ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

ثانيا : الحديث الشريف :

- إبراهيم عليه السلام فى مصر ؟
- جبار مصر يخدم إبراهيم هاجر
- إسماعيل يتربى بجوار بيت الله الحرام .
- إبراهيم (عليه السلام) يعود ليرى ابنه شابا متزوجا .
- إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت.

١ - « عن أبى هريرة (١) - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ . قال بينما هو (أى إبراهيم عليه السلام) ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه يسأله عنها . فقال من هذه قال أختى ، فأتى سارة قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته إنك أختى فلا تكذبيننى ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلقه ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجبته ، فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان إنما آتيتمونى بشيطان فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيا ، قالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره وأخدم هاجر ، قال أبو هريرة ، تلك أمكم يا بنى ماء السماء » .

٢ - وقال النبى (٢) ﷺ : « قال إبراهيم لامرأته هذه أختى وذلك فى الله » :

* إبراهيم وهاجر ينزلون بجوار بيت الله الحرام .
* إسماعيل يصل مع أبويه طفلا رضيعا .

---

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٧١ ، جـ ٩ ، ٢٨ ؛ جامع البيان ، جـ ٢٨ ، ص ٩٣ - ١٠٣ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٨٨ - ٣٩٥ .

(٢) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٩ ، ٢٨ .

* رحيل إبراهيم عليه السلام وتركه زوجه هاجر وابنه إسماعيل .
* هاجر تسعى بين الصفا والمروة بحثا عن الماء لطفلها الرضيع .
* الله سبحانه وتعالى يرسل ملكا يفجر ماء زمزم ، لتشرب الأم ويرضع الطفل .
* جرهم ينزلون بجوار البيت بعد إذن أم إسماعيل .

عن سعيد بن جبير (1) قال ما هكذا حدثنى ابن عباس قال : أقبل إبراهيم بإسماعيل وأمه عليهم السلام وهى ترضعه معها شنة لم يرفعه ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل .

قال ابن عباس أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ، وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قضى إبراهيم منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ، الذى ليس فيه إنس ، ولا شىء ، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له آلله الذى امرك بهذا ؟ . قال : نعم قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حتى لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه قال : رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع حتى بلغ يشكرون ، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه . فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس : قال النبى ﷺ فذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا

---

(1) جامع البيان ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٧٦ وما بعدها ؛ صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٤ ، ١٧٢ - ١٧٥ ؛ فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٥ - ٤٠٧ .

فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت ، فسمعت أيضا ، فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ وسلم يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء ، لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه . وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ ، فقالت : نعم ولكن لاحق لكم في الماء ، قالوا : نعم ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشر نحن في ضيق وشدة ، فشكت إليه وقال : فإذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا .. فقال : هل جاءكم من أحد ؟ ، قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت نعم : أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول غير عتبة بابك ، قال : ذاك أبي ، وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك فطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا قال : كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله . فقال : ما طعامكم ؟

قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء. قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال : النبي ﷺ ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلالم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه يثبت ، عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل ؟ أتاكم من أحد قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال : ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

المصــادر والمراجــع

المصـادر المعتمدة :

القرآن الكريم وما يتصل به من كتب التفسير :

- جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، (الشهير بتفسير الطبرى) ، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ، مكتبة الحلبى ، القاهرة ١٣٨٨ هـ .
- الجامع لأحكام القرآن ، (الشهير بتفسير القرطبي) تأليف أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٩٦٦ م .
- تفسير القرآن العظيم ، (الشهير بتفسير ابن كثير) ، تأليف الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) ، دار الفكر ، بيروت .
- فى ظلال القرآن ، تألف سيد قطب . دار الشروق بيروت ١٣٩٣ هـ .

صحيح الحديث وشروحها :

- صحيح أبى عبد الله البخارى ، تأليف أبى عبد الله البخارى ، مكتبة المشهد الحسينى ، القاهرة .
- مختصر صحيح مسلم ، للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى بن سلامة المنذرى الدمشقى ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ط ٣ ، المكتب الإسلامي ١٣٩٥ هـ .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، المكتب

الإسلامى صحيح الجامع الصغير وزيادته تأليف محمد ناصر الدين الألبانى المكتب الإسلامى .

- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، تأليف أحمد بن علي بن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) ، عاون فى طبعه وإخراجه محمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت .
- مفتاح كنوز السنة ، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبدالباقى .
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ، ومسند أحمد بن حنبل : ابتدأ ترتيبه وتنظيمه ونشره أ . ى . ونسنك ، و ى . ب . منسنج ، واتبع نشره ى . بروخمان ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٦٩ م .

مصادر متنوعه :

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تأليف أبي الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى ، البغدادى الماوردى (٤٥٠ هـ) ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ١٣٨٠ هـ/ط ١٩٦٠ م .
- الأحكام السلطانية ، تصنيف القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن خلف ابن أحمد الفراء البغدادى الحنبلي (٤٥٨ هـ) ، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- الإسلام : تأليف سعيد حوى .
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لتقي الدين بن تيمية ، ط ٤ ، دار الكتاب العربى ، مصر ١٩٦٩ م .
- البداية والنهاية ، تأليف الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقى ، مكتبة المعارف ، بيروت .
- السيرة النبوية ، نفس المؤلف السابق الذكر ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٦ هـ .

- تلبيس إبليس : لابن الجوزى البغدادى .
- زاد المعاد فى هدى خير العباد محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، تأليف ابن قيم الجوزية ، القاهرة .
- شرح العقيدة الطحاوية ، للإمام الفقيه المحدث ابن أبى العز الحنفى ، شرح وحقق أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني وجماعة من العلماء ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، دمشق ١٣٩٢ هـ .
- سيرة النبى محمد ﷺ تأليف أبى محمد بن عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميرى (ت ٢١٨ هـ) راجعه وعلق عليه محمد خليل هراس ، مكتبة الجمهورية القاهرة .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم مكتبة المعارف ، الرياض المغرب .
- **فقه السنة تأليف سيد سابق .**
- منهاج المسلم ، تأليف أبى بكر جابر الجزائرى ط ٨ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩١ هـ .
- **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر تأليف د. محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية ، بيروت .**

مراجع كتبها المستشرقون ومن سار على نهجهم أو تبنى أفكارهم ، وهى تحوى :

تحريفا أو تشويها أو تزييفا لتاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، وتاريخ الحرم الآمن وبيت الله العتيق ومكة المكرمة ومناسك الحج .

- الموسوعة العربية الميسرة ، اشترك في تحريرها عديد من أساتذة الجامعات ، وأشرف عليها محمد شفيق غربال ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- الحضارات السامية القديمة ، تأليف س . موسكاتى ترجمة د . السيد يعقوب بكر .
- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد على ، العراق ١٩٧٠ م .

- العرب قبل الإسلام ، تأليف جورجى زيدان ، القاهرة .
- الدعوة إلى الإسلام ، تأليف توماس ارنولد ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة .
- تاريخ العرب المطول ، تأليف فيليب حتى وآخرون ، بيروت .
- تاريخ التمدن الإسلامي ، تأليف جورجي زيدان ، دار الهلال ، القاهرة .
- تاريخ العرب العام ، تأليف ل . أ . سيديو ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٨٩ هـ .
- تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، تأليف محمد مبروك نافع ، القاهرة .
- حضارة العرب ، تأليف جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة الحلبى ، القاهرة .
- دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى ، مطبعة الشعب ، القاهرة
- دائرة المعارف الإسلامية ، قام بتأليفها مجموعة من المستشرقين .
- دراسات تاريخية من القرآن الكريم « فى بلاد العرب » ، تأليف الدكتور محمد بيومي مهران ،
- سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د . حسن صبرى الخولي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٣ م .
- **عصر ما قبل الإسلام : تأليف فيلبى .**
- قصة الحضارة ، تأليف ول . ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، إدارة التأليف والنشر ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .
- **فى الأدب الجاهلى : طه حسين .**
- موسوعة العقاد الإسلامية ، تأليف عباس محمود العقاد ، جـ ١ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦١ .

- موسوعة « تاريخ العالم » أشرف على إعداده جون أ. هامرتن ، وقام بتأليفه لفيف من أساتذة الجامعات ، وقام بالترجمة بعض الأساتذة هم محمد بدران ، وعبد الحميد يونس ، ومحمد إبراهيم الدسوقى ، د . محمد عوض محمد وإبراهيم زكى خورشيد ، ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
- معالم تاريخ الإنسانية التى أصدرها هـ. ج. ولز وشارك فى تأليفها مجموعة من أساتذرة الجامعات ، وقام على ترجمتها د. عبد العزيز توفيق جاويد ، ط٣ ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- موسوعة تاريخ العالم ، التى أعدها لانجر وترجمها د. راشد البراوى ، محمد على أبو درة ، القاهرة ١٩٧١ .

المحتويـــات

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصـــل السادس

الفصـــل السابع

دراسة نقدية

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : DWFA UN ٢٤٠٠٤

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/١٦١٩
الترقيم الدولى ٩٧٧ - ١٤٢٠ - ٤٩ - ٦